

ترجمة عبد الله حبه

М. ШОЛОХОВ

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ
в 4-х томах

ТОМ 1

ДОНСКИЕ РАССКАЗЫ

На арабском языке

Ш1 4702010200—358 / 031(05)—86 072—86.

طبع في الاتحاد السوفيتي
© الترجمة الى اللغة العربية — دار «رادوغا»
فرع طشقند، ١٩٨٦
ISBN 5-05-000704-6
ISBN 5-05-000705-4

كلمة عن شولوخوف

بقلم: **قسطنطين فيدين**

ان كانت سيرة الكاتب تعتبر المجرى الاساسي لتصوراته عن العالم، وهي كذلك فعلا، فانه كان من نصيب شولوخوف في الحياة معايشة تيارات تعتبر من اعنف التيارات التي عرفتها الثورة الاجتماعية بروسيا، واكثرها عمقا. واين كانت سترغي العواصف وتزبد ان لم يكن في ارض القوزاق؟ وبدا ان السواحل الصخرية لنمط المعيشة القديم ستصمد امام لطمات الامواج كافة. بيد ان اضطراب اللجة تغلب على صلابة الصخور ايضا.

كان شولوخوف في ميعان الصبا حينما استعرت نيران الحرب الاهلية على ضفاف الدون. فغدت مدرسة له وصقلت لديه بحدة ارادة الثوري، وفي الوقت نفسه صقلت موهبة الكاتب التي غرستها الطبيعة فيه.

ومصيره من هذه الناحية يعد نادر المثال للغاية. بدأ بنشر اعماله في سن الثامنة عشرة. وفي العشرين أصدر مجموعة قصص. ويتذكر جيلنا الاقدم كيف استقبل القراء المجلد الاول من «الدون الهادىء» في فترة نشوء الرواية السوفيتية. وكان مؤلفها انذاك قد بلغ سن الثالثة والعشرين فحسب. واحدثت الرواية صدى مدويا وبهيجا ومشوبا بالعجب، واحيانا حتى متوعدا — اذ لم تكن التنبؤات سارة دوما. كان يشغل بال الجميع السؤال التالي: «ماذا ينتظر من الكاتب

لاحقا؟». وجاءت الاعوام الخمسة التالية بالمفاجأة تلو المفاجأة، وكل واحدة منها تؤكد بان الادب الروسي السوفيتي قد منح موهبة ملحمية جديدة: حيث ظهر الكتاب الاول من «ارضنا البكر» بعد صدور المجلدين الثاني والثالث من الملحمة.

بصدور هذا الكتاب بدا واضحا اتساع نطاق القدرات الفنية للكاتب. ان الطفرة، التي املت عليه تأجيل كتابة رواية والشروع بالاخرى، لم تكمن فقط في تناول موضوع روائي يختلف عن الموضوع الحياتي السابق، بل وفي ان احداث اليوم التي تمضي بسرعة كانت حافلة بهذا الموضوع. ووجب ان تتنحى عن مكانها قصة الحرب الاهلية المدونة، والتي سيطرت على خيال الكاتب طوال اعوام، لكي تحل محلها قصة الصراع الجاري امام سمعه وبصره من اجل نشر التعاونيات في الزراعة ببلادنا كلها. ونجح الكاتب في معالجة مهمته الصعبة جدا بحكم ارتباطها المتواصل بالحياة، وبحكم غنى معرفته باناس العمل، الذين يمضي معهم قدما لقدم. وتحقق النجاح – وهذا حق! – بموهبة الابتكار الشاعرية الفذة لميخائيل شولوخوف.

انني لا استعرض اعماله، فهي عظيمة الاهمية بالنسبة الى تطوير فن الكلمة، الذي يثمنه ادبنا كل التثمين ويتمتع بقدرة جذب عظيمة لدى جمهرة لا تعد ولا تحصى من القراء. وبودي فقط الاشارة الى خصلتين مميزتين لكل نثر شولوخوف.

ان فضل ميخائيل شولوخوف العظيم يكمن في الجرأة المميزة لمؤلفاته. وهو لم يتهرب أبدا من تناقضات الحياة، أيا كان العصر الذي يتناوله بالوصف. وتظهر كتبه الصراع بين الماضي والحاضر بكل ابعاده. وتحضرني بلا ارادة وصية ليف تولستوي الى ذاته و كان لا يزال في سن الفتوة – وهي الوصية بعدم الكذب جهارا، وكذلك بعدم الكذب سلبا ايضا اي بالتزام الصمت. ان شولوخوف لا يلتزم الصمت، بل يكتب الحقيقة كلها. انه لا يحول المأساة الى دراما، ولا يجعل من الدراما مطالعة مسلية. ولا يخفي

الاوضاع المأساوية في باقات عزاء من الازهار البريه. بيد ان قوة الحقيقة هي بشكل بحيث يعاد تقييم مرارة الحياة، مهما كانت فظيعة، ويتم التغلب عليها بالارادة في السعادة، بالرغبة في بلوغها والبهجة بتحقيقها. واعتقد بان الامر هكذا فعلا، فليس عبثا ان طوعنا مفهوما «كالمأساة المتفائلة»، عارفين جيدا بان الامر ليس تلاعبا بالالفاظ ابدا. وحينما ندرك بكل اعماقنا الشعور بمأساوية هذه الواقعة او تلك التي يظهرها الكاتب، فاننا نغلق كتابه بانطباع وضاء. وهذا ما يتركه فينا، ضمنا، المجلد الختامي الرائع لرواية «الدون الهادي».

والخاصية النوعية الاخرى لنثر شولوخوف التي سأوردها هي الاستمرارية ذات الاثر الطيب للتقليد القومي للملحمة الروسية. ولايعني ذلك المضي في الطرق والدروب التي شقها اسلافنا الادباء الكلاسيكيون. لا، فقد سار شولوخوف على هدى دليل مقنع يفيد بانه لا يتحقق التقدم في الفن الا بتآلف الكاتب عضويا مع عصره. وما ندعوه بمحتوى العمل الادبي لا ينفصم عن مجمل آراء الكاتب بزمانه. وحينما ناخذ كتابا لشولوخوف فاننا نمسكه بايدي زماننا، المصطبغ بالقناعات والافكار والاهداف الانسانية للعصر. وينهل الكاتب بحرية من اثمن خبرة التراث الواقعي، حينما لا يتناقض مع الحياة الجديدة، بل يمثل التربة التي تنمو فيها. وخبرة كتابنا الكلاسيكيين هذه ليست غريبة عن واقعية العصر، بل تنصب فيها، فتساعد على ابداع نفائس ادب الواقعية الاشتراكية. وميخائيل الكسندروفيتش شولوخوف يعتبر من رجال هذا الادب البارزين.

الشامة

١

ثمة خراطيش فارغة على المائدة، تفوح منها رائحة بارود محترق، وعظم خروف، وخارطة ميدانية، وبلاغ، ولجام مزخرف تنبعث منه الرائحة العفنة لعرق الحصان، ورغيف سميك. كانت هذه كلها على المائدة، بينما جلس نيكولاي كوشيفوي، قائد سرية الخيالة، على دكة خشبية منجورة علاها الكرج الزاحف من الجدار الرطب، واستند ظهرها الى قاعدة النافذة بقوة. وكان يمسك القلم باصابعه الباردة الجامدة بلا حراك. وثويت على الطاولة استمارة مملوءة الى نصفها، ملقاة الى جانب الملصقات القديمة المفروشة عليها. وتضمنت الورقة الخشنة معلومات مقتضبة: نيكولاي كوشيفوي. قائد سرية خيالة. فلاح. عضو اتحاد الشبيبة الشيوعي في روسيا.

دون القلم مقابل بند «العمر» ببطء: ١٨ عاما.

ونيكولاي عريض المنكبين، ويبدو اكبر من سنه، وما يجعله هرما وجود التجاعيد حول عينيه، وظهره المحدودب وكأنه شيخ طاعن في السن.

يقولون في سرية الخيالة مازحين: — انه صبي، وغلام، غر. بيد انك لن تجد رجلا آخر بوسعه سحق عصابتين من قطاع الطرق بدون خسائر تقريباً وقيادة

السرية طوال نصف سنة من المعارك والنزالات بشكل ليس اسوأ من أي قائد شيخ محنك.

ان نيكولاي يخجل من اعوامه الثمانية عشرة. كان القلم ينساب، فتتباطىء حركته، دائما، امام البند البغيض «العمر»، بينما تصطبغ وجنتاه بالحمرة آسفاً. ان والد نيكولاي قوزاقي، وهو عن طريق أبيه قوزاقي أيضاً. ويتذكر ان والده اجلسه على حصانه أيام الخدمة في الجيش، وكان آنذاك قد بلغ سن الخامسة او السادسة من عمره. وبدا هذا له الآن ما يشبه الحلم.

صاح به: امسك العرف، يا بني!

بينما كانت الام تبتسم الى نيكولاي من باب المطبخ، شاحبة الوجه، وعيناها الواسعتان تتطلعان الى الساقين الصغيرتين الملتصقتين بظهر الحصان المدبب، والى الأب الممسك بالمقود.

حدث ذلك منذ أمد بعيد. وفقد اثر والد نيكولاي في الحرب العالمية الاولى كما لو ابتلعه اليم. ولم يسمع عنه خبر. وتوفيت والدته. ورث نيكولاي عن ابيه حب الخيل، والجرأة البالغة وشامة، مثلما لدى ابيه، بحجم بيضة الحمامة، على ساقه اليسرى، فوق الرسغ. وجاب الأرض بحثاً عن الرزق حتى سن الخامسة عشرة، ومن ثم حصل بعد الحاح على معطف عسكري طويل، والتحق بفوج من الخمر بالدسكرة وتوجه لمحاربة فرانجل*. وفي هذا الصيف كان يعوم في الدون مع القائد العسكري فقال هذا، بتأتأة وقد أمال رأسه المرضوض، وهو يطبطب على ظهر نيكولاي المحدودب الذي لفحته الشمس:

— أتعرف.. أتعرف.. انك محظ.. محظوظ! نعم، محظوظ! يقال ان الشامة هي الحظ.

* فرانجل (١٨٧٨ — ١٩٢٨) جنرال في الحرس الأبيض، احد قادة الثورة المضادة في جنوب روسيا (١٩١٨ — ١٩٢٠) هرب الى الخارج بعد ان هزم الجيش الأحمر جيشه. **المترجم.**

كشر نيكولاي عن اسنانه الناصعة البياض، وغاص تحت الماء ثم ظهر وصرخ منه وهو ينخر:

– انت تكذب، يا صاح! فانا يتيم منذ نعومة اظفاري، وعانيت طوال حياتي من الكدح كاجير، بينما هو يتحدث عن الحظ!..

ثم سبح نحو لسان رملي اصفر يعانق الدون.

٢

يقوم البيت الذي يقطنه نيكولاي فوق جرف منحدر يطل على نهر الدون. وترى من نوافذه الضفة المقابلة الخضراء المتماوجة، وصفحة الماء الرمادية كالفولاذ. وفي الليالي العاصفة كانت الامواج تصطفق على الجرف المنحدر، وتصر درف النوافذ، منتحبة، فيتراءى لنيكولاي ان المياه تزحف متلصصة عبر شقوق الارضية، وحينما ترتفع تهز الكوخ.

أراد الانتقال الى مسكن آخر، ولكنه لم ينتقل، وبقي هناك حتى حلول الخريف. وفي صباح بارد خرج نيكولاي الى الشرفة معكرا السكون الهش بدقات نعلي جزمتيه. وهبط الى بستان الكرز الصغير واستلقى على العشب الرطب، الذي يشوبه بياض قطرات الطل. وسمع كيف كانت ربة البيت تستميل البقرة للوقوف بهدوء، بينما العجل يخور باصرار وبصوت اجش، و دفقات الحليب تولد رنينا على جدران الدلو.

صرت البوابة في الفناء، ونبح الكلب. وسمع صوت قائد الفصيلة:

– هل القائد في البيت؟

انتصب نيكولاي على مرفقيه.

– ها أنذا! ماذا حدث ايضا؟

– جاء رسول من الدسكرة. يقال ان عصابة شقت طريقها من دائرة «سال» واحتلت سوفخوز جروشينو.

– قده الى هنا.

اراد الرسول ان يجر الى الاصطبل حصانه الذي يتصبب عرقا ساخنا. بيد ان هذا خر في وسط الفناء على ساقيه الاماميتين، ومن ثم انكفأ على جانبه، وصدر عنه شخير متقطع وقصير ثم نفق، وهو يتطلع بعينيه الزجاجيتين الى كلب الحراسة الذي ما انفك ينبح بشدة وشراسة. وقد نفق لان المظروف الذي جلبه الرسول كان معلما بثلاثة صلبان – مما يدل على أهميته – وانطق الرسول حاملا هذا المظروف مسافة اربعين فرسخاً، بلا توقف.

قرأ نيكولاي ان الرئيس يطلب منه التوجه مع سرية الخيالة لتقديم المعونة، وولج الى حجرة الضيافة، وصار يثبت السيف، ويفكر بوهن: «كان الأولى بي أن اسافر للدراسة، بينما هنا العصابة... والقائد العسكري يعيب علي بقوله: انت لا تكتب الكلمات بصورة صحيحة، وانت قائد سرية خيالة... وما ذنبي ان لم أجد الفرصة لانهاء المدرسة الابتدائية؟ انه غريب الأطوار.. وهنا العصابة.. ستراق الدماء مجدداً، انني تعبت من العيش هكذا... لقد عافت نفسي كل شيء..»

خرج الى سقيفة الباب وهو يحشي القربينة ماشيا، بينما كانت تندفع افكاره كالحصان في درب مطروق: «لو كان بوسعي لسافرت الى المدينة.. ولدرست..»

توجه الى الاصطبل ماراً بالحصان النافق، وتطلع الى شريط الدم الأسود النازف من المنخرين المعفرين بالتراب، وأشاح بوجهه عنه.

٣

تنمو في الطريق الوعرة، وفوق الآثار المتجمدة للعجلات، التي لعقتها الرياح، اعشاب رجل الاوزة ذات الاوراق المتجعدة، ونبات الخباز ذو الاوراق العريضة الكثيفة والموبرة. كان ينقل في هذا الطريق في وقت ما العشب الى الاهراء المتناثرة في السهب كبقع من الكهرمان

اما الدرب المطروق الرئيسي فيمر صاعدا وهابطا بمحاذاة اعمدة التلغراف. وتمضي الاعمدة في عتمة الخريف، الضبابية، وتخطو عبر الاخاديد والوهاد، بينما كان الاتامان* يقود في الدرب المتالق بمحاذاة الاعمدة عصابته المؤلفة من خمسين نفرا من قوزاق الدون وكوبان، الساخطين على السلطة السوفيتية. انهم ينسحبون منذ ثلاثة ايام، كذئاب اغارت على قطيع من الغنم، سائرين في الدروب المطروقة والسهوب الوعرة، بينما كانت تتعقبهم طوال ذلك الوقت سرية نيكولاي كوشيفوي.

كانوا رجالا اشداء، خدموا في الجيش، محنكين، ومع هذا ما انفك الاتامان مستغرقا في التفكير العميق: انه ينتصب في الركاب، ويمعن النظر في السهب، ويحسب الفراسخ التي تفصلهم عن اطراف الغابات المشوبة بالزرقة الممتدة على الضفة الاخرى لنهر الدون.

هكذا كانوا ينكفئون متلصصين كالذئاب، بينما تتعقبهم سرية الخيالة بقيادة نيكولاي كوشيفوي.

في ايام الصيف الصاحية تتأرجح سنابل القمح وترن بعذوبة كالفضة في سهوب الدون تحت السماء الشديدة الزرقة. كان هذا قبيل الحصاد، حينما تنضج سنابل الحنطة المكتنزة فتسود اذنابها، مثل شارب غلام لدى بلوغه السابعة عشرة من العمر، بينما يمد الجودار اعناقه كما لو يطاول الانسان.

كان الفلاحون القوزاق الملتحون يزرعون الحبوب بشقق في الارض الطفالية وعلى الكثبان الرملية وبمحاذاة غيطان الحور. وهي لا تعطي ابدا محصولا طيبا، فالديسياتينا** لا تعطي منذ القدم اكثر من ثلاثين مكيالا، وهم يزرعونها لانهم يصنعون من الحنطة كحولا انقى من دموع عذراء؛ ولانه

* الاتامان – قائد قوزاقي، هنا رئيس العصابة. **المترجم.**

** الديسياتينا – وحدة قديمة للمساحة تعادل ١،٠٩ الهكتار. **المترجم.**

جرى هذا العرف منذ القدم ولان الأجداد واجداد الأجداد كانوا يشربون، وانه ليس عبثا ان صور على شعار جيش الدون قوزاقيا ثملا عاريا جالسا فوق برميل نبيذ. ويجتاح السكر العزب والدساكر في الخريف، وتتأرجح ثملا القبعات الفرو المزينة بالقماش الاحمر في اعلاها على رؤوس القوزاقيين المترنحين بمحاذاة الاسيجة المضفورة من اغصان الصفصاف.

لهذا السبب ذاته كان الاتامان نفسه في حالة سكر دائم، ولهذا ايضا كان الحوذيون ورجال المدافع الرشاشة يتدلون باماكنهم في عربات «التاتشانكا»*.

لم ير الاتامان بيوت قريته طوال سبعة أعوام. في البداية وقع في الأسر الألماني، ثم الخدمة في جيش فرانجل واسطنبول التي تحرقها الشمس، والحجز في معسكر المهاجرين وراء الاسلاك الشائكة، والابحار في سفينة تركية ذات اشرعة مثلثة تفوح منها رائحة الملح والقطران، ثم احراج نبات اليراع في نهر كوبان، واخيرا – عصابة قطاع الطرق.

تلكم هي حياة الاتامان، ان عن له القاء نظرة اليها عبر كتفه. لقد غلظ قلبه كما تتغلظ في قيظ الصيف آثار الاظلاف الثنائية للثيران بالقرب من المستنقع في السهب. وشفه ألم غريب وغامض، انه يغمر عضلاته بالسقم. وكان الاتامان يشعر بانه هيهات له ان ينساه او يغرقه في الخمر ومع هذا ما انفك يشرب، ولا يمر يوم يستقبله صاحياً، لان الجودار يزهر حلواً ذا اريج في سهوب الدون، التي كشفت للشمس عن رحمها بتربته السوداء الشرهة، ولان النساء السمراوات الخدود، زوجات الجنود الذين رحلوا الى ميادين القتال منهمكات في صنع مجاجة راح لا يضاهيها في الصفاء ماء الينبوع الرقراق.

* عربة مجهزة بمدفع رشاش. **المترجم.**

عند الفجر تساقط أول صقيع. فاكتست به اوراق زنابق الماء العريضة. وحينما حل الصباح لاحظ لوكيتش على عجلة الطاحونة قطع جليد رقيقة مبرقشة و كأنها البلق.

كان لوكيتش يشعر منذ الصباح بوعكة: فثمة وجع في الحقو، وألم فاتر في ساقيه، مما جعلهما ثقيلتين كالحديد، او كأنهما ملتصقتان بالأرض. صار يجوب أنحاء الطاحونة بتثاقل، مجرجرا جسده بجهد جهيد وبهيئة غريبة كما لو ان عظامه انفصلت عن لحمه. برزت من تحت مطحنة الدخن مجموعة من الفئران الصغار. ورنا بعينين دامعتين الى الاعلى حيث كانت حمامة تقرقر بنشاط وهمة من فوق احدى العوارض تحت السقف. وسحب الشيخ نفسا من منخريه اللذين بدآ وكأنهما صنعا من الطين، فاستنشق الرائحة النفاذة للاشنات المائية ورائحة الجودار المطحون، وأخذ يصغي الى المياه وهي تمتص وتلحس ركائز عجلة الطاحونة في عجلة، ومسد لحيته الخشنة وقد استغرق في التأمل.

استلقى لوكيتش في المنحل لنيل قسط من الراحة، وغطى جسمه بمعطف الفرو بصورة منحرفة، فاغرا فاه، وبانت على طرفي فمه قطرات لعاب لزج دافىء. ادلهم الظلام فوق كوخ العجوز فكساه بظلاله، واختفت الطاحونة في ثنايا الضباب...

حينما استيقظ برز من الغابة فارسان. صاح احدهما مخاطبا العجوز الذي كان يخطو بتؤدة في مكان المنحل:

– تعال الى هنا يا عم!

تطلع لوكيتش بريبة ثم توقف. لقد رأى ابان هذه الاعوام المضطربة الكثير من هؤلاء الرجال المسلحين، الذين كانوا يسلبونه بلا اذن العلف والدقيق، ولم يحبهم جميعا مهما كانت ملتهم.

– عجل في السير ايها التيس العجوز..

مضى العجوز بين المناحل المصنوعة من جذوع الاشجار متجها نحوهم، ودمدم بشيء ما من شفتيه الشاحبتين الواهنتين، وتوقف على مسافة ما عنهم، وصار ينظر من طرف عينه الى الطارقين.

قال الاتامان بصوت اجش مشوب باللطف:

– نحن من الحمر، ايها العم.. لا تخف منا، اننا نطارد عصابة، وتخلفنا عن جماعتنا.. لربما شاهدت الفصيلة تمر من هنا يوم أمس...

– مر بعضهم..

– الى اين ذهبوا، ايها العم؟

– ليأخذني الطاعون ان كنت ادري..

– ألم يبق أحد منهم في طاحونتك؟

– لا أحد هنا.

قال لوكيتش هذا باقتضاب، وادار ظهره لهما.

– تمهل يا شيخ.

ترجل الأتامان من سرجه، وانتصب ثملا فوق ساقين معوجتين، وفاحت منه رائحة الخمر القوية حينما قال:

– نحن، يا جدي، نقضي على الشيوعيين، افهمت؟ اما من نحن، فهذا ليس من شأنك! – وتعثر فاسقط مقود الحصان من يده – وواجبك تهيئة الحبوب لاطعام سبعين حصانا، والتزام الصمت.. هيا بسرعة! مفهوم! اين تخزن الحبوب؟

– ما عندي.

قال لوكيتش هذا مشيحاً ببصره عنه.

– وماذا في هذا العنبر؟

– اظن.. اشياء من سقط المتاع... ليس عندي حبوبا!

– هيا بنا..

امسك بتلابيب العجوز ودفعه بركبته نحو العنبر المتداعي والغائص في الأرض. فتح الباب. كانت هناك حنطة وشعير في الصناديق...

– ما هذا برأيك، أليست هي حبوب، ايها الوغد العجوز؟

– حبوب، يا بني. انها حصتي لقاء طحن الحبوب. لقد جمعتها حبة حبة خلال عام، وانت تريد اطعامها للخيل..

– اذن، برأيك، لتنفق جيادنا جوعاً؟ مع من انت – مع الحمر... هل تسعى الى حتفك؟

– رحماك، يا بني، لماذا تريد قتلي! – ونزع لوكيتش قبعته وخر ساقطا على ركبتيه، وامسك بيد الاتامان المشعرة، وصار يقبلها.

– انت تحب الحمر؟

– العفو، يا بني. اغفر لي كلامي الاحمق. ارحمني ولا تقتلني – صرخ العجوز بهذا وهو يحتضن ساقي الاتامان.

– اقسم بانك لست مع الحمر.. ولا ترسم علامة الصليب.. بل التهم التراب!

أخذ العجوز حفنة من الرمل بكفيه وصار يمضغه بفم خال من الاسنان وهو يبلله بالدموع.

– هيا، الآن اصدقك. قم ايها العجوز!

وأخذ الاتامان يقهقه وهو ينظر كيف يجهد العجوز نفسه للوقوف على ساقيه الواهنتين الذاويتين. بينما كان الفرسان الاخرون يحملون الحنطة والشعير من الصناديق ويفرشون أرض الفناء بالحبوب الذهبية وينشرونها تحت قوائم الخيل.

٥

لاحت تباشير الفجر الملفع بالضباب، والرطوبة الرمادية.

إنسل لوكيتش من وراء الحارس واتجه مسرعا الى القريه ليس في الطريق بل في درب لايعرفه أحد سواه، يمتد عبر الاخاديد والغابة النائمة نوما خفيفا في انتظار الفجر.

بلغ الطاحونة الهوائية بجهد، وحينما اراد عبور

الطريق الرئيسي وولوج أحد الأزقة الجانبية برزت امامه بغتة اشباح غير واضحة لفرسان.

صرخ احدهم منذرا وسط السكون: – من القادم؟

تمتم لوكيتش وكل كيانه يهتز رعباً:

– هذا أنا...

– من أنت؟ الديك جواز مرور؟ ولاية حاجة تجوب هنا؟

– انا الطحان... من الطاحونة المائية.. جئت الى القرية لقضاء حاجة ما.

وصرخ به أحدهم وهو يدنو منه بحصانه:

– ما هي حاجتك؟ هيا بنا الى القائد.. سر أمامي...

احس لوكيتش بشفتي الحصان الرطبتين عند رقبته ومضى نحو القرية باسرع ما يستطيع بخطوات عرجاء.

توقفا عند بيت صغير قائم في الساحة يغطي سقفه القرميد. ترجل مرافقه من السرج، وهو يتأوه، وربط الحصان عند السياج، وصعد الى الشرفة وسيفه المتدلي يقعقع.

– اتبعني!..

كان ثمة نور يومض في النوافذ. ودخلا.

عطس لوكيتش لدى استنشاق دخان التبغ، ونزع قبعته، ورسم علامة الصليب مسرعا في الركن الذي توضع فيه الايقونة عادة.

– احتجزنا هذا العجوز.. كان متوجها نحو القرية.

رفع نيكولاي من على الطاولة رأسه الأشعث، الذي علق به الزغب والريش، وسأل شبه نائم، ولكن بحزم:

– الى اين كنت ذاهب؟..

خطا لوكيتش الى الامام وتلعثم بجذل:

– عزيزي... انتم من أهلنا.. كنت أتصور مرة اخرى.. الشياطين هؤلاء... لقد فزعت.. وخشيت ان أسأل.. أنا الطحان. لقد توقفتم عند طاحونتي حينما كنتم

تمرون عبر غابة متروخا. بينما قدمت لك يا عزيزي بعض الحليب.. هل تذكرت؟

– حسنا، ماذا وراءك؟

– اريد ابلاغك يا عزيزي بانه جاء الي مساء يوم امس قطاع الطرق اولئك.. ونثروا الحبوب كلها امام الجياد... وهزأوا بي.. وقال لي كبيرهم: اقسم على الاخلاص لنا، ثم ارغمني على التهام التراب.

– والآن، اين هم؟

– انهم هناك. لقد جلبوا معهم الفودكا، وهم يحتسونها، عليهم اللعنة، الشياطين في غرفة الضيافة، بينما سعيت الى ابلاغ سيادتك، فلعلك تعيدهم الى جادة الصواب.

– لتسرج الجياد..

نهض نيكولاي عن الدكة مبتسما الى الشيخ وشد كم معطفه بحركة تدل على التعب.

٦

انبلج نور الصباح.

بدا نيكولاي شاحب الوجه بسبب الليالي المسهدة، واقترب خببا من العربة ذات الحصانين والمجهزة بمدفع رشاش.

– حالما نبدأ الهجوم... اضرب نحو الميمنة يجب ان نكسر جناحهم هذا...

ثم انطلق بجواده نحو السرية الزاحفة.

ظهر طابور فرسان في الطريق العام وراء حرش من اشجار البلوط العجفاء – في صفوف من اربعة فرسان، وفي الوسط عربات «تاتشانكا».

صرخ نيكولاي: «الى الهجوم!»، وعندما احس بهدير السنابك المشتد خلفه اطلق لفرسه العنان.

في طرف الغابة صار المدفع الرشاش يلعلع، بينما انتشر السائرون في الطريق كالسيل المنحدر، كما لو كانوا في مناورة...

* * *

برز ذئب من وسط اكوام اشجار متساقطة على طرف تلة، وقد علقت به ثمار شائكة. اصغى وهو يمد عنقه الى الامام. بينما كانت تلعلع الطلقات وتتعالى شتى الصرخات في موجة عارمة، قريبا من هناك.

طق! – كانت الطلقة تدوى في حرج الحور الرومي فيجيبها الصدى بدمدمة سريعة من وراء التل والحقل: طاق!

ومرة اخرى: طق، طق، طق!... بينما يرد الجواب من وراء الرابية: طاق، طاق، طاق!

وقف الذئب هنيهة ثم مضى وئيدا نحو فج تغطيه نباتات السعد الصفراء.

صرخ الاتامان وقد انتصب في ركاب جواده:

– اصمدوا.. لا تتركوا العربات.. انسحبوا الى الغابة... اللعنة على امهاتكم!.

بينما كان الحوذيون ورجال المدافع الرشاشة مشغولين بتحطيم جرارات العربات.. وانفصمت سلسلة قطاع الطرق مولين الادبار، بعد ان كسرتها النيران المتواصلة للمدافع الرشاشة.

ادار الاتامان جواده فرأى فارسا مندفعا نحوه وهو يلوح بسيفه بينما يرفرف طرفا معطفه الاسود كجناحي طائر. وحدس الاتامان من المنظار المتدلي على صدر الفارس ومن معطف الوبر الاسود الملتفع به بانه ليس من رجال الجيش الاحمر العاديين، فشد اللجام وتوقف. ورأى من بعيد وجه الفتى الخالي من الشاربين، كان عبوسا وضيق عينيه بسبب الريح. صار جواد الاتامان يتراقص في مكانه

منتصبا على قائمتيه الخلفيتين. اما هو فكان ينتزع مسدسه الماوزر الذي علق بحزامه وصرخ:

– هيا ايها الجرو الصغير!.. لوح، لوح.. فسأريك كيف تلوح!

اطلق الاتامان النار باتجاه معطف الوبر الاسود المنتفخ. فاندفع الحصان مسافة عشرين مترا تقريبا وسقط، اما نيكولاي فقد نزع المعطف وهرول باتجاه الاتامان وهو يطلق النار مقتربا اكثر فاكثر...

اطلق احدهم وراء الاشجار عواءا كالحيوان وصمت فجأة. حجبت السحب نور الشمس، وغطت الظلال السابحة السهب والطريق والغابة التي تعرت بفعل الرياح والخريف.

«الغر والقليل الخبرة والمتهور يلقى حتفه هنا...» – جالت هذه الخواطر في راس الاتامان، بصورة متقطعة. انتظر حتى فراغ المشط في مسدس خصمه، ثم ارخى العنان لجواده واندفع كالصقر.

مال على سرجه، ملوحا بسيفه، واحس للحظة كيف التوى الجسد تحت ضربته وانهار الى الأرض بلا مقاومة. ترجل الاتامان، واختطف المنظار من القتيل، وتطلع الى ساقيه اللتين ما برحتا تهتزان برجفات خفيفة، وتطلع حواليه وجلس القرفصاء وصار ينتزع من الميت الجزمتين المصنوعتين من الجلد الكرومي. انتزع احدى الجزمتين بسرعة وخفة بعد ان داس على ركبة الميت التي انبعثت منها طقطقة. اما الجزمة الاخرى فيبدو انها علقت بالجورب، فلم تنتزع. وسحبها بقوة، وهو يطلق الشتائم البذيئة، وانتزعت مع الجورب، فرأى على الساق شامة بحجم بيض الحمام في أعلى الرسغ. أدار ببطء الرأس التي سرت فيها البرودة، كما لو كان يخشى ايقاظه، وتلوثت يداه بالدماء المتدفقة من الفم بسيل واسع تشوبه الفقاعات، وامعن فيه النظر. وعندئذ فقط احتضن الكتفين النحيفتين بحركة خرقاء وقال بصوت متحشرج:

– بني! نيكولوشكا!.. حبيبي.. فلذة كبدي..

احتقن وجهه بالدم وصرخ:

– قل ولو كلمة واحدة... كيف حدث هذا!! ها؟

سقط وهو يتفحص العينين الخابيتين: وشرع يرفع الحاجبين الملطخين بالدم، ويهز الجسد الطيع المسلوب الارادة... بيد ان نيكولاي عض طرف لسانه المزرق بقوة، كما لو كان يخشى البوح بأمر ما كبير وهام جداً.

ضم الاتامان يدي ابنه الباردتين الى صدره، ولثمهما، ثم عض باسنانه فوهة المسدس (الماوزر)، الذي غطي فولاذه برطوبة انفاسه، واطلق النار في فمه...

* * *

في المساء، حينما ظهرت اشباح فرسان من وراء الغابة، وسمعت اصوات رجال ونخير الجياد وصليل ركبها، حلق من راس الاتامان الاشعث باز جارح منزعجا، واختفى في السماء الرمادية الخريفية.

١٩٢٤

الـراعي

١

هبت الرياح الساخنة على مدى ستة عشر يوما من السهوب البنية والرمادية التى تحرقها الشمس، ومن الاراضي السبخة المتشققة والبيضاء، ومن جهة الشرق.

تفحمت الارض، وذبلت الاعشاب واصفرت، وجفت ينابيع الآبار المتناثرة بكثافة على امتداد الطريق، بينما ذبلت سنابل القمح التى لم تبرز بعد من بين الوريقات. لقد وهنت وشحب لونها وذوت، ومالت محدودبة نحو الارض كالشيوخ الطاعنين فى السن.

سمع فى القرية أبان القيلولة بمنتصف النهار الرنين النحاسي لقرع الاجراس.

قيظ. سكون. ولا يتناهى الى السمع سوى وقع اقدام تمضي بمحاذاة الاسيجة المصنوعة من أغصان مضفورة، ويتصاعد من تحتها الغبار، وكذلك صوت دقات عكاكين الشيوخ التى تتلمس طريقها فوق الارض الوعرة.

الاجراس تعلن للأهالى نبأ عقد اجتماع. ويتضمن جدول اعماله تعيين أحد ما راعيا.

كان مكتب اللجنة التنفيذية يمتلىء بضجيج الاحاديث، وبدخان التبغ.

دق الرئيس على الطاولة بعقب قلم رصاص.

– ايها المواطنون، لقد رفض الراعي السابق العناية بأمر القطيع، لان اجرة العمل لا تناسبه. ونحن فى اللجنة التنفيذية نقترح تعيين جريجوري فرولوف. انه من اهل المنطقة، ويتيم وعضو فى الكمسمول... وكما تعرفون كان والده اسكافيا. والآن يعيش مع شقيقته، وليس لهم من مورد للرزق. اظن، ايها المواطنون، انكم ستتفهمون الموقف، وستوافقون على ان يتولى امر العناية بالقطيع.

ما طاق العجوز نيستيروف صبرا على هذا، فصار يتلوى ويتململ فى مقعده، وقال:

– «انه لا ينفعنا.. فالقطيع كبير، وهو لا يعرف شغلة الراعي..! ويجب ان يساق القطيع الى اماكن بعيدة، لان العلف غير متوفر قريبا منا، وهذا عمل لا يحسن القيام به. وبحلول الخريف نجد ان نصف العجول قد نفق...»

وتحدث الطحان ايغنات، وهو عجوز فطن، فقال بصوت ناعم ساخر:

– سنجد راعيا بدون اللجنة التنفيذية. هذه مسألة تعنينا وحدنا. ولا بد من اختيار رجل عجوز يعول عليه، ويحسن معاملة الماشية.

– صحيح، يا عم...

– ان عينتم شيخا فثمة احتمال بخسارة العجول اكثر. ان الايام هذه عصيبة، والسرقات كبيرة فى كل مكان... – قال ذلك الرئيس باصرار، وانتظر تأييد الحضور. وتعالت اصوات التأييد:

– العجوز لا ينفع. وخذوا بنظر الاعتبار انها ليست ابقارا، بل عجول فى عامها الاول. هنا لا بد من رجل حثيث القدمين. فان تفرق القطيع، فهيا... تقدم واجمعه. والعجوز ان ركض تساقطت احشاءه...

وتعالت الضحكات المتتالية، بينما عاود الجد ايغنات الكلام بصوت خافت:

– ما علاقة الشيوعيين بالأمر. تجب رعاية القطيع

بالابتهالات وليس كما اتفق... – ومسح العجوز الخبيث صلعته.

عندئذ قال الرئيس بكل صرامة:

– ارجو، ايها المواطن، التحدث بدون اية استفزازات... انني سأطلب من المتكلم... لقاء مثل هذه العبارات مغادرة الاجتماع...

عند الفجر حينما اخذت سحب الدخان تتصاعد من المداخن كالقطن المتسخ، وتنتشر على ارتفاع منخفض فوق الساحة، جمع جريجوري القطيع البالغ عدده ١٥٠ رأسا، وساقه عبر القرية نحو التل الرمادي العبوس.

كانت السهوب مغطاة ببثور بنية من جحور حيوان المرموط، وكانت هذه الحيوانات تطلق صفيرا مديدا وحذرا، وبين فينة واخرى تحلق من بطون الوهاد، حيث تنمو الاعشاب القصيرة، طيور حبارى فيلمع ريشها الفضي.

القطيع هادىء. تتردد دقات الاظلاف المزدوجة للعجول فوق قشرة الارض المغضنة وكانها المطر المنهمر.

وسارت الى جانب جريجوري شقيقته دونياتكا بصفة مساعدة للراعي. وقد اشرقت وجنتاها اللتان لفحتهما الشمس وغطاهما النمش ومقلتاها وشفتاها وكيانها كله بضحكة، لانها بلغت ربيعها السابع عشر فقط بعد عيد الفصح باسبوع واحد. وحينما يكون المرء في سن السابعة عشرة، يبدو له كل شيء مضحكا: وجه اخيها العبوس، والعجول العريضة الآذان، التي تمضغ الحشائش الطويلة وهي ماشية، ويبدو لها مضحكا حتى كونهما بدون قطعة خبز لليوم الثاني.

بينما لا يضحك جريجوري. كان جبينه تحت القبعة الرثة عاليا، وبرزت عليه تجاعيد متوازية، وعيناه مجهدتان، كما لو انه عاش اكثر كثيرا من اعوامه التسعة عشر.

سار القطيع بهدوء على طرف الطريق في بقع متناثرة.

صفر جريجوري باتجاه العجول المتخلفة، والتفت نحو دونياتكا وقال:

– سنكسب، يا دونيا، الحبوب في الخريف، وعندئذ نسافر الى المدينة. وسألتحق بالكلية العمالية، كما سأجد لك ايضا مكانا قد تتعلمين فيه... في المدينة الكتب كثيرة، ويتناول الناس خبزا خالصا بدون شوائب الاعشاب لا كما هي الحال عندنا.

– من اين لنا المال للسفر؟

– يا لك من غريبة الاطوار... سيدفعون لنا ٢٠ بودا* من الحبوب.. وهذه نقود.. سنبيع البود بروبل واحد. ثم نبيع الدخن والروث.

توقف جريجوري في وسط الطريق، وصار يحسب على الارض بطرف عصا سوطه.

– جريشا.. ماذا سنأكل؟ ليس لدينا اي خبز.

– بقيت لدي في الجراب قطعة رغيف جاف...

– سنتاكلها اليوم.. وغدا؟

– غدا سيأتون من القرية وسيجلبون الدقيق.. لقد وعدني الرئيس بهذا...

كانت شمس الظهيرة محرقة. وتبلل قميص جريجوري المصنوع من قماش الاكياس، فالتصق بلوحي الكتف على ظهره.

ومضى القطيع باضطراب حيث كان الذباب والنعرات تلسع العجول، وتعالى في الهواء الساخن خوار البقر وطنين الذباب.

حينما انصرم النهار، وقبل ان يحل المغيب، عمدا الى سياقة القطيع نحو الحظيرة. وبالقرب منها ثمة بركة وكوخ من القش المتعفن بسبب الامطار.

هرول جريجوري مسابقا القطيع، ودنا من بوابة الحظيرة المصنوعة من الاغصان المضفورة وفتحها.

*البود – وحدة وزن روسية قديمة. **المترجم.**

احصى العجول، بامرارها الواحد بعد الآخر فى البوابة المربعة السوداء.

٢

قاما ببناء كوخ جديد فوق رابية برزت فى الطرف الآخر للبركة وكانها حبة بازلاء ضخمة. وسويا الجدران بالروث معا، ثم غطى جريجوري السقف بالحشائش الطويلة.

فى اليوم التالى جاء الرئيس ممتطيا صهوة جواده. وجلب لهما نصف بود من دقيق الذرة وجرابا مملوءا بجريش الدخن.

جلس فى الظل واولع سيجارة.

– انك طيب، يا جريجوري. حينما ينتهي موسم الرعي سنتوجه فى الخريف سوية الى مركز المقاطعة. ولربما ستسنح لك الفرصة هناك للسفر الى مكان ما للدراسة. لدي احد المعارف فى مديرية التعليم الشعبي هناك وسيقدم لك يد المساعدة...

علت وجه جريجوري حمرة شديدة من الابتهاج، وحينما ودع الرئيس أمسك بركاب جواده وشد على يده بحرارة. ووقف فترة طويلة يحدق فى سحب الغبار الملتوية المتصاعدة من تحت سنابك الجواد.

كان السهب الذاوي القاحل، ذو الشفق الاحمر الشبيه بوجه المسلول، يختنق فى الظهيرة من شدة الحر. وصار جريجوري يتطلع وقد استلقى على ظهره الى الرابية التى تلفها سحب الضباب الرقيق، وبدا له كما لو ان السهب حي، وينوء تحت ثقل القرى والدساكر والمدن. وتراءى له أن التربة تتماوج لدى الشهيق والزفير، وفى مكان ما تحت طبقات التربة السميكة تنبض حياة اخرى غير معروفة.

واصابه الرعب فى وضح النهار.

صار يقيس بناظريه صفوف الروابي التي لا حصر لها فى السهب. تطلع الى خيوط الضباب الخفيف المتصاعد

والى القطيع المتناثر فوق العشب البني وفكر بانه قد انفصل عن العالم انفصال الرجل عن قومه.

فى مساء يوم السبت ساق جريجوري القطيع الى حظيرة الماشية. بينما اوقدت دونياتكا نارا بالقرب من الكوخ وانشغلت بطهي عصيدة من جريش الدخن واوراق نبات الحماض ذات العبير.

جلس جريجوري الى جانب النار وقال وهو يقلب قطع الروث المحترقة بعصا السوط:

– لقد مرض عجل جريشاكا. وينبغي اعلام صاحبه.

سألت دونياتكا وهي تحاول اظهار اللامبالاة:

– لربما يتعين علي الذهاب الى القرية.

– لا حاجة لهذا. ليس بوسعي حراسة القطيع لوحدي. – ثم ابتسم. – لك حنين الى الناس.

– نعم، يا جريشا العزيز، لقد غلبني الحنين. اننا نعيش فى السهب طوال شهر ولم نر خلاله الا شخصا واحدا. ولئن بقينا هنا الصيف باكمله، فسأنسى الكلام...

– اصبري، يا دونيا. سنسافر فى الخريف الى المدينة، وسنتعلم، وبعد التخرج سنعود الى هنا. وسنبدأ بزراعة الارض وفق متطلبات العلم. فالجهل يستشري هنا، والشعب فى سبات روحي... الجميع جهلاء... وليس لدينا كتب...

– لن يقبلونا للدراسة... فنحن جاهلان ايضا...

– كلا، سيقبلوننا. – فى الشتاء ذهبت الى الدسكرة، وطالعت كتابا للينين عند سكرتير الخلية. وجاء فيه ان السلطة – للبروليتاريا.. وورد فيه ايضا بصدد التعليم.. فيجب ان يتعلم ابناء الفقراء.

نهض جريجوري على ركبتيه، ومض على وجنتيه تالق ضوء نحاسي.

– يجب علينا ان نتعلم من اجل معرفة كيفية ادارة جمهوريتنا. فى المدن – السلطة بيد العمال، وعندنا رئيس الدسكرة – كولاك، وفي القرى يتولى الرئاسة الاغنياء...

– انني ساغسل الارضية والملابس واكسب المال، اما انت فتعلم!

كانت قطع الروث تحترق بدون لهيب مطلقة الدخان او مشتعلة بنور ساطع. السهب صامت، وشبه نائم.

٣

بعث بوليتوف سكرتير الخلية الحزبية، مع رجل ميليشيا كان متوجها الى مركز المقاطعة، فى طلب جريجوري لمقابلته في الدسكرة.

قبيل الفجر شد جريجوري الرحال وبحلول الظهر شاهد من الرابية برج الاجراس وسقوف البيوت المغطاة بالقش او التنك.

جر قدميه المتقرحتين بتثاقل الى الساحة.

كان النادي يقع فى بيت القس. ودخل الى غرفة فسيحة ماشيا فوق بسط القش الجديدة.

وكانت مصاريع النوافذ مغلقة وعم الغرفة شبه ظلام. وانهمك بوليتوف، بالقرب من النافذة، في العمل بالمسحاج فى صنع اطار.

– سمعت، يا اخي.. سمعت.. – ابتسم بوليتوف وهو يمد يدا معروقة. – لكن ما العمل؟ لقد سالت فى مركز المقاطعة. كانت ثمة حاجة الى شباب للعمل فى مصنع الزيوت، وتبين انه جرى انتقاء اثني عشر شخصا اكثر من المطلوب... بعد الانتهاء من موسم الرعي، سنرسلك فى الخريف للتعلم.

– انا سعيد بانني حصلت على هذا العمل على الاقل. وكان الكولاك فى العزبة يعارضون بشدة تعييني راعيا. انهم يقولون بان الكمسمولي كافر. ولن يصلي من اجل القطيع... – اطلق جريجوري ضحكة متعبا.

ازال بوليتوف النشارة بكم قميصه وجلس على رف النافذة وهو يتطلع الى جريجوري من تحت حاجبيه العبوسين والمبللين بالعرق.

– انك يا جريشا اصبحت نحيفا هزيلا. هل تدبر امر طعامك؟

– لدي ما آكله.

والتزما الصمت هنيهة.

– لنذهب الى بيتي. ساعطيك مطبوعات جديدة: لقد تلقينا من مركز المقاطعة الجرائد والكتب.

مشيا فى الشارع المؤدي الى المقبرة. كانت ثمة دجاجات تنظف ريشها فى اكوام الرماد. وصدر صرير من الشادوف عند البئر وملأ سمعهما طنين بسبب السكون.

– ابق هنا اليوم. لدينا اجتماع. لقد سأل الشباب عنك: «اين جريشكا، وكيف احواله؟». سترى الشباب... وانا الآن سأقدم تقريرا عن الوضع الدولي... لتمض الليلة عندي، وغدا انصرف. حسنا؟

– لا يجوز لى المبيت. اذ لا تستطيع دونياتكا العناية بالقطيع لوحدها. سأبقى للاجتماع. وحينما ينتهي سأذهب ليلا.

كان الرواق باردا فى بيت بوليتوف.

وفاح العبير الحلو للتفاح المجفف، ورائحة عرق الخيل المنبعثة من الاطواق والسيور المعلقة على الجدران.

وانتصب فى الركن برميل فيه كفاس*، والى جانبه سرير متداع.

– هذا هو ركني. الجو حار فى البيت...

انحنى بوليتوف واستخرج بحرص من تحت قطعة جنفاص اعدادا قديمة من جريدة «البرافدا» و كتابين.

دسها في يدي جريجوري وفتح على سعته كيسا مرقعا وقال:

– امسك...

كان جريجوري يمسك بطرف الكيس وعيناه تلتهمان السطور.

* الكفاس – مشروب يصنع من الخبز او الفواكه. **المترجم.**

سكب بوليتوف حفنات من الدقيق وملأ نصف الكيس، ثم اندفع نحو الغرفة الامامية في الكوخ. وعاد حاملا قطعتين من شحم الخنزير ولفهما بورقة ملفوف صدئة بنية، ووضعهما داخل الكيس. وتمتم قائلا:

– خذ هذا معك حينما تذهب الى البيت.

فصرخ جريجوري وقد اصطبغ وجهه بالحمرة:

– لن آخذها...

– كيف لا تأخذها؟

– هكذا، لن آخذها.

وصرخ بوليتوف وقد شحب وجهه وغرز ناظريه محدقا في عيني جريشكا:

– ماذا جرى لك، ايها الوغد! وبعد هذا تدعى بانك رفيق! لئن تضورت جوعا فلن تنبس لاحد بكلمة. خذ، والا فلست لي بصديق.

– لا اريد سلبك آخر ما لديك.

فقال بوليتوف بمزيد من اللطف.

– زوجة القس آخر الزوجات! – وصار يتطلع الى جريجوري الذي كان يربط الكيس بغضب.

انتهى الاجتماع قبيل الفجر.

وعاد جريشكا عبر البراري. وكان كيس الدقيق ثقيلا ينوء بحمله، وشعر بحرقة في قدميه الداميتين، الا انه سار بانشراح وابتهاج للقاء نور الفجر المتوهج.

٤

حينما انبلج نور الصباح خرجت من الكوخ دونياتكا لجمع الروث من اجل ايقاد النار. اما جريجوري فكان يهرول نحوها من الحظيرة. وحدست بانه حدث مكروه.

– هل حدث امر ما؟

– لقد نفق عجل جريشاكا... كما مرضت ثلاثة عجول اخرى. – اطلق تنهدة وقال: – اذهبي يا دونيا الى العزبة،

وابلغي جريشاكا والاخرين بالمجيء اليوم لان العجول مريضة.

ارتدت دونياتكا منديلها على عجل وسارت عبر الرابية مبتعدة عن الشمس التي تصاعدت من وراء التلال.

تابعها جريجوري ثم مشى بخطوات متثاقلة نحو الحظيرة. بدا القطيع بالانتشار في الوهدة مخلفا ثلاثة عجول راقدة عند السياج. وبحلول الظهيرة نفقت هذه جميعا.

كان جريجوري يهرع ما بين القطيع والحظيرة... ومرض عجلان اخران...

سقط احدهما بالقرب من البركة فوق الارض الطينية رافعا رأسه نحو جريجوري، ومطلقا خوارا مديدا. وقد جحظت عيناه وتغطت بطبقة زجاجية من الدموع. بينما ترقرقت الدموع المالحة من عيني جريشكا فوق وجنتيه اللتين لفحتهما الشمس.

عند الغروب جاءت دونياتكا مع اصحاب العجول.

قال العجوز ارتيوميتش وهو يمس بعصاه العجل النافق:

– هذا طاعون... الآن سينفق القطيع كله.

وقاموا بسلخ الجلد اما الجثث فدفنوها بالقرب من البركة. وغطت الرابية الجديدة تربة سوداء جافة.

وفي اليوم التالي كانت دونياتكا تحث الخطى مجددا الى القرية، فقد مرضت سبعة عجول دفعة واحدة...

تلاحقت الايام الحزينة. وخلت حظيرة الماشية واصاب الخواء روح جريشكا. ولم يتبق من المائة والخمسين عجلا سوى خمسين. وكان اصحابها يأتون في عربات فيسلخون الجلود من العجول النافقة، ويحفرون حفرات غير عميقة في الوهدة ويهيلون التراب فوق الجثث الدامية وينصرفون. اما القطيع فكان يأتي الى الحظيرة بلا ارتياح، والعجول تخور لتحسسها الدم والموت الزاحف بينها دون ان تراه.

في وقت مبكر من الفجر حينما فتح جريشكا الشاحب الوجه بوابة الحظيرة ذات الصرير، كان القطيع يمر حتما عبر روابي القبور الجافة.

رائحة اللحم المتعفن، الغبار الذي يتعالى من البهائم الهائجة، الخوار المديد والبائس، والشمس التي ما انفكت حارقة وهي تمضي ببطء عبر السهب.

جاء الصيادون من القرية. واطلقوا النيران على سياج الحظيرة: من اجل طرد الداء الوبيل عن القطيع. لكن العجول ما انفكت تنفق، والقطيع ينقص وينقص يوما بعد يوم.

وصار جريشكا يلاحظ ان بعض المدافن قد نبشت. وعثر على بعض العظام العارية قريبا من المكان: واصبح القطيع، المضطرب في الليالي، فريسة للفزع.

كان ينطلق فجاة وسط سكون الليل عواء رهيب، فيتراكض القطيع في ارجاء الحظيرة، ويحطم الاسيجة.

واسقطت العجول السياج، وجاءت بشكل مجموعات الى الكوخ. ورقدت بالقرب من النار، وهي تتنفس بصعوبة وتجتر العشب.

لم يدرك جريشكا ما كان يحدث حتى استيقظ ذات ليلة على نباح الكلاب. فارتدى معطفه على عجل، اندفع خارجا من الكوخ، ووجد نفسه محاطا بالعجول ذات الاجساد الرطبة بتاثير الندى حينما كانت تلامسه.

وقف هنيهة عند مدخل الكوخ، وصفر لكلابه، فاجابه من وهدة قريبة تعرف باسم «اخدود الافاعي» عويل ذئاب شديد. ويستجيب له عويل آخر من وسط احراج العضاه التي تطوق الرابية.

ولج الى داخل الكوخ واشعل المصباح الزيتي.

– دونياتكا، هل سمعت؟

فتر العواء المتناغم مع ذهاب النجوم بحلول الفجر.

٥

في الصباح جاء ايغنات الطحان وميخي نيستيروف. وكان جريجوري يصلح خفيه. دخل عليه الشيخان. نزع ايغنات قبعته مضيقا عينيه اتقاءا لاشعة الشمس المائلة

المارة عبر الفتحات التي كانت تتساقط على الارضية الترابية للكوخ، ورفع يده – لقد اراد ان يرسم علامة الصليب امام صورة صغيرة للينين كانت معلقة في الزاوية لكنه حينما ادرك انها صورة اعاد يده وراء ظهره بسرعة وبصق حانقا.

– اذن، ليس لديك ايقونة مقدسة، ها؟

– لا...

– وصورة من معلقة في الركن المقدس؟

– لينين.

– هذا سبب كل مصائبنا... ففي غياب الرب يأتي المرض. ولهذا نفقت عجولنا كلها... آه، ايها الرب، العلي القدير...

– نفقت العجول ايها الجد، لأنه ما استدعي الطبيب البيطري.

– لقد عشنا سابقا بدون طبيبك البيطري هذا. انك اصبحت متعلما جدا... كان الاحرى بك ان ترسم علامة الصليب على جبهتك الكافرة اكثر، وآنذاك لانتفت الحاجة الى الطبيب البيطري.

صرخ ميخي نيستيروف والشرر يتطاير من عينيه بقوله:

– انزع من الركن الشريف هذا الكافر! انت السبب ايها الحقير، العديم الايمان، في هلاك القطيع كله.

شحب وجه جريشكا قليلا.

– من الخير لك ان توجه الاوامر في عقر دارك. وليس لك ان تصرخ هنا. وهذا زعيم البروليتاريين.

انتفض ميخي نيستيروف كالديك وزعق وقد احمر وجهه:

– انت تخدمنا، فعليك ان تخدم كما نريد... نحن نعرف امثالك، فاحذر ان نطردك عما قريب.

خرجا وهما يضعان قبعتيهما كيفما اتفق ودون توديعه.

نظرت دونياتكا الى شقيقها بهلع.

في اليوم التالي جاء من القرية الحداد تيخون لرؤية عجله.

جلس القرفصاء بالقرب من الكوخ وأخذ يدخن سيجارته، وقال متحدثا بمرارة وسخرية:

– ان عيشتنا حقيرة... لقد أبعدوا الرئيس السابق، ويتولى الادارة الآن نسيب ميخي نيستيروف. وهم يفعلون ما يحلو لهم... ويوم أمس قسموا الاراضي، وكانوا حالما تقع من نصيب احد الفقراء قطعة ارض طيبة يعمدون الى اعادة التقسيم. انهم يركبون ظهورنا مرة اخرى... لقد استحوذوا يا جريشا على كل الاراضي الجيدة. بينما تركوا لنا الاراضي الرملية فقط. هذه حال الامور في هذه الايام...

جلس جريجوري عند النيران حتى منتصف الليل، وهو يكتب على وريقات الذرة الصفراء سطورا غير منتظمة بواسطة الفحم. كتب عن التقسيم غير العادل للارض، وكتب عن كيف كافحوا داء الماشية باطلاق النار على سياج الحظيرة بدلا من دعوة الطبيب البيطري. قال وهو يسلم حزمة وريقات الذرة الجافة المكتوبة الى الحداد تيخون:

– حينما تذهب الى مركز الاقليم اسأل اين تطبع جريدة «كراسنايا برافدا». واعطهم هذه... لقد كتبت بشكل مفهوم، لكن حذار من دعكها والا فتمسح الكتابة بالفحم...

اخذ الحداد الوريقات بعناية باصابع محروقة غدت سوداء بفعل الفحم. وخبأها في عبه عند القلب. وعندما ودعه قال وعلى فمه الابتسامة ذاتها:

– سأذهب مشيا على الاقدام الى مركز الاقليم. فلربما وجدت السلطة السوفيتية هناك... ساقطع مائة وخمسين فرسخا خلال ثلاثة ايام. وحينما اعود بعد اسبوع سابلغك.

2–88

٦

جاء الخريف بالامطار والعتمة المظلمة.

ذهبت دونياتكا منذ الصباح في طلب الطعام.

كانت العجول ترعى على الرابية. وضع جريجوري القفطان على كتفيه وسار في اعقابها متأملا وهو يدعك بيديه رأسا جافا من الشوك السناني. وقبيل الغسق ظهر من وراء التلة فارسان.

اقتربا من جريجوري خببا وكانت سنابك الحصانين تولد صوتا ثقيلا.

وعرف جريجوري في احدهما الرئيس، نسيب ميخي نيستيروف، وفي الآخر ابن ايغنات الطحان.

كان العرق يتصبب بشكل رغوة من الحصانين.

– مرحبا، ايها الراعي!..

– مرحبا...

– لقد جئنا لرؤيتك...

انحنى الرئيس فوق السرج وانهمك فترة طويلة في فك ازرار المعطف باصابع خدرة بسبب البرد. واخرج صفحة جريدة صفراء، وجعلها تنفتح بفعل الريح.

– هل انت كتبت هذا؟

تراقصت امام عيني جريجوري كلماته المنقولة من وريقات الذرة حول تقسيم الارض وخسارة الماشية.

– تعال معنا...

– الى اين؟

– الى الوهدة هناك... نريد ان نتحدث معك...

كانت شفتا الرئيس الزرقاوان ترتجفان، وعيناه تنمان عن المراوغة والتهديد.

ابتسم جريجوري:

– تحدث هنا...

– يمكن التحدث هنا... ان اردت...

واختطف من جيبه المسدس... وشد عنان الحصان المتراقص، وصرخ بصوت مبحوح:

– هل ستكتب فى الجرائد ايها الكلب القذر؟

– ولم سؤالك...

– لانني ساقدم الى المحكمة بسببك. هل سترسل التبليغات ايها الشيوعي النغل؟

وبدون انتظار الجواب اطلق النار على فم جريجوري المطبق بالصمت.

سقط جريجوري عند قوائم الحصان المنتصب، واطلق آهة واجتثت اصابعه المتشنجة حزمة من العشب الاصفر الندي، ثم همد.

ترجل ابن ايغنات الطحان من السرج واخذ بقبضته حفنة من التراب الاسود ودسها فى الفم الذي يتدفق منه الدم بشكل رغوة...

* * *

السهب واسع ليس لاطرافه حدود. فيه الكثير من الدروب والطرق. الليل الخريفي دامس الظلام، والمطر سيزيل تماما آثار سنابك الخيل.

٧

رذاذ البرد. ظلام. طريق فى السهب.

ليس من العسير المشي لذاك الذي يحمل كيسا على ظهره فيه رغيف خبز شعير، ويمسك عصا في يده.

كانت دونياتكا تسير على حافة الطريق. وكانت الريح ترفع اطراف القميص الرث وتدفعها من الخلف بين الفينة والفينة.

وانداح السهب حواليها عبوسا تلفه العتمة. وبدا الظلام يسود المكان.

لاح من بعيد شبح رابية ينتصب عليها كوخ تتدلى منه الحشائش الشعثاء..

دنت دونياتكا مترنحة منه، ورقدت ووجهها فوق قبر غاص فى الارض.

حل الليل...

بلغت دونياتكا الطريق العام المؤدية الى محطة السكك الحديدية.

كانت تحس بخفة فى السير لانه كان فى الكيس على ظهرها قطعة من رغيف خبز شعير وكتاب رث تفوح من صفحاته رائحة السهب المرة، وكذلك قميص من الجنفاص (الخيش) لشقيقها جريجوري.

حينما يمتلىء القلب بمرارة الألم، وحينما تحرق الدموع العيون، كانت تخرج فى مكان ما بعيدا عن اعين الغرباء قميص الخيش غير المغسول من الكيس، وتضغط بوجهها عليه و تتحسس رائحة العرق الحبيب... وتبقى راقدة فترة طويلة بلا حراك.

تولي الفراسخ الادبار. ويسمع من وهاد السهب عويل الذئاب الساخطة على عيشها، بينما تمضي دونياتكا على طرف الطريق نحو المدينة حيث توجد السلطة السوفيتية وحيث تتعلم البروليتاريا من اجل ان تجيد فى المستقبل ادارة الجمهورية.

هذا ما ورد في كتاب لينين.

١٩٢٥

حارس مزرعة البطيخ

١

عاد الاب بعد زيارة اتامان الدسكرة جذلا، منشرح الصدر، لامر ما. وقد لاحت امارات الانشراح تحت حاجبيه الكثيفين، والتوت شفتاه بابتسامة حبيسة. ولم يشاهد ميتكا اباه على هذه الصورة منذ أمد بعيد. كان منذ عودته من الجبهة يبدو عبوسا ومتجهما دائما، وسخيا في توجيه اللطمات الى قفا ميتكا ذي الاربعة عشر عاما، وغالبا ما يركن الى الجلوس متأملا، وهو يشد بقوة لحيته الحمراء. اما الآن فبدا كما لو ان الشمس بزغت عبر الغيوم، ودفع حتى ميتكا، الذي صادفه على الشرفة، مداعبا اياه وهتف ضاحكا:

– هيا، يا عاطل! اذهب الى البستان، وادع امك للغداء!

اجتمع شمل العائلة كلها عند الغداء، فجلس الاب تحت الايقونات، وانزوت الام عند طرف المصطبة، قريبا من الموقد. اما ميتكا فجلس الى جانب شقيقه الاكبر فيودور. وفي نهاية المطاف، حينما تناولوا حساء الملفوف الخفيف، قسم الاب لحيته الى شطرين كثين، وابتسم مجددا بشفتين تميلان الى الزرقة، وقال:

– لدي اخبار طيبة للعائلة. فقد تم تعييني اليوم رئيسا للمحكمة العسكرية – الميدانية في قريتنا... – وصمت هنيهة ثم اضاف: – لم تذهب خدماتي في الحرب

مع المانيا عبثا، ولم ينس الرؤساء رتبتي كضابط وما حصلت عليه من مكافآت لقاء الشجاعة.

ثم احتقن وجهه بالدم واحمر حينما تطلع الى فيودور:

– لم خفضت راسك، يا لئيم، الا تسرك فرحة ابيك؟ انني احذرك يا فيدكا! اتعتقد انني لا ارى كيف تقيم العلاقات مع الرعاع؟ وبسببك، ياوغد، صرت اسمع من الاتامان كلمات تعنيف. «انت يا انيسيم بتروفيتش تعيش حقا وفق قوانين القوزاق. اما ابنك فيودور فيعاشر البلاشفة. انه فتى في العشرين، وقد يناله الأذى، وآسفاه». قل يا ابن الكلب، هل هذا صحيح؟

– نعم.

ارتجف قلب ميتكا وظن ان الاب سيصفع فيودور، بيد ان اباه انحنى فوق المائدة فحسب وصرخ مهددا بقبضته:

– اتعرف انت، يا حثالة الدنيا، اننا سنعتقل غدا اصدقاءك؟ أوتعرف بانه سيعدم غدا الخياط ايغوركا والحداد غروموف؟

وسمع ميتكا مجددا شقيقه الشاحب الوجه يقول بحزم:

– كلا، لا اعرف... غير انني سأعرف هذا من الآن.

ما كادت الام تحجب فيودور بجسمها، وما كاد ميتكا يلحق باطلاق صرخة، حتى رمى الاب بالقدح النحاسي الثقيل، واصاب المقبض المكسور جبين فيودور فوق عينه. فتدفق الدم في سيل رفيع عبر الغرفة. وغطى فيودور صامتا بيده العين التي غمرها الدم. واحتضنت الام رأسه بأنين، اما الاب فقد قلب المصطبة بضجيج وغادر البيت بعد ان صفق الباب.

كانت الام مشغولة حتى حلول المساء. فاخرجت من الصندوق حزمة من السمك المجفف، ووضعت في الجراب قطع الخبز المجفف، ثم جلست بالقرب من النافذة وهي ترفو ملابس فيودور. ولاحظ ميتكا كيف جلست امه بلا حراك وقد غاص وجهها في كومة الملابس. ولم يكن يلحظ سوى اهتزاز كتفيها المرتجفتين تحت قميصها القطني الممزق.

عند حلول المساء عاد الأب من ادارة القرية واستلقى في الفراش دون ان يخلع ملابسه. ومضى فيودور على اطراف اصابعه خشية ان تصر الواح الارضية متوجها الى غرفة المخزن، فتناول السرج والعنان، وخرج الى الفناء.

– ميتيا، تعال هنا!

قاد ميتكا العجول الى الزريبة. والقى عصاه ودنا من شقيقه. وحدس بصورة غامضة ان فيودور يريد عبور الدون والالتحاق بالبلاشفة، الى حيث يتردد في كل فجر هدير المدفعية البعيد في موجات تمضي فوق الدسكرة.

سأل فيودور وهو يبعد عنه بصره:

– ألا تعرف، ميتكا.. هل الاسطبل مغلق؟

– مغلق... ولماذا؟

– يعني لازم. – صمت فيودور هنيهة، واخذ يصفر ما بين نواجذه، وبغتة قال بهمس: – المفاتيح تحت وسادة ابي... اسرقها... أريد السفر...

– الى اين؟

– للالتحاق بالحرس الاحمر... انت لازلت صغيرا، وستدرك فيما بعد من هو على حق... انني ذاهب لاحارب من اجل الارض، ومن اجل الشعب الفقير، ومن أجل ان يكون الجميع متساوين... لا اغنياء ولا فقراء... بل سنكون جميعا متساوين.

واخلى فيودور رأس ميتكا من يديه ثم ساله بحزم:

– هل ستأخذ المفاتيح؟

فاجابه ميتكا بلا تردد: «نعم».. ثم ادار ظهره الى فيودور ودخل البيت بدون ان يلتفت مرة أخرى.

ساد الغرفة شبه ظلام، وتعالى الضجيج السمج لاسراب من الذباب النائم الذي تجمع على السقف. نزع ميتكا حذائيه عند الباب بعد ان رفعه قليلا كيلا يصر وفتحه وتقدم بخطوات خفيفة بقدميه العاريتين فوق الارضية.

كان ابوه راقدا على ظهره ورأسه الى النافذة واحدى يديه في جيبه والاخرى متدلية من السرير وظفر ابهامه

المصفر بتاثير التدخين يستند على لوحة الارضية. حبس ميتكا انفاسه واقترب من السرير وتوقف وصار يصغي الى شخير والده الشبيه بالبقبقة. وغمر المكان صمت مطبق ثقيل... ولاحظ على لحية ابيه الحمراء فتات الخبز وقشور البيض، بينما انبعثت من فمه المفتوح رائحة كحول نفاذة. وكان شخير منحبس يحاول الخروج من اعماق بلعومه.

مد ميتكا يده الى الوسادة. وقلبه يخفق بشدة دون توقف: تك.. تك.. تك.. تك..

وتدفقت الدماء الى رأسه، وتردد في اذنيه رنين حاد كقرع الاجراس. دس في البداية اصبعا واحدا تحت الوسادة القذرة ثم الاصبع الآخر، وتحسس الشريط الجلدي الناعم وحزمة المفاتيح الباردة وسحبها بخفة، وبغتة امسك الاب بتلابيب ميتكا:

– لم تتلصص ايها الفأر الحقير؟ سانتزع كشة رأسك دفعة واحدة!

– ابتاه، حبيبي! اردت اخذ مفاتيح الاسطبل، ولم ارد ايقاظك.

ألقى الاب نظرة من عينيه المتورمتين اللتين اصاب بياضهما الاصفرار.

– وما حاجتك الى المفاتيح؟

– الجياد مضطربة لامر ما.

– كان يجب قول ذلك منذ البداية... – ألقى الاب حزمة المفاتيح على الارض، وادار وجهه الى الجدار وبعد لحظة بدا يشخر مجددا.

هرع ميتكا من البيت الى الفناء نحو فيودور الذي كان يتخفى تحت سقيفة الاسطبل. مد اليه المفاتيح وسأل:

– اي جواد ستأخذ؟

– الفحل.

تنهد ميتكا وهو يخطو وراء فيودور وقال هامسا:

– فيديا... هل سيعاقبني بابا، اليس كذلك؟

التزم فيودور الصمت، واخرج الحصان من الاسطبل

واسرجه وبحث طويلا بقدمه عن الركاب المتمرد. وحينما غادر البوابة قال هامسا من فوق الحصان:

– اصبر يا ميتكا! لن تستمر هذه الحياة الى الابد. وقل لابي، انيسيم بتروفيتش، بأنني سانتقم منه شر انتقام ان مسك انت او امي بأذى...

غادر البوابة معجلا الحصان في الطريق البعيدة، بينما جلس ميتكا القرفصاء وراء السياج، واراد التطلع في اعقاب فيودور بيد انه غشيت عينيه غشاوة من الدموع واختنق بالعبرات.

٢

كان الاب يطلق الشخير باختناق في الغرفة الامامية. استيقظ ميتكا في وقت مبكر، ووضع اللجام على الحصان الكميت وتوجه الى نهر الدون لكي يغسل ويسقي هذه الدابة الشغيلة. وكانت التربة الطباشيرية تتطاير بخفيف تحت سنابك الحصان. ونزل على الضفة المنحدرة نحو الماء، وفك شكيمة الحصان، وتعرى مرتجفا من رطوبة الصباح الضبابية الباردة. وسمع فوق الماء في مكان بعيد ما دوي مدفع يتردد صداه ماضيا مع مجرى الدون. وحينما غاص ميتكا في الماء المترع بقر الصباح اللاذع ابتسم لنفسه وفكر في دخيلة نفسه: «لابد وان فيودور قد وصل الآن الى البلاشفة... وصار يخدم في صفوف الحرس الاحمر...»

ثم تحولت أفكاره الى البيت، وعلى الفور خمدت بهجته كشرارة مع الريح.

قفل راجعا الى البيت، وقد خبا الوميض في عينيه، واحدودب ظهره. وحينما دنا من البيت فكر: «ماذا لو اهرب الى هناك... الى البلاشفة... قال فيودور ان الحقيقة معهم... ماذا لو ذهبت معه. اما ابي فانه سيضربني ضربا مبرحا، وسيسيل الدم من انفي...».

نزع اللجام حينما بلغ الشرفة ودخل الى البيت ببطء. صاح الاب بصوت متحشرج من الغرفة:

– لماذا لم تأخذ الفحل الى السباحة؟

القى ميتكا نظرة خاطفة على امه التي جمدت بالقرب من الموقد، واحس كيف يتدفق الدم بسرعة الى قلبه.

– الفحل غير موجود في الاسطبل.

– اين هو اذن؟

– لا ادري.

– واين فيودور؟

– لم أره.

كان الاب ينتعل جزمتيه مولدا الضجيج في ارجاء الغرفة ومضى عبر المطبخ الى المخزن وعيناه المتورمتان بسبب النوم تقدحان شررا. وصاح من الطرقة عند المطبخ:

– اين السرج؟..

اقترب ميتكا من امه، وكما كان يفعل في ايام طفولته البعيدة، تشبث بيدها.

دخل الاب الى المطبخ وهو يكرمش بيده الحزام الجلدي:

– لمن اعطيت المفاتيح؟

وغطت الام ميتكا بجسمها.

– لا تمسه، انيسيم بتروفيتش، بحق المسيح، لا تضربه... ام انك لا تشفق على ابنك؟..

– ابتعدي ايتها العجوز الحمقاء. الا تسمعيني؟.. –

دفع الام جانبا واسقط ميتكا على الارض وصار يرفسه بقدميه ولفترة طويلة وبقسوة حتى كف ميتكا عن اطلاق الصرخات والآهات المبحوحة.

٣

صار هدير المدافع يقترب شيئا فشيئا. وفي اوقات الصباح حينما يأخذ الاولاد الجياد الى المراعي، كان ميتكا يجلس فترة طويلة عند الطاحونة الهوائية. كان سقف

الطاحونة الصفيحي يقعقع ويخشخش لدى هبوب الرياح. اما اذرع الطاحونة فكانت تصر بتثاقل وبرتابة. بينما يطغي على كافة الاصوات الواجفة دوي مدافع عميق آت من مكان ما وراء الرابية.

كان هدير المدافع يخفت شيئا فشيئا بموجات كثيفة يتردد صداها وراء الدسكرة في الوهاد المتلفعة بضباب الفجر الخفيف الزرقة. وتسير عبر الدسكرة في الصباح باتجاه الدون عربات تحمل القذائف والذخيرة والاسلاك الشائكة. بينما كانت تقفل عائدة حاملة القوزاق الجرحى الذين يغطيهم القمل فيتركون في الساحة عند مبنى دائرة الدسكرة. وكانت الدجاجات الفضوليات تنبش بهمة اعقاب السجاير والضمادات الدامية وقطع القطن المتصلبة بالدم الجامد، وتصغي باهتمام الى أنين ونحيب وشتائم الجرحى باصوات متحشرجة.

سعى ميتكا الى ان لا يراه ابوه.

وكان بعد تناول طعام الفطور يتوجه حاملا العصا والصنارة نحو الدون فيجلس على الضفة ويرى كيف يمضي الفرسان فوق الجسر وتهدر عربات «التاتشانكا» ويتصاعد وراء المشاة الغبار. وما كان يعود الى البيت الا عند الغسق. وفي احدى الامسيات ساقوا الى الدسكرة اسرى من الحرس الاحمر. ساروا متزاحمين ومتراصين باقدام حافية ومعاطف رثة ممزقة. وهرعت القوزاقيات الى الشوارع واخذن بالبصق على الوجوه المعفرة بالغبار وباطلاق الشتائم البذيئة وسط قهقهة القوزاق والحرس. وكان ميتكا يسير في اعقابهم فيبتلع الغبار المتصاعد من تحت اقدام الاسرى. واخذ قلبه الذي اعتصره الالم يخفق بشدة بلا انتظام... كان يتطلع في كل عينين تحوطهما الدوائر الزرقاء من الاجهاد والارق وينقل نظراته من وجه الى آخر من الوجوه الخالية من الشوارب ويتوقع ان يتعرف على اخيه فيودور بين هؤلاء ذوي المعاطف الرمادية.

اوقفوا الاسرى في الساحة بالقرب من العنبر العمومي الذي كانت تجمع فيه حبوب الدسكرة سابقا. وشاهد ميتكا كيف خرج ابوه الى سقيفة مبنى الادارة. وصرخ وهو يعدل حزام سيفه:

– انزعوا القبعات.

اخذ رجال الحرس الاحمر ينزعون القبعات ببطء وببطء. ووقفوا وقد تدلت رؤوسهم الشعثاء وقلما تبادلوا الحديث بهمس. ومرة اخرى صرخ الصوت الجهوري المألوف مهددا:

– اصطفوا... وبسرعة، ايها الانذال الحمر!

انبعث من الاقدام العارية صوت كالحفيف لدى الاصطفاف. امتد الطابور الرمادي للوجوه المعذبة حتى سقيفة مبنى الادارة.

– عد بالارقام.. من اليمين!

الاصوات مبحوحة. والرؤوس المدربة تستدير. واحس ميتكا بالتشنج في حلقه، والشفقة على هؤلاء الرجال، بالرغم من كونهم غرباء، الى حد البكاء والاختناق، وشعر لاول مرة في حياته بحقد شديد على أبيه، وعلى ابتسامته التي تنم عن الرضى عن النفس، ولحيته الحمراء الخشنة.

– الى العنبر... سر!

ساروا الواحد تلو الآخر الى فوهة العنبر السوداء الفاغرة فاها. وضرب والد ميتكا بغمد سيفه رأس آخرهم، وكان قصير القامة ويمشي مترنحا، وقد لف رأسه بخرقة مخضبة بالدم. وسار هذا متعثرا قرابة خمس خطوات، ثم هوى بتثاقل على وجهه فوق الارض الصلبة التي وطأتها الاقدام. وسادت الساحة القهقهة، وضجيج الاصوات، والعيون التي باتت ضيقة من الضحك، وافواه النساء التي يسيل منها اللعاب جذلا. اما ميتكا فقد اطلق صرخة قصيرة مخنوقة. ودفن وجهه بيديه الباردتين، ومضى في الشارع وهو يصطدم بالمارة.

٤

كانت الام مشغولة عند الموقد، وهي تنتهي من طهي الطعام. اقترب ميتكا من جانبها وقال ونظراته تتجنبها:

– ماما... اصنعي كعكات... وسأحملها الى اولئك الذين في العنبر... الأسرى.

اغرورقت عينا الام بالدموع.

– حسنا، ياولدي، احمل اليهم شيئا منها. فلربما كان ابننا فيديا يعاني مثلهم في مكان ما... للأسرى ايضا امهات. لابد وانهن يبللن الوسائد بالدموع في الليالي.

– ماذا لو عرف ابي بالأمر.

– لاسمح الله! احملها اليهم، يا ميتكا، في المساء. واعطها الى الحرس القوزاق وارجهم تسليمها الى الأسرى.

كانت الشمس بطيئة الحركة، كما لو تعمدت هذا، وتنزلق فوق الدسكرة غير عابئة بنفاد صبر ميتكا. انتظر بمشقة حلول الظلام، وتوجه الى الساحة، وزحف كالسحلية عبر سياج الاسلاك واقترب من البوابة وقد أمسك بيده الصرة الحاوية على الكعك.

– من القادم؟ قف! ساطلق النار!

– هذا انا، جلبت طعاما الى الأسرى.

– من انت، اذهب قبل ان تتلقى ضربة بعقب البندقية. اي شيطان جاء بك في الليل. الم يكن بوسعك جلب الطعام نهارا؟

– مهلا، يا بروخوريتش. اليس هو صبي الرئيس؟

– هل انت ابن انيسيم بتروفيتش؟

– نعم...

– من ارسلك لجلب الطعام؟ ابوك؟

– كلا... جئت بارادتي.

اقترب من ميتكا قوزاقيان. قبض اكبرهما ذو اللحية على اذن ميتكا:

– من علمك جلب الطعام الى الاسرى، يا خبيث؟ الا

تعرف بانهم من الد اعدائنا؟ ماذا لو ابلغت اباك بافعالك هذه؟ فكيف سيكافئك على هذا؟

– دعه، يا بروخوريتش! هل تضن عليهم بخبز غيرك. وليس بوسعك التهام كل شيء. خذ الخبز وسنسلمه!

– ماذا لو علم انيسيم بتروفيتش بذلك؟ الامر هين بالنسبة لك فانت وحيد، اما انا فلدي عائلة. ولقاء مثل هذه الاعمال سيرسلونني الى الجبهة، علاوة على الجلد...

– هيا، الى الشيطان. لقد صار يجار بالشكوى. ايه، يا ولد. الى اين انت ذاهب. هات الطعام وسأسلمه.

سلم ميتكا الصرة الى القوزاقي الشاب الذي همس في اذنه حينما انحنى اليه:

– ان نوبتي في ايام الاربعاء والجمعة... فاجلب حاجتك.

كان ميتكا يأتي في مساء كل يوم اربعاء وجمعة، فيعبر للحاجز، ساعيا الى عدم التعلق بالاسلاك الشائكة، ويسلم الى الحارس صرة ثم يعود الى البيت، وهو ينحني عند الاسيجة ويتلفت.

٥

في كل مساء وحالما ينشر الغسق جناحيه الذهبيين فوق الدسكرة، وتسود العتمة، كانوا يقتادون من العنبر نفرا من رجال الحرس الاحمر الى السهب، الى الوهاد التي يلفها الضباب الابيض. وسرعان ما تحمل الرياح الى الدسكرة قرقعة اطلاق الرصاص، وعدة اطلاقات بنادق متفرقة. وحينما كان يجري اقتياد اكثر من عشرين اسيرا، تمضي في اثرهم عربة مدفع رشاش بعجلات ينبعث منها الصرير. كان افراد طاقم العربة يغالبون النوم فوق المقاعد العريضة. والسائق يدخن سيجارة ويلوح بالاعنة بكسل. والجياد تمضي برخاوة وبلا انتظام، اما المدفع الرشاش فمكشوف بلا غطاء، وفوهته تلمع ببريق خاب كما لو كان يتثاءب بعد ان استيقظ لتوه. بعد مضي نصف ساعة

يلعلع المدفع الرشاش في مكان ما في المنحدرات في صليات حادة وقصيرة، وبعد هذا ينهال السائق بسوطه على الجياد التي تغطيها الرغوة وتنبعث منها حشرجة، ويهتز رجال الطاقم متراقصين فوق المقاعد، وتتوقف العربة بسرعة عند مبنى الحاكمية، التي تطل على الشارع بنوافذها الثلاث المضيئة.

في مساء يوم الاربعاء قال الاب مخاطبا ميتكا:

– أتواصل التسكع بلا عمل؟ خذ الحصان الكميت للرعي ليلا، واحذر الا يقترب من حقل القمح! وان اتلفت قمح اي أحد، فستلقى اشد العقاب!

وضع ميتكا اللجام على الحصان، وانتهز الفرصة ليهمس الى امه قائلا:

– خذي الطعام انت نفسك... واعطيه الى الحارس.

انطلق سوية مع اولاد الدسكرة الى المراعي وراء «اراضي الاتامان». عاد في صباح اليوم التالي قبيل شروق الشمس. فتح البوابة ونزع لجام الحصان الكميت. وطبطب على بطنه المنتفخة بالعشب الاخضر، ودخل الى البيت. حينما دخل المطبخ وجد على الارضية والجدران آثار دماء. وطرف الموقد ملطخ ايضا ببقع دم تميل الى البياض. وتنبعث من الغرفة حشرجة متقطعة... عبر ميتكا العتبة، ووجد امه على الارضية في بركة من الدم، ووجهها متورم احمر، كما ويتدلى شعرها على عينيها بخصلات مخضبة بالدم. شاهدت ميتكا ودمدمت بشيء ما وجاهدت دون ان تقول كلمة واحدة. وتحرك في فمها لسانها المزرق المتورم، وعيناها تلتمعان ببريق وحشي وبجنون. وانبجست من فمها الملتوي فقاعات اللعاب الورديه.

– ميـ... ميـ... تيا – تيا – تيا...

ثم انطلق ضحك يقترن بحشرجة وبأنين.

هوى ميتكا على ركبتيه. ولثم يدي امه، وعينيها الملطختين بدم أسود. احتضن رأسها، فتلوثت اصابعه

بالدم وبكتل بيضاء لزقة... ووجد على الارض غدارة ابيه، ومقبضها ملطخ بالدماء.

لايتذكر كيف هرول خارجا، وسقط بالقرب من السياج، وصرخت الجارة من فناء بيتها:

– اهرب، ياحبيبي، الى حيث تحملك قدماك. لقد عرف ابوك بان امك حملت الطعام الى الأسرى، فضربها حتى الموت. وهدد بان يفعل الشيء نفسه معك.

٦

انصرم شهر منذ ان صار ميتكا يعمل حارسا في مزرعة البطيخ. واخذ يعيش في كوخ يقع فوق الرابية. كان يرى من هناك صفحة شريط الدون الابيض والدسكرة الرابضة تحت التل والمقبرة ذات البقع الرمادية والبنية للقبور. وحينما التحق بالعمل احتج على هذا القوزاق:

– هذا هو ابن أنيسيم! لانريد مثل هؤلاء. ان شقيقه في الحرس الاحمر. وامه، الكلبة، اطعمت الأسرى. يجب شنقه، لا تشغيله حارسا لمزرعة البطيخ!

– ايها السادة الشيوخ، انه لايطلب أجرا. وقال انه سيحرس المزرعة مقابل احسانكم. فان اردتم وتلطفتم اعطيتموه رغيف خبز، والا فسيهلك جوعا.

– ليهلك، ولن نعطيه شيئا.

بيد انهم اصغوا الى كلام الاتامان، وشغلوه. وكيف لا يوافق القوم على تشغيل عامل اجير لايطلب اي اجر، وسيحرس مزرعة البطيخ العائدة للدسكرة طوال فصل الصيف مقابل الاحسان. انه شيء نافع حقا...

اخذت تنضج وتتكور تحت اشعة الشمس ثمار الشمام الاصفر والبطيخ المبقع والمخطط. كان ميتكا يمضي في ارجاء المزرعة كئيبا وهو يطارد غربان القيظ بالصراخ والخشخيشة. وفي الصباح كان يغادر الكوخ ويرقد بالقرب من الجدران فوق العشب الجاف ويصغي الى هدير المدافع

وراء الدون ويحدق طويلا بنظرات زائغة في ذلك الاتجاه.

يمتد الدرب الصيفي الكثير النتوءات نحو الرابية بمحاذاة مزرعة البطيخ والشمام والوهاد الطباشيرية الشديدة الانحدار، ملتويا مثل ذنب الافعى. وينقل القوزاق فيه العلف صيفا. ويقاد فيه الاسرى نحو المنحدرات عند ضفة النهر لاعدامهم رميا بالرصاص. وكان ميتكا غالباما يستيقظ ليلا لدى سماعه الصرخات المبحوحة واطلاق النار في الاسفل وراء المنخفضات الشجراء ووراء اشجار الصفصاف الكثيفة. وكانت الكلاب تعوي بعد الاطلاقات. وتسمع وقع اقدام في الدرب، وفي بعض الاحيان ينبعث صرير عربة «التاتشانكا»، وتومض نيران السجاير، ويتناهى الى السمع حديث خافت. وحدث مرة ان ذهب ميتكا الى هناك حيث تتشابك الوهاد المتلوية. وشاهد في أسفل المنحدر دما جافا، وتحته في المجرى الحجري القاع، حيث كشفت المياه قبرا غير عميق تبرز منه ساق عارية. كانت راحتها جافة ومتغضنة، والريح تهب من السهب حاملة الرائحة العفنة للجثث. ومنذ ذلك الحين لم يذهب الى هناك مرة اخرى...

في ذلك اليوم مضى الحشد في الدرب الصيفي مبكرا اكثر مما هو معتاد. كان يسير على الجانبين الحرس من القوزاق وفي الوسط هم – رجال الحرس الاحمر ومعاطفهم ملقاة على اكتافهم. غاصت الشمس ببطء في الصفحة البيضاء لمياه الدون المتألقة كما لو كانت تود ان ترى ما سيحدث في ضوء النهار. وحطت غربان القيظ على اشجار الصفصاف في المنخفض كسحابة سوداء. خيم الصمت فوق مزرعة البطيخ مثل نسيج العنكبوت. تابع ميتكا ببصره من الكوخ السائرين على الدرب حتى المنعطف. وبغتة سمع صراخا واطلاقات تبعتها اطلاقات اخرى واخرى...

خرج ميتكا من الكوخ متجها الى الرابية مسرعا فشاهد رجال الحرس الاحمر يهرولون نحو الوهاد، بينما كان القوزاق يستندون على ركبهم ويطلقون النار بعجلة، واثنان يطاردونهم ملوحين بسيفيهما.

عكر رنين الطلقات السكون المطبق.

طق – طاق... طق – طاق... طا – طا – طاخ!

تعثر احدهم وسقط على يده، ونهض، وهرول مجددا.. والقوزاقي وراءه... اقرب... فاقرب..

هاهو... هاهو... ومض السيف في حركة نصف دائرية وانهال فوق الراس... وصار يقطع اوصال الساقط..

غشت العتمة عيني ميتكا، وغمرت فمه سخونة.

٧

في منتصف الليل اقترب خببا ثلاثة فرسان من الكوخ.

– ايه، يا حارس مزرعة البطيخ! اخرج للحظة!

خرج ميتكا.

– ألم تشاهد مساءا الى اين توجه ثلاثة يرتدون معاطف جنود؟

– لا.

– حذار من الكذب، فستحاسب على ذلك بصرامة!

– لم ار... لا اعرف...

– ليس لنا ما نفعله هنا. يجب المضي عبر الوهاد حتى غابة فيلينوفسكي. فنطوق الغابة وسنقبض على الاوغاد هناك.

– هيا، يا بوجاتشيوف...

لم يخلد ميتكا الى النوم حتى طلوع الفجر. ودوى الرعد بمكان ما في الشرق. وتلبدت السماء بالسحب الرمادية. ووميض البرق ببريق يخطف الابصار. وبدأ المطر يتساقط.

قبيل الفجر سمع ميتكا حفيفا وأنينا.

اصغى جاهدا لكي لا يبدي حركة. واصاب الهلع جسمه بالشلل. ثم سمع الحفيف والانين المديد مرة اخرى.

– من هناك؟

– ايها الولد الطيب، تعال بحق الباري!

خرج ميتكا من الكوخ مجرجرا اقدامه المرتعشة رعبا. ورأى عند الجدار الخلفي للكوخ رجلا راقدا على ظهره.

– من انت؟

– لا تخبر عني.. ساعدني.. لقد هربت يوم أمس من الاعدام. القوزاق يبحثون عني... انا جريح في ساقي...

حاول ميتكا الكلام لكن بلعومه متشنج. ركع على ركبتيه وزحف على اربع واحتضن الساقين اللتين احتوتهما لفائف الجنود الرثة.

– فيديا... أخي! حبيبي...

قطع حزمة من عيدان نبات عباد الشمس الجافة وحملها الى الكوخ وارقد فيودور في ركن منه وغطاه بالحشائش وزهور عباد الشمس، ثم انطلق يطوف في مزرعة البطيخ.

واصل حتى منتصف النهار طرد الغربان اللجوجة من الصفوف الخضراء المجعدة. بينما كانت تتوق نفسه للتوجه الى الكوخ والتطلع الى عيني أخيه، وسماع احاديثه المرة تلو المرة عما لقاه من افراح واتراح. وقد قررا بحزم: – انه حالما يعم الظلام، سيشدان بقوة ساق فيودور الجريحة، ويمضيان في الدروب الملتوية المعروفة لديهما حتى الدون، ويعبران الى الجانب الآخر للنهر، للقاء اولئك الذين معهم الحقيقة، ويحاربون القوزاق من اجل الارض والفقراء. وكان القوزاق يمضون في الدرب من الصباح وحتى الظهر رائحين وغادين من الدسكرة، وحدث مرتين ان عرجوا على ميتكا في الكوخ لاحتساء قدح ماء. وقبيل المساء رأى ميتكا كيف جاء من الرابية الرملية، التي يلمع بياض ذروتها كرأس اصلع، ثمانية فرسان، وارخوا العنان للجياد للسير ببطء نحو الدسكرة. جلس ميتكا بجانب الكوخ، وودع ببصره الهياكل المحدودبة للفرسان، وقال هامسا دون ان يدير رأسه:

– لا تتحرك يافيديا، ثمة فارس يتقدم في المزرعة باتجاه الكوخ.

وجاء من تحت كومة الحشائش صوت فيودور:

– والآخرون... هل ينتظرونه ام انطلقوا الى الدسكرة؟

– اولئك انطلقوا مسرعين ويختفون وراء الرابية. ارقد.

اقترب القوزاقي، متأرجحا، وانتصب فوق الركاب ولوح بالسوط. كان حصانه مبللا بالعرق.

همس ميتكا شاحبا:

– فيديا... ابونا قادم نحونا.

بدت لحية الأب الحمراء مبللة بالعرق. ووجهه الذي لفحته الشمس صار بلون احمر مشوب بالزرقة. اوقف الحصان عند الكوخ. ترجل، ودنا من ميتكا.

– قل لي: اين فيودور؟

حدق في وجه ميتكا الشاحب بعينين محمرتين بلون الدم. وانبعثت من بزة القوزاقي الزرقاء رائحة العرق والنفتالين.

– هل جاءك ليلا؟

– كلا.

– وما هذا الدم بالقرب من الكوخ؟

انحنى الاب فوق الارض. وتدلت طيات رقبته الحمراء الثقيلة من تحت الياقة.

– هيا بنا الى داخل الكوخ.

ودخلا. الأب في المقدمة، وميتكا الذي اسودت سحنته وراءه.

– حذار، يا افعى. ان كنت تخفي فيديا، فسأقتلكما انتما الاثنين.

– لا... لا اعرف...

– ما كومة الحشائش هذه في الركن؟

– انام فوقها.

– لننظر، – خطا الأب نحو الركن، وجلس القرفصاء وصار يقلب ببطء كومة الحشائش الذاوية والمخشخشة و عيدان عباد الشمس الجافة.

وقف ميتكا خلفه. وكان يرى البزة الزرقاء الملتصقة بجسده تقوم بحركات دائرية انسيابية...

بعد لحظة صدرت عن فم والده حشرجة:

– آها... ما هذا؟

برزت ساق فيودور العارية بين الاغصان البنية. اخذ الاب يتحسس بيده اليمنى قراب مسدسه بعصبية، وقفز ميتكا مترنحا واختطف بشدة البلطة الموجودة عند الجدار، وتاوه لألم شعر به في بلعومه فجاة. ثم لوح بقوة بالبلطة وضرب اباه في قفاه...

* * *

غطيا الجثة الهامدة بالحشيش وانصرفا. مشيا وزحفا وشقا طريقهما عبر المنحدرات والاشواك والاحراش الكثيفة. وفي مكان يبعد حوالي ثمانية فراسخ عن الدسكرة، حيث ينعطف الدون بشدة فيتلاقى مع جبل رمادي، نزلا الى الماء. وسبحا باتجاه جزيرة رملية. وحملتهما بسرعة مياه النهر التي بردت ابان الليل. وامسك فيودور، وهو يئن، بكتف ميتكا.

بلغا الجزيرة. واستلقيا فترة طويلة فوق الرمل الرطب الحبيبي.

– هيا، يا فيديا! لابد وان النصف الثاني غير عريض.

نزلا في الماء. وداعب الدون مجددا الوجهين والرقبتين وكانت اذرعهما التي نالت قسطها من الراحة تشق المياه بثقة اكبر.

بلغت اقدامهما الارض. وشاهدا امامهما عتمة غابة كثيفة. سارا بسرعة.

انبلج نور الصباح. وسمعا في مكان قريب ما هدير مدفع. انداح من جهة الشرق نور الفجر كهالة وردية...

١٩٢٥

طريق الحياة

(قصة طويلة)

القسم الاول

١

يمتد طريق هيتمان بمحاذاة الدون حتى البحر. وعلى اليسار تقوم المرتفعات الرملية المستوية للضفة الاخرى والخضرة الضبابية لاعشاب المروج الذاوية، والبقع المتالقة البيضاء لبحيرات بلا اسم. وعلى اليمين تعلو مرتفعات عريضة الجبهة عبوسة، ووراءها، وخلف الخط الاغبر لطريق هيتمان، ووراء سلسلة روابا الحراسة غير العالية تجري الجداول، وتتناثر عزب ودساكر القوزاق كبيرها وصغيرها، ويمتد بحر من الاعشاب الرمادية اللون.

* * *

حل الخريف مبكراً في ذلك العام. فتعرت السهوب بعد ان اجتاحها الصقيع الشديد.

في الصباح قال الاب مخاطباً بيوتر، حينما كان منهمكاً في تصنيف الصوف تحت سقيفة ورشته لصنع اللباد:

– آه، يا بني، امامنا عمل كثير. لقد بدأ موسم البرد، والقوزاقيات يمشطن الصوف، وينبغي ان نستجمع الهمة ونشمر عن سواعدنا والا فستقصم ظهورنا.

رفع الاب رأسه وابتسم، فتغضن طرفا عينيه الرماديتين، وظهر نتوءان اسودان مدوران فوق وجنتيه غير الحليقتين اللتين نمت فوقهما شعيرات وخطها الشيب.

كان بيوتر جالساً على المائدة منشغلا في صنع قالب احذية. ولاحظ كيف خمدت الابتسامة على وجه ابيه المتعب ولزم الصمت.

وبدا الجو في داخل السقيفة خانقاً الى حد القرف، وثمة قطرات تترقرق من السقف المائل برتابة، وذباب يزحف فوق زجاج البلق، المسروء، للنافذة الصغيرة. وتراءى خلفها السياج المغطى بالصقيع، واشجار الصفصاف والشادوف الطويل للبئر، ملونة مثل قوس قزح شاحب باهت ومغطاة بخضرة صدئة. وكان بيوتر يلقى نظرة خاطفة الى الفناء، ثم ينقل بصره الى ظهر ابيه العاري والمحدودب، وشفتاه تتحركان حينما يعد النتوءات فوق عموده الفقري، ويراقب طويلا كيف يبدو لوحا الكتف وتتجمع الطيات في عقد متجعدة على ظهر ابيه في اثناء عمله.

الاصابع المتغضنة ذات العقد تفرز من الصوف بسرعة اكتسبها بالممارسة الطويلة الشمار الشائكة والاشواك والقش، فيهتز الرأس الاشعث وظله على الجدار ويقومان بايماءات متزامنة مع حركة اليدين. وكانت تنبعث من صوف الغنم المعالج بالبخار رائحة مقرفة نفاذة. ساحت قطرات من العرق على وجه بيوتر، وتدلت خصلات شعره المبللة فوق عينيه. ومسح جبهته بيده، ورمى القالب على عتبة النافذة.

– هيا، يا بابا، لنأكل وجبة خفيفة؟ انظر الى اين وصلت الشمس، انه وقت الظهيرة تقريباً.

– وجبة خفيفة؟ انتظر قليلا... ما اكثر الشمار الشائكة هنا!.. لقد امضيت ساعة كاملة عسيرة في تنظيف الصوف.

نزل بيوتر من المائدة، وتطلع الى الموقد. فتحسست وجنتاه المعروقتان لسعة النار الشرهة.

– بابا، سأخرج حساء الملفوف. انني اموت جوعاً، وبودي تناول الطعام.

– حسناً، اخرجه. ولينتظر العمل.

جلسا الى المائدة دون ارتداء قميصيهما، واخذا يتناولان

بتؤدة حساء الملفوف الذي أطعم بشيء من زيت بذور عباد الشمس.

رمق بيوتر اباه بنظرة جانبية وقال، وهو يمضغ اللقمة:

– لقد اصبحت نحيفا وكأنه يتأكلك سقم. انت لا تأكل الخبز بل هو الذي يأكلك!..

انفرجت اسارير الاب عن ابتسامة:

– يالك من احمق! كيف تقارن نفسك بابيك. انني سابلغ السابعة والخمسين في عيد الشفاعة المقبل، بينما انت في السابعة عشرة ونيف فقط. ان الشيخوخة اصل هزالي وليس السقم. واطلق تنهدة ثم قال: – ليت امك، رحمها الله، رأتك الآن...

لزما الصمت، وهما يصغيان الى ازيز الذباب الخافت. وفي الفناء بدأ الكلب ينبح نباحاً عنيفاً. وسمع وقع اقدام بالقرب من النافذة. انفتح الباب فاصطدم بالراقود الذي ينقع فيه الصوف، ودخل الى السقيفة الحداد سيدور متراجعاً وظهره اليهما، ودون ان ينزع قبعته، ثم بصق على الارض تحت قدميه:

– اي كلب لديكم! انه لايعض رجليك فقط، بل ويتوق الى ما هو أعلى...

– انه خمن بانك جئت في طلب حذاء اللباد، لكنه غير جاهز، ولهذا اعترض سبيلك...

– انا لم آت في طلب حذائي اللباد...

– مادمت لم تأت في طلبهما، فتفضل بالجلوس على البرميل، ولتحل ضيفاً علينا.

– ازورك مرة في حياتي، وحينما افعل هذا تجلسني على مقعد مبلل. لاتكن يا بيتكا وغدا مثل ابيك!..

واطلق سيدور قهقهة عبر لحيته الكثة ثم جلس القرفصاء بالقرب من الباب. وانشغل طويلا في لف سيجارة باصابع متصلبة خشنة. ثم سحب نفساً، وهو يمطط شفتيه، وتمتم بقوله:

– هل سمعت يا عم فوما؟

هز والد بيتكا رأسه وابتسم وهو يدس شيئاً من الصوف في كيس، لكنه لاحظ في عيني سيدور بريق ابتهاج والتزم الحذر.

– ماذا جرى؟

تطلع سيدور اليه عبر سحابة دخان التبغ، وانفرجت شفتاه الارنبيتان عن ابتسامة، وتراقصت عيناه تحت حاجبيه المشوبين بالبياض وهما تنمان عن الجذل والانفعال.

– الحمر يهاجمون، ويقتربون من الدون على الضفة الاخرى ويتحدثون عندنا في الدسكرة عن الانسحاب... كنت فجر هذا اليوم مشغولاً بالعمل في ورشتي فسمعت صوت حوافر جياد تخب في الدرب. وتطلعت فاذا بهم يقصدونني. وسألوا: «هل الحداد هنا؟.. قلت: «نعم». «هيا، استبدل حدوتي الفرس بسرعة البرق. وان افسدتها فسأذيقك طعم سوطي». خرجت من ورشتي ملطخاً كالعادة برماد الفحم، فرأيت امامي عقيداً يصحبه مرافقه. قلت له: «عفوا، يا صاحب السعادة، انني اعرف دقائق مهنتي». واخذت أبدل الحدوتين في القائمتين الاماميتين للفرس، وبينما كنت ادق بمطرقتي بقيت اذناي تصيخان السمع. وعندئذ ادركت بان احوالهم سيئة!..

بصق سيدور وداس السيجارة بقدمه.

– حسناً، الى اللقاء. سأمر عليكما لتبادل الاحاديث ان توفر لدي الوقت.

اصطفق الباب، وتصاعدت سحب البخار فوق جدران السقيفة. صمت العجوز فترة طويلة، ثم دنا من بيوتر، وقال وهو يمسح يديه:

– حسناً، يا بيتكا، سنرى جماعتنا قريباً. ولن يواصل القوزاقيون التحكم برقابنا فترة اطول.

– اخشى ان يكون سيدور قد كذب... كم من مرة

جلب لنا الاخبار عن اقترابهم منا، ثم يتبين فيما بعد انه لا أثر لهم هنا...

– انتظر بعض الوقت. سيقتربون الى حد ان القوزاق لن يجدوا الفرصة للفرار والنجاة بجلودهم.

شد العجوز قبضته المعروقة الهزيلة بقوة واصطبغت وجنتاه الذابلتان بالحمرة.

– نحن، يابني، نعمل من اجل الاغنياء منذ نعومة اظفارنا. انهم يعيشون في بيوت شيدتها ايادي غيرهم، ويأكلون الخبز الذي زرعته وحصدته ايادي غيرهم. والآن حان وقت ذهابهم!..

انبعث سعال حاد من بلعوم الاب. ولوح بيده صامتاً ووقف فترة طويلة في الركن، محدودب الظهر قريباً من الراقود، ثم مسح بصديريته شفتيه، اللتين تلطختا بلعاب وردي فاتح، وابتسم.

– ثمة طريق واحدة يسلكها الانسان في الحياة! ورسمت الاقدار لنا طريقاً واحدة وعلينا المضي فيها حتى الممات كالسراط المستقيم. وما دمنا ولدنا كعمال لصنع اللباد، فمن واجبنا دعم سلطتنا العمالية.

اهتز وتر مندف الصوف تحت نقر اصابع الشيخ مولداً الحانا مديدة. وغطت النافذة غشاوة من الغبار كنسيج العنكبوت. برزت الشمس في النافذة للحظة، ثم انحدرت مسرعة نحو المغيب.

٢

في اليوم التالي جاء الى السقيفة ضابط برفقة حارس من ادارة الدسكرة. وسأل الملازم الشاب المنتفخ الوجه، وهو يضرب بسوطه جزمتيه العاليتين الجديدتين:

– انت فوما كريمنيف؟

– نعم – انا هو.

– تنفيذاً لامر آتامان الدسكرة ورئيس دائرة التجهيزات

والتموين يصادر للاغراض العسكرية كل ما هو مخزون لديك من احذية اللباد. اين تحفظها؟

– يا صاحب السعادة، لقد عملت وابني طوال العام، وان صادرت المخزون فسنموت جوعاً.

– هذا لا يعنيني! الاوامر تقضي بان اصادر هذه الاحذية. فرجالنا من القوزاق في الجبهة بلا احذية. سألتك اين تحفظها؟

– ايها السيد الملازم... لقد صنعناها بدمنا، وليس بعرقنا. انها خبزنا... مصدر رزقنا الوحيد.

تراءت على وجنتي الملازم المغطاتين بالبثور ابتسامة خبيثة، ولمعت اسنان ذهبية تحت شاربيه.

– يقال انت بلشفي. ما القضية. سيأتي الحمر وسيدفعون لك ثمن احذية اللباد...

تقدم نحو ركن المكان، وهو يدخن سيجارته ويدق بمهمازيه، ثم رفع بمقبض السوط غطاءا من قماش الخيش:

– أها، هي ذا احذية اللباد وسنأخذها. شوستروف، احملها الى الفناء وستأتي العربة الآن.

وقف الاب وبيتكا كتفا الى كتف. وحجبا بجسديهما احذية اللباد المكومة في الركن.

احتقن وجه الملازم غضبا، وقال بصوت مبحوح واللعاب يتطاير من شفتيه المرتعشتين، وهو يضبط نفسه:

– غدا، سأتحدث معك باسلوب آخر، حينما سيجرونك، ايها الكلب العجوز، الى المحكمة العسكرية الميدانية.

ودفع العامل العجوز جانبا، واخذ يرفس بقدمه احذية اللباد المجففة والمضغوطة بعناية نحو العتبة. بينما كان الحارس يحملها ملء ذراعيه، ويرميها عبر الباب المفتوح.

سمعت قعقعة عربة وراء السياج ثم توقفت. وبدأت ازواج احذية اللباد تختفي من الركن الواحد تلو الآخر. ولكن حينما أخذ الحارس في طريقه حتى خذاءه الرمادي

المهلهل من على الموقد، خطا الشيخ نحوه بغتة وحصره عند الموقد بيده المتصلبة فانفلت منه الحارس ذو الوجه المجدور الذي ينم عن غباء – وانزلق قميصه الرث وتمزق قليلا عند الرقبة – وبادر الى توجيه لكمة نحو وجه العجوز، دون ان يلوح بيده.

صرخ بيتكا، واندفع نحو ابيه، لكنه وقع في منتصف الطريق عندما تلقى ضربة على صدغه بمقبض الغدارة، وتمدد باسطا ذراعيه وقدميه.

ونظر الملازم شزرا بعينيه المحتقنتين غضبا، وقفز الى العجوز وعاجله بلطمة على خده.

– اطعنه ياشوستروف! انا المسئول. اطعنه، يا رجل! عليك اللعنة!

مد الحارس يده اليمنى نحو سيفه دون ان يترك الحذائين من يده اليسرى. وخر العجوز راكعا، وتدلى رأسه وبرز لوحا كتفيه فوق ظهره المتغضن البني اللون. تطلع الحارس الى الرأس الاشيب، المتدلى حتى الارض، والى ضلوع العجوز البارزة من تحت الجلد المتغضن وتراجع الى الوراء وهو يتطلع الى الضابط، وخرج.

ضرب الملازم بسوطه العجوز، والقى شتائم متقطعة بصوت متحشرج... توالت الضربات بصوت اجوف على الظهر المحدودب، وتورمت فوقه آثارها بشكل اشرطة حمراء، وتمزق الجلد، ونزف الدم بخطوط رفيعة، وسقط راس صانع اللباد الدامي ادنى فادنى نحو الارضية الترابية...

* * *

حينما ثاب بيتكا الى وعيه، ونهض متثاقلا بتأرجح، لم يكن في السقيفة احد. وحملت الرياح الباردة الى الباب المفتوح، وبسخاء، اوراق اشجار الحور الصفراء الشاحبة، ونثرت الغبار، بينما كانت كلبة الجيران تلعق بنهم بركة غليظة من الدم الاسود المتخثر.

٣

يمر الطريق العام عبر القرية.

وفي الطريق الجانبي للقرية، بالقرب من الكنيسة الصغيرة، تتلاقى الدروب من العزب البعيدة والمستوطنات التافرية*. وكانت تمر في الدسكرة متجهة الى الجبهة الشمالية افواج القوزاق والعربات وفصائل التنكيل. ولا يخلو الميدان من الناس دائما. وبالقرب من مبنى الادارة كانت جياد السعاة المنهكة تلتهم العشب من الفسحة امامه. وتضم اسطبلات الدسكرة مستودعات دائرة التجهيزات والتموين ووحدات مدفعية فيلق الدون الثاني.

يطعم الحرس الخنازير المترهلة المعلبات الفاسدة. وتسود الساحة رائحة ورق الغار والمستشفى. ويقوم هناك السجن ايضا. ثمة قضبان صدئة وضعت على عجل. ويوجد بالقرب من البوابة الحرس ومطبخ ميداني مقلوب رأسا على عقب، وكشك تيلفون.

وفي الدسكرة، وفي الازقة الضيقة التي تكاد تختنق بمبانيها، وعلى امتداد الاسيجة المضفورة من الاعواد اليابسة، كانت رياح الخريف تكنس اوراق اشجار القيقب الذهبية الصفراء وتشعث جدائل القصب المتدلية من سقوف العنابر.

بلغ بيتكا السجن. وكان الحرس عند الباب.

– ايه، يا صبي، لا تقترب. اقول لك... قف!.. من تريد؟

– اريد رؤية ابي. اسمه فوما كريمنيف.

– لدينا شخص بهذا الاسم. انتظر، سأطلب، رخصة القائد.

* كانت تطلق تسمية التافريين في الدون على الاوكرانيين الذين امرت القيصرة يكاترينا الثانية بنقلهم من المناطق الجنوبية المجاورة لاراضي القرم (تافريا). **الناشر.**

دخل الحارس الى الكشك، ورفع من تحت المصطبة بطيخة مشطورة، وصار يقطعها بسيفه ببطء، ويأكل، ويتمطق بقرقعة ويبصق الحبوب البنية الداكنة تحت قدمي بيتكا.

وكان بيتكا يتطلع الى الوجه البارز الوجنتين، النحاسي الذي لفحته الشمس، بانتظار انتهاء الحارس من الاكل. بينما لوح هذا بقشر البطيخة الى خنزير مر به، وتطلع فترة طويلة وباهتمام في اعقابه. ثم تناول سماعة التليفون وهو يتثاءب:

– جاء صبي يطلب مقابلة كريمنيف. هل تسمح بادخاله يا صاحب السعادة؟

سمع بيتكا صوت جهوري يصرخ في سماعة التليفون مصحوبا بخشخشة، ولم يفقه معنى الكلمات.

– انتظر هنا، ستفتش...

بعد لحظة خرج من الباب اثنان من القوزاق.

– من جاء لزيارة كريمنيف؟ انت؟ ارفع يديك!..

واخذا يفتشان جيوب بيتكا، ويتفحصان قبعته الرثة وبطانة سترته.

– انزع السروال. آه، يا للوغد، انه يستحي... من انت، فتاة حسناء، ام ماذا؟..

اغلق الباب وراء ظهر بيتكا، وانزلت السقاطة، وساروا بمحاذاة نوافذ ذات قضبان باتجاه مكتب القومندان، وكانت عيون متباينة الالوان تتطلع الى بيتكا من كل شق.

فاحت من الرواق الطويل رائحة غائط بشرى وعفونة. وغشت الجدران الحجرية الطحالب والفطر النتن. وينبعث نور خافت من فوانيس الزيت. توقف الحارس عند الباب الاخير، ونزع المزلاج وفتح الباب بدفعة من قدمه.

– ادخل!

تحسس بيتكا بقدميه الارضية ذات الثقوب، ومشى ويداه الى الامام نحو الجدار. وكان الضوء الازرق لذلك النهار

الخريفي يتسلل عبر كوة صغيرة واقعة تحت السقف مباشرة.

– بيتياشكا!.. أهذا انت؟

انبعث صوت ابيه المتهدج، وكأنه صوت مريض عانى من الداء فترة طويلة. اندفع بيتكا الى الامام، وتحسس اللباد على الارضية بقدمه العارية. وجلس وامسك بيديه صامتا راس ابيه الملفوف بالضمادات.

بينما وقف الحارس، مستندا على الباب المفتوح، وهو يلاعب حزام سيفه، وينشد اهزوجات عن آلام «الحب القاسي».

كان الصدى يرتد فزعا تحت السقف المقبب. اما والد بيتكا فيتحدث بسرعة لاهثا، وهو يطلق ضحكة مشجعة، ورأى بيتكا من الارض في الكوة المدورة كيف تتجمع السحب البنية في الفضاء وتحتها يشق السماء سربان من الغرانيق ذات اصوات اشبه بالرنين.

– استدعوني مرتين للاستجواب... المحقق ركلني بقدميه، وكان يريد ارغامي على توقيع افادة لم اعط مثلها طوال حياتي. كلا، بيتكا، لن تنتزع من فم فوما كريمنيف كلمة بمثل هذه البساطة!.. دعهم يقتلوني، فهم يتقاضون النقود مقابل ذلك، لكنني لن احيد عن الطريق – الدرب الذي رسمه القدر لي منذ مولدي.

بلغت مسامع بيتكا الضحكة المبحوحة المالوفة، وكان يتطلع اليه وجه اسود كالتراب، ينضح بالبهجة اللذيذة، ومتورم بسبب الضرب.

– والآن، ما العمل؟ هل ستبقى في الحبس فترة طويلة، بابا؟

– لن ابقى في الحبس! سيطلقون سراحي اليوم او غدا. كان، ابناء الكلاب، سيطلقون علي النار عن طيب خاطر. غير انهم يخافون ان يعلن الدهماء والاجراء الاضراب. وهذا ما لا يريدونه ابدا.

– وهل سيطلقون سراحك نهائيا؟

– كلا. فسيعقدون من اجل المظهر البحت محكمة تضم شيوخ دسكرتنا. وسيحاكمني الاجتماع العام للقوزاق كلهم... آنذاك سنرى لمن ستكون الغلبة... ولربما يحدث هذا الشيء او ذاك!..

طقطق الحارس عند الباب باصابعه، وصرخ وهو يدق الارض بقدمه:

– ايه، انت يا مرح، ليخرج ابنك. فقد انتهت فترة لقاءكم اليوم.

٤

قبيل الغروب جاء صبي الجيران الى السقيفة يهرول وخاطب بيتكا بقوله:

– بيترو!

– ماذا؟

– اسرع الى الاجتماع العام للقوزاق!.. انهم يقتلون ابيك في الساحة بالقرب من مبنى الادارة.

هرع بيتكا راكضا نحو الساحة، دون ان يعتمر قبعته.

كان يجرى باقصى سرعته في الزقاق الملتوي، المنزوي عند الجدول. وامامه يتراءى القميص الوردي لصبي الجيران بمحاذاة الاسيجة المصطبغة بالحمرة، وتتطاير مع الريح خصلات شعره الشقراء، التي لفحتها شمس الصيف الحارقة، وينطلق عند كل فناء صوته المتقطع ذو الصأصأة:

– هيا الى الساحة!.. القوزاق يقتلون فوما صانع اللباد.

وبدا يتراكض من البوابات والمداخل جماعات من الصبيان، وهم يدوسون ارض الزقاق باقدامهم العارية.

حينما بلغ بيتكا مبنى الادارة كانت الساحة خالية من الناس، فقد امتصت الازقة والشوارع المنصرفين منها.

وعند بوابة بيت القس وقفت زوجته البدينة، رافعة راحة يدها فوق عينيها اتقاء للشمس، وهي تتطلع الى بيتكا

الذي كان يعدو. والقت زوجة القس شالا فوق فستانها المصنوع من قماش الشيت، وبدت على شفتيها الرفيعتين الخبيثتين ابتسامة تنم عن الحيرة. وقفت وتابعت بيتكا ببصرها، وحكت بقدمها سمانة رجلها الاخرى الثخينة المتهدلة والمرتعشة كالجيلاتين، ثم استدارت نحو البيت.

– فيكلوشا... اين يضربون صانع اللباد؟

– بحق الصليب! لقد رايت، ياسيدتي، بام عيني كيف ضربوه!.. – تردد وقع خطوات على درجات الشرفة، وهرعت الطباخة نحو زوجة القس بحركة عرجاء، وهي تلوح بيدها وتصرخ لاهثة: – بينما كنت اقف واري، ياسيدتي، فاذا بهم يقودونه من السجن الى الاجتماع العام. وضج القوزاق، بيد انه لم يلق لهم اي بال. كان الكلب العجوز يمشي متهاديا جذلا، بينما هو نفسه صار اسود السحنة بصورة فظيعة!.. فقد ضربه السادة الضباط قبل هذا... اقتادوه الى الشرفة وبداوا بضربه ضربا مبرحا، وما عدت اسمع سوى خضعة!.. خضعة!.. اما هو فصرخ باعلى صوته، ولكنهم عمدوا آنذاك الى قتله... بعضهم بالعصا والبعض بالوتد... والاكثرية بالاقدام...

هبط من شرفة مبنى الادارة كاتب الدسكرة متهاديا في مشيته.

– إيفان ارسينيفيتش، هلا تاتى الى هنا للحظة!

عدل الكاتب سراويل الركوب العريضة، ومشى بخطوات قصيرة متبخترا نحو زوجة القس وهو يمتع النظر في مقدمي حذائيه اللامعين. وما كاد يخطو حوالي ثماني خطوات حتى عمد الى ارجاع ظهره المحدودب الى الخلف ووضع بلا اكتراث اصبعين على طرف قبعته، ساعيا الى تقليد عقيد التجهيزات والتموين:

– نهار طيب... آنا سيرغييفنا!

– مرحبا، ايفان ارسينيفيتش!.. من قتلوا عندكم؟

مط الكاتب شفته السفلى باحتقار وقال:

– قتل القوزاق صانع اللباد، فوما لانتمائه الى البلشفية.

هزت زوجة القس كتفيها المكتنزتين وتاوهت:

– اوه، يا للفظاعة! هل يعقل انك شاركت في هذا القتل ايضا؟

– نعم... ماذا اقول... المسالة، انهم حينما بداوا يضرب هذا الوغد، وكان راقدا على الارض ويصرخ: «اقتلوني، ولن أتخلى عن السلطة السوفيتية!.. عندئذ، طبعا، ركلته بحذائي – وانا آسف لذلك... اذ تلطخ حذائي وبنطلوني بالدم...

– لم اكن اتصورك، رجلا قاسيا الى هذا الحد!

ابتسمت زوجة القس مضيقة بعينيها للكاتب المتحذلق بينما جلس بيتكا القرفصاء آنذاك على الرمل المخضب بالدم عند شرفة مبنى الادارة، وقد احاطه رهط من الصبيان ذوي الملابس الزاهية، وظل يحدق طويلا في الكتلة العديمة الشكل التي تنزف دما...

٥

الغرانيق تحلق فوق الدسكرة، وتطلق الصرخات ليلتئم شملها من جديد فوق الارض الباردة. وظل بيتكا يتطلع من النافذة الصغيرة في السقيفة ساعات بلا توقف ودون ان يحول بصره.

جاء الى السقيفة الحداد سيدور، وراقب بيتكا منهمكا في جرش حبوب الذرة بين آجرين، ثم تنهد:

– آه، يا بني، ما اكثر ما عدت عليك العوادي. لكن لا بأس عليك، ولا يجب ان تخور عزيمتك، فعما قريب ستاتي جماعتنا، وستغدو الحياة ايسر! وتعال غدا الي، وساعطيك مكيالين من الدقيق.

جلس بعض الوقت، واطلق عبر اسنانه الصفراء بسبب التدخين سحابة رمادية بيضاء من الدخان، وبصق

عند الموقد وانصرف بالتنهدات دون ان يقول كلمة وداع.

بيد انه لم يقدر العيش بصورة أيسر. في اليوم التالي وقبيل مغيب الشمس كان بيتكا ماشيا عبر الساحة حينما خرج من بوابة السجن اثنان من القوزاق يقودان بينهما سيدور بقميص طويل من الخيش يمتد الى ما تحت الركبتين. وياقته ممزقة حتى وسطه، وظهر في الفتحة صدره المغطى بشعر مجعد خشن.

حينما مر ببيتكا تعثر والتفت اليه قائلا:

– يقودونني الى الاعدام، يا حبيبي، بيتكا... فوداعا!

ولوح بيده وانتحب...

انصرم الوقت كما في كابوس ثقيل بشع. وتقمل بيتكا، وظهرت شعيرات من الزغب على وجنتيه، وبدا اكبر سنا من اعوامه السبعة عشر.

كانت الايام تمضي متتابعة، ومترعة بالبؤس الثقيل. ومع كل نهار يتوارى وراء الافق مع الشمس الغابية يقترب الحمر من الدسكرة اكثر فاكثر. وتنامى القلق وازداد في قلوب القوزاق.

وفي الصباح حينما تقتاد النساء الابقار الى الطريق نحو المراعي كان هدير المدافع يتردد وراء منطقة شيجولكسي. فيمضي الدوي البعيد مترددا فوق البيوت والافنية الراقدة في عتمة الفجر الخضراء. وحينما يصطدم بالجدران الطينية للسقيفة يهتز زجاج الميكا بارتعاشة في النوافذ. فينزل بيتكا من على الموقد، ويضع على كتفيه الزبون، ويخرج الى الفناء، ويستلقى على الارض المغطاة بطبقة رقيقة من الجليد بالقرب من الصفصافة العتيقة، و يصغي لدى قصف المدافع الى آهات وتنهدات وسعال الارض وكانها شيخ عجوز، بينما تسمع من وراء أجمة من اشجار الحور لعلعة المدافع الرشاشة مختلطة بنعيب غربان القيظ.

في صباح ذلك اليوم ايضا خرج بيتكا مبكرا جدا، ووضع اذنه على الارض المتجمدة، وتحسس حرقة برودتها

اللزجة، فسمع دوي المدافع البعيد... بينما كانت المدافع الرشاشة تجلجل بمرح الشباب في الهواء البارد:

طق – طق – طق... طق – طق...

في البداية بصورة متقطعة، ثم تزداد الطقطقة، ولحظة توقف، ومن جديد تجلجل ثم لاتكاد تسمع:

طق – طق – طق...

ولكي لاتتجمد ركبتاه عمد بيتكا الى جر طرف الزبون تحته، وبينما هو يتخذ وضعا مريحا اكثر سمع صوتا اجش من وراء السياج يقول:

– هل تسمع الموسيقى، يا ولد؟.. انها موسيقى ظريفة...

ارتعش بيتكا، وجلس القرفصاء، ورأى عبر السياج عيني شيخ ترمقانه بحدة، وتوارت ابتسامة وراء لحيته المائلة الى الاصفرار...

عرف بيتكا من الصوت انه العم الكسندر الملقب بالرابع.

قال بيتكا بغضب محاولا اخفاء ارتجاف صوته:

– اذهب يا عم في طريقك، فهذا لايعنيك البتة...

– ربما لايعنيني، غير انه يعنيك كما يبدو...

– دعني وشأني ياعم، والا فسارميك بهذا الحجر، وعندئذ ستجأر بالشكوى...

– انك سريع البديهة جدا! اقول سريع البديهة! بوسعي، ايها الصبي، تأديبك بعصاي لما تبديه من عدم احترام الى شيخ...

– انا لا اعترض سبيلك، فدعني لحالي ايضا.

– انت صبي غر حقا، او تجرأ على تهديد من هو اكبر منك سنا.

تشبث الشيخ بمسندين في السياج، ثم عبره بجسمه النحيف الاعجف بخفة. دنا من بيتكا وهو يعدل سرواله الممزق المخطط، وجلس الى جانبه.

– هل تسمع المدافع الرشاشة؟

– البعض يسمعها... والبعض لا..
– دعنا نسمع اذن...
تطلع بيتكا بطرف عينيه طويلا الى الشيخ الراقد واذنه الى الارض ثم قال بتردد:
– ان رقدت وراء الصفصافة، يكون السماع افضل...
– دعنا نسمع وراء الصفصافة ايضا.
زحف الشيخ على اربع وراء الشجرة واحتضن الجذور بيدين شبيهتين بهذه الجذور ورقد بلا حراك صامتا فترة دقيقتين.
– عجيب!.. نهض وهو ينفض عن ركبتيه الصقيع الناعم، والتفت مواجها بيتكا: – والآن اسمع، يا صغيري، انني استطيع سبر غور كل شيء واعرف بنظرة واحدة ما تخبئه في حنايا صدرك وما تضمره. بوسعنا سماع هذه الموسيقى الى ابد الابدين، لكننا انا وابني قررنا امرا آخر... او تعرف ابني ياشكا؟ ذاك الذي جلده القوزاق لاتهامه بالبلشفية...
– اعرفه...
لقد قررنا معا التوجه للقاء الحمر... وعدم انتظار قدومهم...
انحنى الشيخ حتى صارت لحيته تدغدغ اذن بيتكا وهمس، وانفاسه تبعث رائحة فيها حموضة:
– اسفي عليك، يافتى، ما اشد اسفي عليك!.. دعنا نذهب سوية بعيدا عن هنا، ولنفترق الى الابد مع جيش الدون العظيم، عليه اللعنة. هل انت موافق؟
– الا تكذب علي، يا عم؟
– انت لاتزال صغيرا جدا لكي تتهمني بالكذب... ينبغي عقابك كل العقاب على مثل هذا القول. الكلبة فقط تكذب، اما انا فاقول الحقيقة. لا حاجة لي لاقناعك، فابق هنا ان اردت، – ومشى نحو السياج وهو يمرق بسرواله المخطط.
لحق به بيتكا، وتشبث بكمه.

– انتظر، يا عم!
– ليس بوسعي الانتظار، ان اردت الذهاب معنا فاهلا وسهلا... والا فخير لنا بدونك...
– ساذهب، يا عم... متى؟
– سنتحدث عن هذا فيما بعد. تعال الينا مساءا، وساكون مع ياشكا في الجرن.

٦

عرف الكسندر الرابع منذ القدم كعجوز سريع الانفجار والانفعال، وحينما يكون ثملا يغدو مشاكسا، اما في حالة الصحو فهو رجل ممتاز. ولايتذكر احد لقبه. وحدث منذ زمن بعيد حينما عاد من الخدمة العسكرية في ايفانوفو – فوزنيسينسك، حيث كانت ترابط وحدة قوزاقية، ان قال للشيوخ وهو في نشوة السكر:
– لديكم القيصر الكسندر الثالث... وانا، بالرغم من انني لست قيصرا، فالكسندر الرابع، وابصق على قيصركم!..
قرر الاجتماع العام تجريده من لقب قوزاقي وحصته من الارض، وعوقب في ميدان الدسكرة بخمسين جلدة لعدم احترامه اللقب الرفيع. وتقرر اغلاق القضية. بيد ان الكسندر الرابع انحنى لدى رفع سرواله انحناءة شديدة امام ابناء الدسكرة في كافة الجهات الاربع، وبينما كان يزرر آخر زر، قال:
اشكركم بالغ الشكر ايها السادة المشايخ، ولكن ازكد لكم بان عقابكم لم يرهبني البتة!..
ضرب أتامان الدسكرة عصاه وقال:
– مادمت لم ترهب – فاجلدوه جلدات اضافية!..
بعد الاضافة لم يتفوه الكسندر بكلمة. وحملوه على الايدي الى بيته، لكنه احتفظ بلقب الرابع حتى وفاته.
جاء بيتكا الى الكسندر الرابع قبيل حلول المساء. كان

البيت خاويا. وانشغلت عنزة حمراء في المدخل بالتهام بقايا الملفوف. مشى في الفناء نحو باب الجرن فوجده مفتوحا على مصراعيه. وبلغه من العنبر صوت العجوز المبحوح يقول:

– تعال الى هنا، يا فتى!

اقترب بيتكا والقى التحية، بينما لم يرفع العجوز ناظريه. كان يصنع دارسة من الحجر، ويقطع فيه المجاري راكعا، فتتناثر تحت ضربات المطرقة شظايا الحجر الرمادي، وتتطاير منها شرارات مائلة الى الخضرة. بينما كان الابن ياكوف مشغولا مع المذراة دون ان يرفع راسه، فيطرق بالمطرقة، ويثبت الصفيح المقطوع على الحواف.

وفكر بيتكا في دخيلة نفسه: «ما الذي يدعوهم لهذه الاعمال والشتاء على الابواب؟». اما العجوز فدق بالمطرقة آخر مرة وقال دون ان يتطلع نحو بيتكا:

– نريد ان نترك للشيخة كل شيء على ما يرام في البيت. انها سليطة اللسان، وتصرخ لأي سبب. كان يمكن ابقاء كل شيء على حاله، لكنني اخشى تعنيفها الشديد. وستقول: ذهب ابناء كذا... بينما الاعمال كثيرة في البيت.

كانت عينا العجوز تومضان بالجذل. ونهض وربت على رقبة بيتكا، وقال مخاطبا ياكوف:

– كفى عملا، ياشا! ودعنا نتحدث مع ابن صانع اللباد عن قضايا اخرى.

اخرج ياكوف من فمه الى راحة يده المسامير الصغيرة التي كان يدق بها الصفيح على المذراة، ودنا من بيتكا، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة:

– مرحبا، يا أحمر!

– مرحبا، ياكوف الكسندروفيتش!

– كيف، هل قررت الذهاب معنا؟

– ابلغت العم الكسندر يوم امس بانني ذاهب.

– هذا لا يكفي... قد يركب المرء رأسه ليلا، ووداعا يا دسكرة! بينما ينبغي ان يبقى ما يذكر به فيما بعد. لقد راينا خيرا كثيرا من القوزاق في الدسكرة، وذقنا الامرين

منهم. فجلدوا ابي، وضربوني حتى كدت اموت لرفضي الذهاب الى الجبهة، واباك ايضا... ايه، ماذا بوسعي القول!..

انحنى ياكوف باتجاه بيتكا قريبا جدا، وتمتم هامسا وقد رفع حاجبيه الكثين المقوسين:

– اتعرف، يافتى، ان هؤلاء الكاديت، قد حولوا الاسطبل الى مستودع لقذائف المدفعية ارايت كيف كانوا ينقلون الى هناك الذخيرة وغيرها؟

– رأيت ذلك.

– فماذا لو اضرمنا فيها، مثلا، النار، فماذا سيحدث؟

لكز العم الكسندر بيتكا بمرفقه في جنبه، وابتسم:

– امر رهيب...

– هذا ما يعتقده ابي ايضا وهو يقول: رهيب وغير ذلك، بينما لي رأي آخر... هل الحمر يرابطون بالقرب من منطقة شيجولسكي؟

وقال بيتكا:

– لقد احتلوا يوم امس عزبة كروتينكي.

– وهكذا، فاذا ما دبرنا انفجارا هنا، وحرمنا القوزاق من حاجتهم من المؤنة والذخيرة، فانهم سيتراجعون متقهقرين حتى نهر دونيتس! مفهوم!..

مسد العم الكسندر لحيته وقال:

– غدا، وحالما يدلهم الظلام تعال الينا هنا، انتظرنا بهذا المكان... واحمل معك حاجتك للسفر، اما الطعام فسندبر امره.

توجه بيتكا نحو بوابة الجرن، لكن العم اعاده:

– لا تذهب عبر الفناء، ففي الشارع ثمة مارة يتسكعون، اذهب عبر السياج، والسهب... ان الحذر ضروري دائما.

عبر بيتكا السياج، وقفز فوق الساقية المغطاة بالجليد المبقع، ومضى بمحاذاة اجران الدسكرة، وبمحاذاة اكداس التبن العابسة الملفعة بالصقيع، وحث الخطى نحو بيته.

في الليل هبت الريح من جهة الشرق، وتساقط ثلج وفير كثيف ورطب. وخيمت العتمة فوق كل فناء وكل زقاق. التف بيتكا بزبون ابيه وخرج الى الشارع. وقف بالقرب من الباب، واصاخ السمع الى عويل اشجار الصفصاف عند الجدول وهي تنوء تحت عبء الرياح الشديدة، ومشى في الشارع بخطى وئيدة نحو فناء بيت الكسندر الرابع.

سمع من العنبر، من العتمة، صوت يقول:

– اهذا انت يا بترو؟

– نعم.

– تعال الى هنا، التزم جهة اليسار، ثمة مسلفات هناك.

اقترب بيتكا فوجد العم الكسندر وياكوف منشغلين في تهيئة الحاجيات.

جمعوا المتاع، ورسم العم علامة الصليب، وتنهد ثم خطا نحو البوابة.

بلغوا الكنيسة. همس ياكوف، وهو يسعل بصوت خافت:

– بتروخا، صغيري، انك لاتلاحظ واسرع منا حركة... فلن يروك... ازحف عبر الساحة الى المستودعات، اترى، صناديق الذخيرة المصفوفة بالقرب من الجدار؟

– اراها.

– خذ الحجر والزناد، وهذه الياف قنب مغمسة بالكيروسين. لتزحف الى هناك، ولتغطي نفسك بالزبون وتشعل النار. وحالما تلتهب الياف القنب ضعها بين الصناديق وعد بسرعة. هيا، اذهب... ولا تخف!.. ونحن بانتظارك.

جلس العجوز وياكوف بالقرب من الحاجز، بينما زحف بيتكا على بطنه فوق الارض المغطاة بالندى المثلج الناعم والكثيف متجها الى المستودعات.

كان زبون بيتكا رثا مهلهلا تلاعبه الريح، ويتسلل منه القر بتيارات لاسعة تخز ظهره وساقيه. وتجمدت يداه فوق الارض التي تصلبت بالبرد. تلمس طريقه الى المستودع. وشاهد على مسافة خمس عشرة خطوة وميض سيجارة الحارس. كانت الرياح تعوي تحت الواح سقف العنبر، وتصطفق احدى الالواح المنزوعة. وحملت الريح اصوات جوفاء خافتة من المكان الذي يضيء منه طرف السيجارة.

جلس بيتكا القرفصاء، وغطى نفسه حتى الراس بالزبون. وارتجف الحجر بيده و كاد يسقط الزناد من اصابعه المتخدرة من شدة البرد.

تشورك!.. تشورك! ولا يكاد يسمع صوت اصطدام صلب الزناد بالحجر. وتراءى لبيتكا ان الصوت يسمع في الساحة كلها.. وغشته الرهبة وامسكت بخناقه كافعى لزجة الملمس كريهة. و كان قد اصابت رطوبة يده الفتيل بالبلل، وكرر الدق المرة تلو المرة، وصدر دخان شرارة حمراء، واشتعلت حزمة الاعشاب بنور ساطع متوهج. فدسها بيد مرتعشة تحت الصناديق. وتنشق للحظة من الزمن رائحة الخشب المحترق، ونهض على قدميه، وسمع وقع اقدام واصوات مبحوحة تعكر دياجير الظلام.

– والله... نار! آه، انظر!

حينما عاد الى بيتكا رشده هرول في الظلام المنذر وهدرت في اعقابه اطلاقات، وصفرت رصاصتان فوق رأسه صفيرا مديدا، بينما نفذ ازيز الثالثة في العتمة في مكان ما بالجهة اليمنى. ركض حتى كاد يبلغ الحاجز. وكانوا يصرخون وراءه بصوت اجش:

– حـ... ريق!.. حـ... ريق!..

لعلع الرصاص.

ورفرفت في رأس بيتكا فكرة: «لو اصل الى الحاجز فحسب!..»

استجمع كل قواه وهرول. والازيز الشديد يصر في اذنيه. «لو اصل الى الحاجز فحسب!».

شعر بألم حاد في ساقيه، وجرى عدة خطوات وهو يعرج بشدة، وسال تحت الركبة سائل دافيء... سقط بيتكا. وبعد لحظة نهض وصار يقفز على اربع، وهو يتعثر باطراف الزبون.

طال جلوس العجوز وياكوف. وكانت الريح تهز على السياج الحبل المربوط بالجرس الكبير، وتحرك السنة الاجراس الصغيرة، فيصدر عنها رنين خافت ومتعدد الاصوات.

في البداية صدرت من الظلام، بالقرب من المستودعات المنتصبة وسط الساحة كالروابي المحدودبة، اصوات غير واضحة مزقتها الريح، ثم تصاعدت السنة اللهيب الحمراء ولحست عتمة الليل. انطلق عيار ناري وثان وثالث... وسمعت دبدبة خطوات بالقرب من السياج، وانفاس لاهثة متقطعة، وصوت مخنوق:

– يا عم.. ساعدني. ساقي..

هرع العجوز وياكوف فاسندا بيتكا بايديهم من تحت ابطيه وتواروا مسرعين في زقاق مظلم. كان يهرولون وهم يتعثرون بنتوءات الارض ويتساقطون. وافلحوا في عبور شارعين عندما صدر رنين جرس الانذار. كان رنينا عاليا ذلك الذي عكر السكون المخيم فوق البلدة النائمة.

ومضى العم الكسندر يهرول الى جانب بيتكا، ويشخر ويجرجر قدميه بسرعة. وكانت لحيته المتطايرة تداعب وجنتي بيتكا.

– الى البساتين، يا عم!.. لنتجه الى البساتين.

وثبوا عبر الساقية، ثم توقفوا لاستجماع انفاسهم.

بدا كما لو انغلقت الارض الى نصفين... فوق الدسكرة، وفوق الساحة: وبغتة تصاعد عمود احمر ساطع من النيران عاليا، اعلى من برج الجرس، وتجمعت سحب الدخان الكثيفة.. وحدث انفجار وتلاه آخر.

ران السكون، وفجأة بدأت الكلاب تنبح في الدسكرة كلها، وقرع الجرس مجددا بدوي عال يصم الآذان، وتعالى

صراخ النساء في أفنية البيوت، اما في الساحة فكان اللهب المتموج الاصفر يلتهم الجدران المتداعية للمستودعات عن بكرة ابيها، وتمتد السنته الطويلة الى مباني بيت القس.

جلس ياكوف وراء شجيرة زعرور عارية الاغصان وقال بصوت خافت:

– الهروب مستحيل الآن. النور يغمر الدسكرة كلها، فما اشد اللهب!.. كما يجب القاء نظرة على ساق بيتكا...

– لابد من الانتظار حتى الفجر، حتى يهدأ روع الناس نوعا ما، وبعد ذلك نتوجه الى غابات الحكومة.

– انت رجل كهل، يا ابي، لكنك تفكر مثل طفل. هل من المعقول الانتظار في البلدة حينما يجدون في البحث عنا في كل مكان؟ وان لجأنا الى البيت فسيلقون القبض علينا فورا. نحن من اوائل المشبوهين في الدسكرة.

– هذا صحيح... انت تقول الحق، يا ياشا.

سأل بيتكا وقد تغضن جبينه من الألم:

– ربما نختبيء في بيتنا، فنقضي النهار في السقيفة؟

– هذا مناسب. ثمة حاجيات عتيقة هناك؟

– توجد اكداس من طوب الروث المجفف.

– هيا بنا، على مهل!.. بابا، لم تسير في المقدمة؟ الافضل ان تسير بهدوء جدا في المؤخرة.

٨

عند طلوع الفجر كان ياكوف وبيتكا قد انجزا حفر حفرة عميقة في موضع تخزين الروث. وبغية توفير الدفء غطوها من الاسفل والجوانب باعشاب جافة، ونزلوا الى الحفرة، وغطوها من الاعلى بفروع نبات متسلق واغصان البطيخ الجافة التي جلبت من البستان لغرض التدفئة.

مزق ياكوف قميصه التحتاني وربط ساق بيتكا المصابة. وربض الثلاثة هناك حتى المساء.

في الصباح جاء الى الفناء رجال، وسمعت احاديث غير واضحة وقرقعة القفل، ثم قال صوت قريب جدا:

– اغلب الظن ان صبي صانع اللباد يعمل في العزبة. كف، يا صاحبي، عن تحريك القفل. فما حاجتك به، لا يوجد في بيت صانع اللباد سوى القمل والصوف. وليس هناك ما يؤخذ!..

تلاشى صوت الخطوات في مكان ما وراء العنبر.

في الليل انهال برد شديد. وكان يسمع منذ المساء انفلاق الارض بفرقعة في الزقاق بعد ان صار منذ الخريف مشبعا بالماء. وومض القمر المعقوف مسرعا في رحلته الليلية في السماء التي تناثرت فيها ندف السحب. وغمزت لهم النجوم من الثغرات السوداء القاتمة. بينما يصبص الليل نحوهم عبر السقف ذى الثقوب.

كان الجو دافئا في الحفرة تحت قطع الروث. واستسلم العجوز الكسندر للنوم وقد وضع ذقنه على ركبتيه، وهو يشخر بين حين وآخر ويحرك ساقيه. بينما كان بيتكا وياكوف يتحدثان بصوت خافت.

– بابا... استيقظ. متى تنتهي من النوم؟ حان الوقت للسفر.

– هه؟ هل حان وقت الذهاب؟ حسنا...

رفعوا قطع الروث بعناية وبحذر، وفتحوا الباب قليلا. ولم يكن هناك احد في الفناء والدرب الجانبي.

استداروا حول آخر فناء في الدسكرة، وخرجوا الى السهب عبر حرج من الاشجار. وزحفوا الى الوهدة على الثلج مسافة مائتي خطوة تقريبا. خلفوا وراءهم الدسكرة التي تحدق في السهب بالحاح بنوافذها المضيئة كالبقع الصفراء. ساروا في الوهدة حتى ولجوا الغابة الحكومية بهدوء وحذر كما لو كانوا يتعقبون فريسة. وبين الفينة والفينة تنبعث طقطقة لدى تكسر الجليد تحت الاقدام وصرير عن الثلج. وفي بعض الاماكن تراكمت الكثبان الثلجية فوق القاع الصخري الاجرد للوهدة، وبدت عليها اثار زرقاء لارانب.

تنحدر الوهدة من احد طرفيها نحو طرف «الغابة

الحكومية»، وصعدوا الرابية وتطلعوا حواليهم، وساروا الهوينا نحو الغابة.

– من المجازفة ان نذهب الى شيجولسكي بلا استكشاف. وعما قريب سنبلغ خط الجبهة، فنقع في قبضة البيض.

غطى ياكوف رأسه تحت المعطف القصير وانشغل فترة طويلة في توليد شرارة بالحجر والزناد. كان الحجر يخدش بالصلب، مكونا شرارات، واشتعل الصوفان المدعوك برماد عباد الشمس بلهيب احمر وانبعث منه دخان كريه الرائحة، وسحب ياكوف عدة انفاس من سيجارته واجاب ابيه قائلا:

– انا اعتقد بان علينا ان نعرج على حارس الغابة دانيلا فهو من معارفنا القريبين، وسنعرف منه كيف يمكننا المرور عبر المواقع العسكرية. كما وندفيء بيتكا قليلا، فهو سيموت من البرد هنا.

– انا يا ياكوف الكسندروفيتش لا احس بالبرد الشديد.

– اسكت، يا ولد، ولا تكذب. ان زبونك لا يقي من البرد، بل من حرارة الشمس.

– لنذهب، ياشا، لنذهب يا بني! انظر اين وصل برج الثريا، فقريبا سيحل منتصف الليل.

توقفوا على بعد مائة متر تقريبا من كوخ الحارس. فقد شاهدوا نورا في النافذة، و الدخان يتصاعد من المدخنة بتثاقل. وطلع القمر فوق الغابة معوجا بصورة خرقاء.

– لابد وانه ليس هناك من احد. هيا بنا.

نبح كلب عند العنبر. وانبعث صرير تحت الاقدام من درجات الشرفة المتجمدة. طرقوا الباب.

– هل صاحب البيت هنا؟

مال وجه بلحية على النافذة متطلعا.

– نعم، هنا. من ارسل الرب الينا؟

– اصدقاء، يا دانيلا لوكيتش. اسمح لنا بالدخول للتدفئة بحق المسيح.

صر الباب في الطرقة ورفع المزلاج. وظهر في العتبة حارس الغابة، وصار يتطلع من تحت يده اليمنى المرفوعة فوق عينيه الى الطارقين بينما كان يخبىء البندقية بيده اليسرى وراء ظهره.

– اهذا انت ايها الشيخ الكسندر؟

– هذا انا، هل ستسمح لنا بالمبيت؟

– من يدري... ادخلوا فلعلنا نجد مكانا للجميع!

كان الجو دافئا في الغرفة. وثمة ثلاثة رجال افترشوا بساطا من فرو الضان على الارض، ورؤوسهم على الاسرجة، وفي الركن بنادق. تراجع ياكوف نحو الباب.

– من هؤلاء، يارب البيت؟

صوت من جهة البساط:

– الم تعرف ابناء دسكرتك؟ اما نحن فبانتظاركم منذ يوم امس. وكنا على ثقة من انكم لابد وان تأتوا الى «الغابة الحكومية» وكوخ دانيلا.. فانزعوا معاطفكم، ايها الضيوف الاعزاء، ودعنا نبيت، وغدا سنبعث بكم الى «ارجوحة القيصر» راسا!.. ان الحبل يحن شوقا اليكم منذ زمن طويل!..

نهض القوزاقيون من فوق البساط، وامسكوا ببنادقهم.

– شد وثاق المخربين، مشعلي الحرائق، يا سيميون.

٩

كان اثنان يرقدان على الفراش والثالث يجلس عند المائدة متدلي الرأس وبين ساقيه البندقية. رمى حارس الغابة دانيلا بعض قطع الخيش على الارض.

– افرش يا عم الكسندر، فهذا مريح لعظامك.

– يا لك من شفيق، احذر ان تحل محله. اتسمع يا حارس الغابة؟ ارفع الخيش! لقد اضرموا النيران بمستودعاتنا، وجزاء عملهم هذا يجب ان يناموا الى جانب كلب صاحب البيت في البرد...

قبيل الفجر، طلب العجوز الخروج لقضاء حاجته.

– دعني اخرج يا بني لقضاء الحاجة...

– لا بأس، يا عم، بول في سروالك ام في حذائك. وغدا ستعلق على المشنقة فتنشف هناك!

لاحت في النوافذ تباشير الفجر الشتوي ذي النور الخفيف. نهض القوزاقيون واغتسلوا وجلسوا لتناول الطعام. همس ياكوف دون ان يلحظ الى ابيه وبيتكا:

– لقد حززت الحبل ليلا، وحالما نصل الى الدسكرة لنتفرق جميعا. لنهرب عبر الاحراش ومنها الى التل – حيث توجد الكهوف التي كنا نقلع منها الاحجار. وهناك لن يجدونا ابدا.

ساروا مربوطي الايدي بحبل من القنب. وكان بيتكا يعرج بساقه المصابة الجريحة، وهو يعض على نواجذه بسبب الالم الممض.

بدت الدسكرة امامهم، وقد برزت في اطرافها الاحراش كضفائر رمادية مثل امرأة اصابتها الحمى. وحينما انعطفوا في اول زقاق، قطع ياكوف الحبل، وقد شحبت والتوت شفتاه، واندفع في حركة ملتوية فوق الثلج الى الحرج، واختفى بين الاشجار. وتبعه العم الكسندر وبيتكا في اتجاهات مختلفة.

تعالت صرخات وراءهم:

– قف! قف، انتم يا اولاد الزنا!

سمع اطلاق النار ودبدبة سنابك الخيل. قفز بيتكا فوق الساقية وتطلع خلفه.. ورأى كيف سقط العم الكسندر وتهاوى برأسه المصاب نحو احد الكثبان الثلجية وهو يرفس ساقيه عاليا.

كانت التلة التي تغطي قمتها الثلوج تسعى للقائهما. وبدت الكهوف السوداء التي كان القوزاق يستخرجون الحجارة منها مثل احداق العيون الغائرة. غاص ياكوف في الكهف اولا، وتبعه بيتكا.

زحفا في الظلام الدامس الرطب في طريق ملتوية وهما يمزقان ملابسهما ويخدشان اجسامها بالنتوءات المدببة فتنزف الدماء. وفي بعض الاحيان كان بيتكا يتلقى ضربات مؤلمة من حذائي ياكوف على رأسه. ثم تفرع الكهف الى شطرين، فزحفا باتجاه اليسار، وكانت راحتا يدي بيتكا ملطختين بالطين المتجمد، والماء يتساقط بقطرات من الاعلى فوق قفاه.

ثمة حفرة تحت اقدامهما. نزلا فيها وجلسا سوية. وهمس ياكوف:

– الويل لي!.. يبدو انهم قتلوا ابي.

– لقد سقط بالقرب من الساقية.

بدت اصواتهما وكأنها غريبة آتية من مكان بعيد. وغشت العيون العتمة.

– الآن يا بيتكا، سيهلكوننا جوعا. وسنموت مثل فار في جحره. ولكن من يدري؟ انهم سيخافون الدخول الينا. لقد حفرنا ابي وانا هذه المقالع منذ ما قبل الحرب الاولى. انني اعرف جميع المخارج. دعنا نواصل الزحف.

زحفا. وفي بعض الاحيان كانا يصادفان ممرا مسدودا، فيرجعان ويجدان ممرا آخر...

* * *

ربضا يومين في العتمة الداجية والرطبة.

وكانا يحسان بالصمت يرن في اذانهما. ولم يتحادثا تقريبا. وكانا يغفوان وهما يصغيان بصورة مرهفة. وفي مكان ما من الاعلى تنز قطرات الماء على الحجر. ثم يستيقظان ويغفوان من جديد.

ومن ثم كانا يتلمسان الجدران نحو المخرج مثل جروين لايبصران، وتاها فترة طويلة، وبغتة لمع النور امام عيونهما بصورة مؤلمة.

كان يوجد عند مدخل الكهف الحجري كومة من الرماد واعقاب سيجاير وخراطيش وآثار كثير من اقدام البشر.. وحينما امعنا النظر شاهدنا: ثمة فرسان يتوجهون في الطريق نحو الدسكرة في صف ملتو واذناب خيولهم مقصوصة الشعر. ومضى وراءهم المشاة حشودا، مثل كتلة رمادية، والريح تداعب راية حمراء واصوات وضحك واوامر وصرير الزحافات تتناهى الى السمع من بعيد.

قفزا من مكمنهما، وهرولا، وسقطا. لوح ياكوف بيده وصاح بصوت عال اجش:

– اخواني!.. الحمر!.. الرفاق!..

تجمع الفرسان في الطريق في حشد من الجياد الكميتة. وتدافع المشاة وراءهم بملابسهم الرثة المبتلة والقذرة.

هز ياكوف برأسه، وهو يحبس دموعه، وصار يقبل سيور الركاب والجزم العالية لرجال الجيش الاحمر، وحملوا بيتكا ورموه في الزحافة فوق اعشاب السهوب الحلوة العبير، وغطوه بالمعاطف.

كانت الزحافة تتأرجح و تهتز. وتشم من المعاطف رائحة العرق الحامضية العزيزة لديه، مثل رائحة قميص ابيه في وقت ما...

اصاب بيتكا دوار في الراس، وملأ صدره الغثيان، بينما كانت الفرحة تغمر قلبه مثلما يزهر الجودار بعد الامطار في شهر ايار.

رفعت يد ما المعطف وانحنى على بيتكا وجه بلا شوارب لوحته الرياح، وارتسمت ابتسامة على ثغره:

– هل انت حي ترزق يا صديقي؟ هل تأكل البقسماط؟

ودسوا في فم بيتكا شيئا من البقسماط الممضوغ، وأخذوا يدلكون يديه الباردتين بقفافيز شائكة الملمس. اراد قول شيئا ما، لكن فمه امتلأ بكتلة من هريس خبز الجودار، وانحبست الدموع في بلعومه.

امسك باليد السوداء الخشنة وضغط بها على صدره بقوة شديدة.

١

بيت كبير بسقف من الصفيح وتطل على الشارع ست نوافذ بشوشة ذات مصاريع زرقاء. كان يعيش فيه سابقا اتامان الدسكرة اما الآن فقد افتتح فيه نادي خلية اتحاد الشبيبة الشيوعي الروسي. عام الف وتسعمائة وعشرون. الوقت شهر ايلول البارد الرطب وقد غشي الليل الثقيل الحدائق والازقة.

ثمة اجتماع في النادي، الهواء فيه مترع بدخان السجاير وتمتمة الاصوات. يجلس وراء الطاولة بيتكا كريمنيف سكرتير الخلية. والى جانبه جريجوري رسكوف عضو المكتب. وكانت تقرر مسألة هامة: الفلاحة النموذجية لقطعة الارض التي خصصتها دائرة الاراضي الى الخلية.

بعد نصف ساعة دوّن في قسم من المحضر مايلي:

«جرى الاستماع الى: تقرير الرفيق رسكوف بصدد تخصيص قطعة من الارض في منطقة كروتينكي.

وتقرر: توجيه الرفيقين رسكوف وكريمنيف من اجل مسح وقياس الارض فورا».

اطفأوا المصباح. وصدرت جلبة اقدام فوق ارضية الشرفة. وقف بيتكا في الركن وتطلع الى قميص رسكوف الابيض وهو يتوارى في العتمة الحليبية، وصاح في السكون المطبق الذي يغمر الدسكرة الغافية:

– جريشكا، اتسمع؟ الناس بدأوا الحراثة، ولا يجوز الاعتماد على عربة تمر صدفة! وينبغي علينا الذهاب مشيا على الاقدام!

فجر مسلول. كان القطيع قد مضى منذ فترة وجيزة في الدرب الذي داسته حوافر الماشية. وتصاعد الغبار فوق حشائش الافسنتين البرية. اعمال الحراثة مستمرة على الرابية. ويتراءى فوقها رجال يتحركون، وتزحف الثيران المربوطة بالمحاريث. وتحمل الرياح صرخات السائسين وصفير وقرقعة الاسواط.

سار الشابان صامتين. وحينما ارتفعت الشمس الى انسمت بلغا ارض الاستثمارة. ثمة عشرة بيوت استقرت في وهدة تنداح في السهب. وبالقرب من السد جلست امراة تطرق بالمضرب ملابس الغسيل وقد ثبتت طرف ردائها في الحزام. ومن الجانب الآخر هبطت الى الماء ابقار ملونة حتى بلغت المياه بطونها. ورفعت اذانها وتطلعت بنظرات غبية الى الشابين. وقد فزعت بقرة المقدمة ولوحت ذنبها بعنف وقفزت باتجاه السد، واندفع وراءها القطيع كله. وفرقع راع ذو لحية وخطها الشيب بسوطه فرقعه حادة، وهرع صبي وراء القطيع وبدا بعقبه الخشنين القذرين لكي يعيدها. وفي الجرن انطلق صوت فتاة عذب مع الطرقات المتقطعة لماكنة الدرس البخارية:

– غاربيشكا، دعنا نذهب ونرى! جاء بعض الحمر الينا!

واصل الشابان البحث عن رئيس الاستثمارة حتى المساء، وتناولا في محل الاقامة شماما حلو العبير، وقررا مشاهدة الارض في يوم غد. فرشت صاحبة البيت لهما في الرواق. اخلد جريجوري الى النوم فورا. اما بيتكا فتقلب في فراشه طويلا، وهو يصطاد البراغيث تحت معطف من فرو الضأن، ويفكر: اية قطعة ارض سيخصص لهما الرئيس المحتال.

في منتصف الليل رفع صاحب البيت مزلاج الباب بقرقعة، وقف على الشرفة وصار يتطلع الى السماء المرصعة بالنجوم، وتوجه الى الاسطبل لاطعام جياده. وانبعث صرير

من شادوف البئر، وصهل مهر في السهب صهيلا مديدا ومتحديا. انبعثت من الفناء اصوات خافتة. فاستيقظ بيتكا.

صر جريشكا باسنانه في النوم، وحينما تقلب الى الجانب الآخر قال بوضوح وبأسى:

– ان الموت يا رفيقي ليس نزهة ممتعة.

دخل الرئيس الى الرواق وهو يدق بجزمتيه.

– يا شباب، هل استيقظتم، اتسمعون؟

– ما الامر؟

– اللعنة ان كنت اعرف... ولكن جاء الآن من فيجينسكي احد رجالنا وقال ان ماخنوه استولى على هذه العزبة. يجب عليكم، يا شباب، الهرب!..

تمتم بيتكا وهو شبه نائم:

– وماذا بشأن الارض؟ لنحدد غدا قطعة الارض، وعندئذ سنذهب، والا فسيكون مجيئنا الى هنا عبثا.

رأى بيتكا في الحلم عند الفجر انه في اجتماع يعقد في لجنة المنطقة بينما كان احدهم يمشي بخطوات ثقيلة فوق السقف، فينبعج الصفيح وتنبعث منه تأوهات داوية: اوخ... باخ...

حينما استيقظ أدرك بانه تدور معركة بالمدفعية. وانقبض فؤاده منذرا. فجمعا حاجياتهما بسرعة، واخذوا معهم مقياسا من الخشب، و غادروا حدود الاستثمارة وهم يبعدون عنهم الكلاب النابحة بصورة جنونية.

سأل جريجوري:

– كم هي المسافة الى فيجينسكي؟

كان يمشي صامتا متأملا وهو يقطع وريقات زهرة شوكية ارجوانية قطعها على جانب الدرب.

* شخصية فوضوية ومن رجال الثورة المضادة التي قامت بها البرجوازية الصغيرة في اوكرانيا وقاوم السلطة السوفيتية في اعوام الحرب الاهلية ١٩١٨ – ١٩٢٠. **الناشر.**

فاجاب الرئيس:

– ربما حوالي ثلاثين فرسخا.

– سنلحق باجراء القياس!

استداروا حول حقول البطيخ وصعدوا الى تلة صغيرة. اسقط بيتكا حقيبة الذخيرة الصغيرة، وحينما التفت لأخذها اطلق آهة: كان ثمة فرسان ينحدرون من الطرف الآخر للاستثمارة. وكانت الريح ترفرف عند فارس المقدمة راية سوداء مثل جناح طير جريح.

– آه، يا ابن الـ...

– التي احبها الرب! – قال ذلك جريجوري، والتوت شفتاه واصطبغ وجهه بلون رمادي.

اسقط الرئيس المقياس، ودس يده في جيبه، دون ان يدري السبب، بحثا عن محفظة التبغ. اندفع بيتكا نازلا الى المسيل وتبعه جريجوري.

كانت قدما بيتكا لا تطيعانه فتتعثران بشكل غريب، و كانا يسيران ببطء كالسلحفاة، وقلباهما ينفطران، وجف بلعوماهما. وقاع المسيل رطب وتنبعث منه رائحة الوحل، وتغوص فيه الاقدام. خلع بيتكا جزمتيه، وهو راكض، واحكم قبضته على البندقية، بينما اصطبغ وجه جريجوري بالخضرة، والتوت شفتاه، وصار يتنفس بحشرجة. سقط ورمى بندقيته بعيدا.

– ارمها يا بيتكا، ان القوا القبض علينا سيقتلوننا.

عبس وجه بيتكا.

– هل جننت؟ خذها بسرعة، يا نذل!

سحب جريجوري البندقية من الحزام بتثاقل. وحدق احدهما في وجه الآخر للحظة من الزمن بنظرات ثقيلة وغريبة.

وصارا يهرولان مجددا. سقط جريجوري على ظهره عض بيتكا على نواجذه، وسحب جسد رفيقه النحيل من تحت ابطيه، وجرجره. تفرع المسيل، وقادهم احد الفروع، الذي تبعثرت فيه عظام الخيل واعشاب الافسنتين الرمادية،

الى حقل محروث. وكان هناك بجانب عربة رجل يشد المحراث الى حصانين.

– اعطنا الحصانين... من اجل الوصول الى الدسكرة! ان رجال ماخنو يطاردوننا.

امسك بيتكا بطوق الحصان بينما امسك الرجل بتلابيب بيتكا.

– لن اعطيها! ان الفرس حامل! لا تصلح للركوب!

امسك الرجل العلج بالبندقية من الماسورة بقوة، ومرقت فكرة في ذهن بيتكا: ان انتزع البندقية فسيقتلني بسبب الفرس.

انغرزت فيه عينان رهيبتان تنمان عن الحقد، والشعيرات الحمراء غير الحليقة على وجهه، والرجفة الخفيفة حول فمه. وانتزع البندقية وادار الرتاج بقعقعة.

– ابتعد!

انحنى الرجل لالتقاط البلطة الملقاة بالقرب من العربة، واحس بيتكا في بلعومه برغبة في التقيء في اية لحظة، وضرب قفاه بعقب البندقية. وأخذت ساقا الرجل في الجزمتين المتغضنتين ترتعشان مثل سيقان العنكبوت...

قطع جريجوري السيور واعتلى ظهر الفرس. بينما تراقص تحت ثقل بيتكا الحصان المخصي التافري الرمادي المبقع. انطلقا ينهبان الارض المحروثة باتجاه الدرب، وتبادلت السنابك الايقاعات بانتظام. التفت بيتكا الى الخلف فراى فوق المسيل سحابة من الغبار تتعالى مع الرياح. وانتشر المطاردون في اثرهما باقصى سرعة.

قطعا خمسة فراسخ، واقترب هؤلاء اكثر. وكان حصان المقدمة يلتهم الدرب مرفوع الرأس بقفزات، وعباءة الفارس تتطاير مع الريح.

بدا واضحا ان الفرس التي يعتليها جريجوري بدأت تقلل من سرعتها، وهي تشخر وتصهل صهيلا متقطعا قصيرا.

صرخ جريجوري عبر الريح الشديدة:

– الفرس ستضع مولودا الآن... انني انتهيت يا بيتكا!

في المنعطف عند الرابية ترجل وهوت الفرس الى الارض، بينما اندفع بيتكا في غمرة انفعاله مسافة قصيرة، لكنه عاد الى نفسه واستدار بسرعة.

صرخ جريجوري منتحبا:

– ماذا تفعل؟

لكن بيتكا ادار رتاج البندقية بخفة ومهارة وقفز من الحصان، وركع على ركبة واحدة واطلق النار باتجاه العباءة السوداء المتقدمة، واسقط الخرطوشة، ثم ابتسم وقال:

– ان الموت يا صديقي ليس نزهة ممتعة.

اطلق النار مرة اخرى. فانتصب الحصان على قائمتيه الخلفيتين، وانزلقت العباءة السوداء نحو الارض، وتعلقت الجزمة في الركاب واندفع الحصان الى حيث تحمله حوافره وسط سحابة من الغبار.

تابع بيتكا الحصان بعينين زائغتين، وجلس على الطريق بساقين منفرجتين. اما جريجوري فمسح بكفيه المعروقتين زهرة لنبات الزعتر الحلوة العبير، وارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة.

تحدث بيتكا بهدوء وبجد فقال:

– والآن انتهى كل شيء، – واستلقى ووجهه على الارض.

٣

في فناء مبنى اللجنة التنفيذية كان المسئولون يدفنون في الارض الاكياس الحاوية على الوثائق. وكان الرئيس ياكوف الرابع منهمكا في الشرفة باصلاح مدفع رشاش عتيق علاه الصدأ. كانوا منذ الصباح ينتظرون رجال الميليشيا الذين توجهوا في مهمة استطلاعية. وفي منتصف النهار دعا ياكوف اليه انطوشكا غراتشيوف عضو الكمسمول

لدى مروره به. وقال وقد ارتسمت على لاحظتيه ابتسامة بشوشة:

– خذ من الاسطبل خير الجياد، وانطلق الى منطقة كروتينكي. لربما تلقى رجال الاستطلاع، فابلغهم بان يعودوا الى الدسكرة. الديك بندقية؟

اجاب انطوشكا، وهو يمرق بقدمين حافيتين مبتعدا، صائحا:

– لدي بندقية، وعشرون طلقة.

– اذن، هيا بسرعة.

بعد مضي خمس دقائق اندفع انطوشكا من فناء اللجنة التنفيذية، رنا نحو الرئيس بعينين رماديتين كعيني فأر، ثم توارى وسط سحابة من الغبار.

رأى ياكوف من شرفة مبنى اللجنة التنفيذية رقبة الحصان المتأرجحة بانتظام، ورأس انطوشكا المجعد الشعر والحاسر. ووقف على الدرجات ثم دخل الى الرواق الذي تتدلى فيه خيوط العنكبوت الغبراء. كان قد اجتمع العاملون واعضاء الخلية الحزبية، والقى نظرة تعبة عليهم جميعا وقال:

– انطوشكا... جرى للاستطلاع... – وصمت هنيهة ثم اضاف وهو يدق باصابعه متأملا: – والشابان في الاستثمارة هل سيفلتان من ماخنو أم لا؟..

كانوا يذرعون الغرف الخاوية ذات الصدى لمبنى اللجنة التنفيذية على غير هدى، ويطالعون اهازيج واشعار ديميان بيدني المدونة على الملصقات الجدارية الكالحة اللون والتي طالعوها آلاف المرات. وبعد مرور ساعتين دلف الى الفناء بسرعة رجال الميليشيا الذين كانوا في دورية الاستطلاع. وبدون ان يربطوا جيادهم اندفعوا نحو الشرفة، وصرخ اولهم المعفر وجهه بالتراب:

– اين الرئيس؟

– ها هو آت. ماذا، هل رايتموهم، وهل عددهم كبير؟ أ بوسعنا الصمود في برج جرس الكنيسة؟..

لوح رجل الميليشيا يده بالسوط يائسا.

– لقد التقينا سريتهم الامامية... وافلتنا منهم بصعوبة. ان قوامهم يعادل عشرة آلاف رجل تقريبا. ويزحفون كالاعصار.

عبس الرئيس وسأل:

– ألم تلتقوا انطوشكا؟

– لم نعرف من هو... لكننا شاهدنا فارسا وراء اخدود كروتوي يتجه ناحية السهب. لابد وانه وقع أسيرا لدى ماخنو.

وقفوا جمهرة متجمعين يتهامسون، وسحب الرئيس لحيته الكثة، وقال بصوت دفين:

– من الواضح ان الشابين اللذين ذهبا لقياس الارض في عداد الضائعين... وانطوشكا ايضا... وعلينا اللجوء الى احراش القصب والاختباء فيها... وما بوسعنا عمل شيء امام ماخنو...

فتح وكيل التموين فمه واراد قول شيء ما، ولكن صاح احدهم عند الباب:

– هيا بسرعة يارفاق! ثمة فرسان على الرابية!

خوى المبنى من الناس في لحظة خاطفة. اصبحوا اثرا بعد عين. وتوقفت الحياة في الدسكرة. واغلقت المصاريع. وخيم السكون في الافنية، ولم تعكره سوى دجاجة خائفة توقوق مسعورة في الحشائش عند سياج مبنى اللجنة التنفيذية.

٤

انتفخ القميص على ظهر انطوشكا كالبالون المصطفق بفعل الريح.

كان يشعر بالألم لركوب الحصان بدون سرج. وكانت حركته ارتجاجية متهادية. شد العنان للحصان وعندما أخذ يصعد المنحدر الشديد في اخدود كروتوي شاهد فجأة على مسافة فرسخ واحد منه سرية خيالة تتبعها عربتا مدفع رشاش. وجال في خاطره: «انهم رجال ماخنو!»

كبح جماح الحصان، وقد اقشعر جلد ظهره رعبا، بينما اخذ حصانه، كما لو كان عن قصد، يمشي الهوينا. فما اراد الانتقال من الخبب الى الجري بسرعة شديدة.

رأوه، وتعالت صيحاتهم وضجيجهم، وأخذ الرصاص يلعلع في قرقعة. و عصفت الرياح بوجهه، واغرورقت عيناه بالدموع، ودوى صفير حاد في اذنيه. كان يخشى النظر الى ورائه، ولم يلتفت الا عندما مر باولى بيوت الدسكرة. ترجل من الحصان وهو يعدو، وجرى الى السياج منحنيا، وفكر: «ان عدوت عبر الساحة فسيروونني ويلحقون بي. يجب الذهاب الى حاجز الكنيسة والاختباء في برج الجرس».

امسك بيده اليسرى البندقية بقوة، بينما رفع باليمنى البوابة، وخشخش بقدميه الحافيتين فوق الارض المغطاة باوراق الشجر. الدرج الحلزوني للكنيسة، رائحة البخور، والعفونة وبراز الحمام.

توقف على المنصة العليا: واستلقى على بطنه، واصغى السمع. سكون. وصياح ديكة في الدسكرة.

وضع البندقية الى جانبه، ونزع حقيبة الذخيرة. ومسح عن جبهته العرق اللزج. كانت الافكار متضاربة في رأسه: «سيقتلونني في كل الاحوال. سأطلق عليهم النار. قال بيتكا كريمنيف مرة: ماخنو من مرتزقة البرجوازية..».

استعاد في ذهنه كيف كانوا يتدربون على الرماية وراء النهر باطلاق النار على العربة من مسافة مائة خطوة. وكان هو، انطوشكا، يصيب الهدف اكثر من جميع الشباب. احس بألم يدغدغ بلعومه، الا ان قلبه كف عن الخفقان الشديد.

دلف ستة فرسان الى الساحة بحذر. ترجلوا من جيادهم وربطوها عند سياج المدرسة.

ومرة اخرى صار قلب انطوشكا يخفق بشدة. وصك اسنانه من اجل التغلب على الارتعاش، وعبأ خزان بندقيته باصابع مرتجفة.

انطلق فارس آخر بسرعة من زقاق جانبي، وقام بدورات بحصانه المتراقص بجنون، وضربه بالسوط وأدبر بسرعة

ايضا من حيث أتى. وحدس انطوشكا من جلسة الراكب الانيقة على حصانه انه من القوزاق، وتابع بنظراته القميص العسكري الاخضر المتأرجح فوق كفل الحصان المبتعد، واطلق تنهدة.

سمع صرير عربات المدافع الرشاشة وسط دقات عدد لا يحصى من سنابك الخيل، وهزيم المدافع. وامتلأت الدسكرة بالمشاة وكأنها جثة مليئة بالدود. وغصت الشوارع بالعربات ذات المدافع الرشاشة وصناديق الذخيرة وعربات مدافع رشاشة تجرها ثلاثة خيول.

احس انطوشكا بقشعريرة خفيفة، ومس الزناد باصابع باردة غريبة، واصاخ السمع، وهدلت حمامة فوقه على عوارض الاجراس.

«سانتظر قليلا...»

كان رجال ماخنو المترجلون يطعمون الجياد. ورقدوا بين الخيول في جماعات يرتدون السراويل الملونة والانطقة المتألقة مثل الحصى الزاهية الالوان في النهر. وترددت في الساحة همهمة وقهقهة عالية. اما في الطريق فكانت تتدحرج العربات في صفين وتمضي وتمضي بلاتوقف...

عقد انطوشكا عزمه، فاختار كهدف له قبعة فرو رمادية لرجل مدفع رشاش. انطلقت رصاصة بصوت عال مصحوب بالصدى. فطاطا رجل المدفع الرشاشة رأسه بين ركبتيه. بينما صرعت رصاصة اخرى السائق، فاسقط العنان، وانزلق ببطء تحت العربة. وتوالى الرصاص... الواحدة تلو الاخرى.

حدث في مربط الخيل هرج ومرج. ورفست الجياد من كان يحاول ركوبها، وهي تصهل بصوت عال. وفي الطريق هوى جريحا الحصان الجانبي للعربة ذات الخيول الثلاثة، فجاهد وهو يسعى للتخلص من سيوره. وانقلبت قرب المدرسة عربة مدفع رشاش لدى انطلاقها، وغاصت في الارض فوهة المدفع الرشاش العاجز ذى الغطاء القماشي الابيض. وخيمت

فوق برج الجرس ضجة من صهيل الخيل والصراخ والاوامر والاطلاقات العشوائية...

انكفأت بطارية المدفعية عائدة مولدة صريرا وقعقعة. ووقع بصرهم على انطوشكا. وطبعت رصاصة ما قبلة شديدة على العارضة الخشبية فوق رأس انطوشكا.

خلت الساحة من الرجال. وكان بحار من رجال ماخنو يطلق نيران مدفعه الرشاش من شرفة المدرسة بمهارة، وصارت ترن الرصاصات بانين حينما ترتد عن الجرس العتيق المغطي بطبقة صدئة خضراء. وأصابت احداها يد انطوشكا بعد ارتدادها. فزحف ونهض ملتصقا بالعمود المبني من الطوب واطلق النار مرة اخرى... مد البحار ذراعيه واستدار وسقط على صدره فوق درجات الشرفة المتداعية المتهرئة.

برزت في المقبرة عند طرف الدسكرة الماسورة الطويلة لمدفع من عيار ثلاثة انجات، وفغرت اشداق فوهتها الفولاذية واطلقت قذيفة نحو الجدران العتيقة للكنيسة. فاهتزت اركان الدسكرة المنزوية خوفا لشدة الدوي.

اصابت القذيفة اسفل القبة، وانهالت على انطوشكا كومة متربة من الطوب واحدثت رنينا غاضبا.

٥

كان بيتكا راقدا على وجهه بلا حركة، الا انه كان يتحسس بقوة رائحة الزعتر الزكية والدقات الواضحة للحوافر المقتربة.

وتملكته رغبة شديدة صادرة من احشائه بالغثيان. وهز رأسه، وحينما بدأ بالنهوض رأى عند القميص الكتاني الخشن لجريجوري رأس حصان يسيل منه الزبد، وقفطان قوزاقي ازرق، وعينان ضيقتان لكالميكي ذي وجه اسمر لفحته الشمس.

وفي مكان يبعد نصف فرسخ كان الباقون قد احاطوا

بالحصان الذي يسحل وراءه الجثة الممزقة الملفوفة بعباءة سوداء متهرئة.

عندما اخذ جريجوري ينتحب بصوت متهدج كطفل، ويصرخ بصوت مختنق، غمر قلب بيتكا الاشفاق عليه. وحدق دون ان يرف له جفن الى الكالميكي الذي انتصب في ركابيه وانحنى ولوح بالحد البتار الفولاذي الابيض، فسقط جريجوري جالسا القرفصاء بحركة خرقاء ماسكا راسه المشطور بيديه، ثم سقط وهو يشخر، وساح والدم تدفق من فمه.

وانطبعت في ذاكرة بيتكا ساقا جريجوري، وهما ترفسان، والندبة الحمراء على وجنة الكالميكي المتقشرة. افقدته الوعي المسامير الحادة لحدوة الحصان التي انغرزت في صدره، والتف حول عنقه وهق من شعر ذنب الخيل، وحجبت كل شيء عن ناظريه شرارات من نار وضباب محترق...

* * *

ثاب بيتكا الى رشده، وان لألم فظيع في عينيه. لمس وجهه بيده فاحس، وقد تملكه الرعب، بسائل كثيف هلامي ينحدر من تحت حاجبه. وقد طلعت احدى عينيه من محجرها، وتورمت الاخرى وكانت تذرف الدموع. وميز بيتكا عبر الشق الصغير، وبجهد، خطوم الجياد ووجوه الاشخاص فوقه. انحنى احدهم بالقرب منه وقال:

– انهض يا ولد، والا فهذه نهايتك. سنذهب الى مقر المجموعة للاستجواب! هل ستنهض؟ الامر لدي سيان بوسعنا الاجهاز عليك بدون استجواب!»

جاهد بيتكا في الوقوف، وحوله بحر ملون من الرؤوس وهمهمة وصهيل الخيل. مشى مرافقه ذو قبعة فرو الضان امامه. وتبعه بيتكا متأرجحا.

كانت رقبته محزوزة بالوهق المصنوع من الشعر،

وتجمد الدم في الخدوش على وجهه، بينما كان جسمه كله يحترق ويتالم، كما لو ضرب مدة طويلة وبلا رحمة.

في الطريق الى المقر تفحص بيتكا ما حواليه: واينما ساروا كان يرى في الشوارع والساحة والازقة الضيقة الملتوية، البشر والجياد وعربات «التاتشانكا».

كان مقر المجموعة يقع في بيت القس. وتناهت الى السمع من الشارع عبر النوافذ المفتوحة نقرات متحشرجة على جيتار عتيقة، وقرقعة الاواني، وبدا ان زوجة القس مشغولة في المطبخ، فتضع الطعام في الاطباق وتسكب الشراب من اجل الضيوف الاعزاء.

جلس مرافق بيتكا على درجات الشرفة للتدخين وتمتم عابسا:

– قف عند الشرفة انهم في المقر مشغولون باعمالهم.

اتكا بيتكا على الحاجز الذي انبعث منه صرير. لقد تشقق نسيج فمه وجف لسانه، وقال بجهد وهو يحرك لسانه المحطم بصعوبة:

– ماء... اعطني ماء!

– سيقدمون لك الشراب في المقر!

خرج الى الشرفة بحار امتلأت صفحة وجهه ببثور الجدري. والتف حول قفطانه الازرق حزام قماشي احمر تتدلى منه الشرابات الى الركبتين، واعتمر على راسه قبعة بحرية بدون حافة ونقش عليها كتابة استحال لونها بمرور الزمن: «اسطول البحر الاسود». وحمل البحار في يده آلة ارمونيكا انيقة مزينة بشرائط. تطلع الى بيتكا من فوق الى تحت بعينين خضراوين صغيرتين تفيضان بالسام، وارتسمت على اساريره ابتسامة، واخذ يعزف بكسل:

يا شيوعي، يا غلام،
ما معنى زواجك؟
الأب ماخنو آت بملام،
فالى اين تولي وجهك؟

كان صوت البحار ينم عن ثمله، لكنه قوي النبرات. وكرر دون ان يرفع عينيه المغمضتين:

الأب ماخنو آت بملام،
فالى اين تولي وجهك؟

سحب المرافق آخر نفثة من سيجارته، وقال دون ان يدير رأسه؛

– هيه، انت، ايها النذل الاعور، اتبعني!

اعتلى بيتكا درجات الشرفة ودلف الى البيت. وقد علقت على الجدار عند المدخل راية سوداء منشورة. وكتب عليها بحروف بيضاء ملتوية: «مقر المجموعة الثانية»

– واعلاها بقليل كتب: «لتحيا اوكرانيا الحرة!»

كانت الآلة الكاتبة تطقطق في غرفة النوم ببيت القس. وتنساب اصوات من الباب المفتوح. طال انتظار بيتكا متململا في المدخل شبه المعتم. وكان الألم الممض في رأسه وجسده يقيد عقله وارادته. وفكر بيتكا: لقد نحر رجال ماخنو كل الشباب من اعضاء الخلية والمسئولين، ويغمز له هو ايضا شبح الموت داعيا اياه من غرفة النوم هذه، التي تفوح منها روائح البخور. بيد ان روحه لم يراودها الخوف لذلك. كان بيتكا يتنفس بانتظام ولا يلهث، وعيناه مغمضتان. ويرتعش فقط، بين حين وآخر، خده المخضبة بالدم.

وما برح يتردد من غرفة النوم صوت الاحاديث ودقة الآلة الكاتبة، والرنين الرقيق لاقداح الخمر.

مرقت بمحاذاة بيتكا زوجة القس بخطوات سريعة الى الرواق وتبعها احد رجال ماخنو يبرم شاربيه الابيضين وقد لفت جسمه الاحزمة ويرن في قدميه المهماز ان. وكانت زوجة القس تحمل مشربة، وعيناها اللوزيتان تلمعان.

– نبيذ عمره ستة اعوام، واحتفظت به لمناسبة سعيدة. آه، لو عرفت معنى العيش مع اولئك الهمج!

ملاحقات مستمرة. أمرت الخلية حتى بمصادرة آلة البيانو. فكر فحسب، يصادرون آلة البيانو، ملكنا الخاص. هه؟

رنت الى بيتكا وهي ماشية، بعينين متراقصتين بدلع، وتغضن جبينها باشمئزاز. وبعد ان عرفته همست الى رجل ماخنو قائلة:

– انه رئيس خلية الكمسمول... شيوعي متعصب... من الخير لو أريتموه...

ولم يسمع بيتكا نهاية العبارة بسبب حفيف ثوب.

بعد لحظة استدعوه.

– اذهب الى الغرفة في الركن! بسرعة، يا ابن الزنا!

كان يجلس وراء الطاولة الرجل ذو الشاربين الابيضين وقد اعتمر قبعة طويلة من فرو الضأن الفضي اللون.

– هل انت كمسمولي؟

– نعم.

– هل اطلقت النار على رجالنا؟

– نعم.

استغرق رجل ماخنو في التأمل وقضم طرف شاربه وتطلع فوق رأس بيتكا وسأل:

– ان اعدمناك الا يبعث هذا على الاسف؟

مسح بيتكا براحة يده الدم الذي سال من شفتيه، وقال بحزم:

– لن تعدمونا جميعا.

استدار رجل ماخنو بحركة عنيفة في مقعده وصاح:

– دولبيشيف، خذ الفتى وجهز السرية الثانية للنزهة معه!

اقتيد بيتكا الى الخارج. وعند الشرفة ربط المرافق يدي بيتكا بحبل. وحينما اوثق العقدة سأله:

– هل تؤلمك؟

– لتذهب الى جهنم! – قال بيتكا ذلك، وتقدم نحو الرواية مؤرجحا بحركة خرقاء يديه الموثقتين.

اغلق المرافق الباب وراءه وانتزع البندقية من كتفه.

– انتظر. هاهو قائد الفصيلة آت!

توقف بيتكا. شعر بالانزعاج لان ذقنه كان يحكه ولم يكن بوسعه فعل شيء لان يديه موثقتان.

دنا قائد الفصيلة القصير القامة الاعوج الساقين، وكانت تنبعث من جزمتيه الانجليزيتين رائحة القطران الكريهة وسأل المرافق:

– هل تقوده الي؟

– اليك... وأمروا بان تعجل به!

نظر قائد الفصيلة الى بيتكا بعينين ناعستين وقال:

– يا لهم من بشر غريبي الاطوار... انهم يجرجرون الامور مع الفتي، فيعذبونه ويعذبون انفسهم.

قطب حاجبيه الشقراوين، وتطلع نحو بيتكا مرة اخرى، ثم شتم وصرخ:

– اذهب الى السقيفة يا ابن العاهرة! اذهب وقف وبوزك الى الحائط!

في تلك اللحظة ظهر على الشرفة رجل الماخنو الابيض الشاربين من مبنى المقر، واتكأ عبر السياج ذي الزخارف المحفورة وقال:

– يا قائد الفصيلة، اتسمعني، لاتطلق النار على الفتي، قده الي!

صعد بيتكا درجات الشرفة ووقف واتكأ على الباب. اقترب من الابيض الشاربين وقال وهو يحاول التطلع في شق العين الضيق الدامي.

– انت يا فتي... علج. انني ارحمك، وسالحقك بقوات الزعيم ماخنو. هل ستخدمنا؟

– نعم، – قال بيتكا ذلك مغلقا عينيه.

– ألن تحاول الهرب؟

– ان وفرتم لي الطعام والكساء، فلن أهرب.

ضحك الرجل مغضنا انفه:

– حتى ان اردت الهروب فلن تستطيع ذلك. فسأكلف احدهم بمراقبتك. التفت الى المرافق وقال: – دولبيشيف،

خذ الفتى والحقه بمجموعتك، واعطه ما يحتاج من لباس. وسيلحق بك في عربة «التاتشانكا». وكن على حذر، ولاتسلمه بندقية الآن.

وربت على كتف بيتكا ثم انكفأ راجعا الى داخل البيت.

غادروا الدسكرة ظهيرة اليوم التالي. كان بيتكا يجلس الى جانب دولبيشيف ذي الشاربين الطويلين المتدليين، متأرجحا في مقعد السائق و كانت تراوده افكار ثقيلة تقبض النفس.

امتلأت الطريق الموحلة بحفر عميقة بعد هطول المطر. والعربة ما برحت تهتز وتتأرجح من جانب الى آخر. وتنأى عنهم اعمدة التلغراف وتمتد الطريق الى ما لا نهاية.

الضجيج يعم العزب والقرى. عيون الفلاحين التي تنظر شزرا، وعويل النساء الباكيات...

انفصلت المجموعة الثانية عن الجيش، وزحفت باتجاه ميليروفو. اما الجيش فتقدم نحو اليسار.

قبيل المساء اخرج دولبيشيف من تحت المقعد رغيف خبز متغضنا وقطع بطيخة وصار يمضغ وقال لبيتكا:

– كل يا آخي... انت على ديننا الآن!

تناول بيتكا بشراهة شريحة من البطيخ الناضج وقطعة خبز تنبعث منها رائحة الخيل.

قطع دولبيشيف بخنجره شريحة اخرى وقدمها الى بيتكا.

– لكن لا أمل لي فيك! اظن انك ستهرب هنا، لو اجهزنا عليك لكانت همومنا اقل بكثير.

– عبثا ان تظن ذلك، يا عم! لم اهرب منكم! فلربما تحاربون من اجل العدالة...

– هذا حق، من اجل العدالة. وانت ماذا اعتقدت؟

عدل بيتكا الضمادة على عينه وقال:

– ان كنتم تحاربون من اجل العدالة، فلم تؤذون الناس؟

– وكيف نؤذيهم؟

– كيف؟ بكل شيء! لقد مررنا بالعزبة فسلبت الفلاح

آخر ما تبقى لديه من شعير لاطعام جيادك. بينما لا يوجد لديه ما يطعم به اطفاله:

لف دولبيشيف سيجارة واولعها.

– هذا بأمر ماخنو.

– ماذا لو امر بشنق جميع الفلاحين؟

– ايه!.. هذا اذن ما تصبو اليه؟

التزم الصمت وقد اطلق سحابة كثيفة من دخان التبغ فوق رأسيهما.

حينما توقفوا للمبيت استدعى بيتكا اليه قائد سرية الخيالة، وهو البحار كيريوخا عازف الارمونيكا ذو بثور الجدري على وجهه، وصرخ ملوحا بمسدسه الماوزر:

– انت يا ابن الزنا... وابن... ان تفوهت بامور السياسة مرة اخرى – فسآمر برفع عريش العربة وتعليقك به، يا ابن الكلبة، رأسا على عقب. افهمت؟

فاجاب بيتكا:

– فهمت.

– اذن اغرب عن وجهي، وتذكر ايها الاعور الحقير، ان ارتكبت اية هفوة اخرى كهذه، فساقلع عينك الاخرى واشنقك!..

ادرك بيتكا بانه ينبغي اجراء التحريض بحذر اكبر. وسعى طوال يومين الى تقويم هفوته وسأل دولبيشيف عن ماخنو وعن الاصقاع التي مروا بها، الا ان هذا التزم الصمت المطبق بعناد، وكان يرمق بيتكا بنظرات تنم عن الريبة، مقطب الحاجبين، ويتمتم بكلمات قليلة من بين اسنانه. الا ان استعداد بيتكا لتنفيذ كافة رغبات دولبيشيف وابداء الاعجاب به لحد العبادة (حيث ان مسقط رأسه هو دولبيشيف بلدة جولاي – بوليه ذاتها، وعاش مع نيستير ماخنو جنبا الى جنب) جعلت هذا أرق، وصارت رغبته في محادثة بيتكا اكبر، وبعد يوم سلمه قربينة وثمانين طلقة.

وفي اليوم نفسه، قبيل حلول المساء، توقفت السرية

للمبيت بالقرب من بلدة كوشاري. ونزع دولبيشيف عدة الحصان وابعده عن العربة، وسلم الى بيتكا دلوا وقال:

– توجه يافتى الى تلك الصفصافة، وهناك بركة، واجلب ماءا لطهي عصيدة.

اعتلى بيتكا ظهر الحصان، ساعيا الى كبح جماح الفرحة في فؤاده، وانطلق بحصانه خببا الى البركة.

ووومضت في رأسه الفكرة: «سأصل الى البركة، ومن هناك الى الجبال، واهرب!»

بلغ البركة، واستدار حول السد الضيق نصف المهدم، ورمى الدلو بحذر، وضغط الحصان بكعبيه، واندفع نحو التلة. وصفرت فوق رأسه رصاصة، كما لو كانت بمثابة تحذير له، وتبعها صوت العيار الناري آتيا من معسكر؛ وحاول بيتكا بنظرة عابرة ان يقيس المسافة التى تفصله عن المعسكر – كانت اكثر من فرسخ بقليل.

وفكر: «ان خببت نحو التل فستصرعني رصاصة حتما». وادار الحصان آسفا، وقفل راجعا.

علق دولبيشيف على طرف عريش العربة الدلو الحاوي على البطاطس وتطلع الى بيتكا وقال:

– ان عاودت الدلع والشقاوة، فساقتلك. فتذكر هذا!

٧

استيقظ بيتكا حينما لاحت تباشير الفجر لدى سماعه ضجة اصوات، فرمى من العربة غطاء الفرس الذي كان يلتحف به ليلا. ثمة صرخات تتعالى بموجات في الزرقة الخفيفة لعتمة الخريف.

– يا عم ماهذا الضجيج؟

كان دولبيشيف يقف فوق المقعد بكامل قيافته وهو يلوح قبعته المنفوشة، احمر الوجه، ويصيح: «عاش الزعيم! اوراه!».

نهض بيتكا ورأى عربة تجرها اربعة جياد سوداء

تمضي في الطريق. وكان رغاء ابيض يتدحرج على اجنابها في كتل، والفرسان حواليها في كل مكان. اما ماخنو نفسه فكان يرقد في العربة، بعد اصابته بجراح قرب تشيرنيشيفسكايا، وقد امسك بعصا تحت ابطه وتلوت شفتاه ربما بسبب الالم او الابتسامة. ويتدلى من مؤخرة العربة بساط يبلغ الارض، ويتعالى الغبار من وراء العجلتين بسحب شعثاء متناثرة.

انطلقت العربة بمحاذاتهم، وبعد لحظة لم يبق سوى الغبار المتصاعد بعيدا في الطريق، وتلاشى هدير الاصوات مختفيا.

٨

انصرمت ثلاثة ايام. زحفت المجموعة الثانية نحو طريق السكك الحديدية. ولم تدخل في طريقها بمعركة واحدة. وكانت وحدات الحمر القليلة العدد تتراجع نحو الدون. وتعرف بيتكا على كافة افراد الفصيلة. كان ستون ونيف من مجموع مائة وخمسين رجلا من الهاربين هم من الجيش الاحمر، اما الباقون فهم آفاق وشريدون من هنا وهناك.

وحدث في احدى الليالي ان تجمعوا حول النار، وصاروا يرقصون رقصة «تريباك» بمصاحبة الحان الارمونيكا. والارض التى جمدها الصقيع الخفيف تقرقع بجفاف تحت وقع اقدامهم.

ومضى دولبيشيف يدور رافسا الارض بقدميه، ويصفق على عقبي جزمتيه المعفرتين بالتراب ويلهث بصعوبة كالحصان المنهك.

ثم فرشوا المعاطف وجاكتات الفرو ورقدوا حول النار. اولع رجل المدفع الرشاش مانجولو سيجارته من جمرة مشتعلة وقال:

– تدور اشاعات بيننا، ويقولون ان الزعيم سيقودنا عبر شاختي الى حدود رومانيا، وهناك سيترك الجيش ويتجه الى رومانيا لوحده.

تمتم دولبيشيف وبصوت مصحوب بالشخير:
– هذه اكاذيب!
فثارت ثائرة مانجولو واطلق الشتائم الى دولبيشيف، مشيرا اليه باصبعه صارخا:
– انظروا الى هذا المغفل. انه يصدق كل ما يقال له. وانت ياذيل الخنزير هل كنت تتصور انه سيجلسك في عربته؟
زعق دولبيشيف محتدا:
– انه لايستطيع ترك الجيش هكذا!..
فانفجر رجل المدفع الرشاش غاضبا فجاة وبعنف قائلا وقد شحب وجهه:
– احمق انت! وابن عاهرة قذرة! فالقيصر الروماني لن يسمح بادخال عشرين الف رجل الى اراضيه.
أيده الباقون:
– صحيح ما تقول!
– لقد اصبت كبد الحقيقة، مانجولو!
– ان ماخنو يحتاجنا ما دمنا نسفك الدماء من اجله ومن اجل عشيقاته اللواتي يصطحبهن معه...
تعالت الصيحات حول النار:
– ها! ها! ها! هيا، قل له المزيد من هذا الكلام يا صاح!
نهض دولبيشيف وحث الخطى نحو عربة قائد الفصيلة. وودعوه بالصفير الحاد والولولة ورمى أحدهم في إعقابه زند خشب مشتعلا.
– ذهب للوشاية... لا بأس... حينما سيبدأ القتال، سنطلق عليه رصاصة في القذال!
رأى بيتكا كيف توجه القائد كيريوخا نحو النار، فتوارى بعيدا عنها.
– ما القضية يا شباب؟ من منكم اشتاق لحبل المشنقة؟.. ومن يتوق الى التأرجح من عمود التلغراف؟ هيا، اخبروني!..

قام مانجولو وخطا نحو القائد وقابله وجها لوجه وقال، وهو يتنفس بصعوبة وبصورة متقطعة:
– هيا، كيريوخا، لاتوتر العصا كثيرا! فلها طرفان كما تعرف!.. امسك لسانك القذر...
– حسنا... هلم بنا الى المقر!
امسك كيريوخا بطرف كم رجل المدفع الرشاش، لكن تعالت حواليهما ضجة، ونهض الراقدون، وقام دفعة واحدة جدار من قبعات الفرو خلف ظهر القائد.
– دعه!
– سنبطش بك!
– سنقلبك مع المقر رأسا على عقب!
صاروا يدفعون كيريوخا شيئا فشيئا، ولطمه احدهم تحت اذنه بقوة. وتمزق قفطان القائد الازرق عند الياقة. وطقطقت ترابيس البنادق. انتزع القائد نفسه من قبضتهم وتعالت في الهواء صرخة تشبه الانين:
– النجدة! انها خيانة...!..
بينما سد رجل المدفع الرشاش فمه وهمس في اذنه:
– انصرف والزم الصمت... والا فستنال طلقة في الظهر! شق رجل المدفع الرشاش طريقه وسط الحشد ورافق القائد الى العربة الاولى ثم عاد الى النار.
مرة اخرى صدرت قهقهات هادرة وصرت الأرمونيكا، ودقت كعوب الراقصين، وبالقرب من العربة طرحوا دولبيشيف أرضا وسدوا فمه بحزام قماشي، وانهالوا عليه بالضرب باعقاب البنادق واقدامهم.

* * *

في اليوم التالي خب مراسل من مقر المجموعة. وسلم الى القائد ورقة وسخة مأخوذة من دفتر مذكرات. وعلى الورقة دونت اربع كلمات فقط بقلم كوبيه: «آمر الفصيلة باحتلال السوفخوز».

يتراءى السوفخوز من الرابية، فوراء حاجز حجري ملتو ثمة ابنية من الطوب والمدخنة العالية لمصنع الطوب.

ترك رجال الفصيلة العربات في الطريق العام ومضوا عبر الحقول نحو السوفخوز مباشرة بنسق قتالي.

كان القائد كيريوخا يمتطي فرسه في المقدمة وقد لف وجهه بمنديل صوفي نسائي. وكانت فرسه السوداء تتعثر تحته، وبين حين وآخر كان يتطلع خلفه الى الخيط الرفيع من الرجال السائرين وراءه بصمت.

مشى بيتكا السابع في الجناح الأيسر. وبدا له لأمر ما انه سيحدث اليوم، وقريبا، أمر كبير وهام. وغمره لهذا الهاجس شعور متزايد بالبهجة.

حينما بلغوا مسافة طلقة بندقية من السوفخوز ترجل القائد من الفرس، وصرخ:

– انبطاح!

تناثروا بالقرب من الوهدة وانبطحوا. وانهالوا على الحاجز الحجري بصليات من النار المتقطعة. وانطلق من سقف السوفخوز نار مدفع رشاش بشيء من التردد. وظهر رجال في الفناء. وكانت الرصاصات تصيب الارض وراء خط المهاجمين فتناثرت شظايا التراب والغبار.

هاجمت الفصيلة ثلاث مرات، وفي المرات الثلاث كانت تتراجع حتى الوهدة. وفي المرة الأخيرة حينما انكفأ بيتكا راجعا رأى دولبيشيف مستلقيا على ظهره بالقرب من جحر حيوان المرموط. فانحنى عليه وشاهد ثقبا في جبهته تحت قبعة الفرو. وادرك بيتكا بان جماعته بطشوا به اذ كان العيار الناري قد اطلق من موضع قريب وفوق العينين.

ومرة رابعة استل القائد كيريوخا سيفه القوقازي المقوس، وتطلع نحو الفصيلة بعينين مثل عيني بوم، وصرخ بصوت متحشرج:

– الى الامام، يا شباب، ورائي!

لكن لم ينهض احد من «الشباب» وصدرت دمدمة غير واضحة. وانتزع مانجولو رجل المدفع الرشاش ترباس بندقيته وصاح:

– هل تقودنا الى المسلخ؟ لن نذهب!

احس بيتكا بقشعريرة في اصابعه، وغطى جسده العرق اللزج، وصرخ بصوت متهدج:

– يا اخوان!.. لماذا تسفكون الدماء؟ ولأي شيء تخاطرون بحياتكم وتقتلون كادحين مثلكم؟

خيم الصمت على الرجال. وشعر بيتكا فورا كيف تبلل حزام البندقية في يده بالعرق.

– اخواني! لنلق السلاح! لكل واحد منكم عائلة عزيزة عليه، أم انكم لاتشفقون على الزوجات والاطفال؟.. هل فكرتم بما سيحدث لهم ان قتلتم؟

انتزع القائد مسدس الماوزر من قرابه، ولكن بيتكا سبقه في الحركة فاسند بندقيته على كتفه واطلق النار دون ان يهدف تقريبا باتجاه القفطان الازرق المفتوح عند الصدر. دار كيريوخا حول نفسه كدوامة، وهوى الى الارض، وهو يضغط على صدره بيده.

احاطوا بيتكا وعاجلوه بضربة عقب بندقية من الخلف، وطرحوه ارضا، لكن رجل المدفع الرشاش مانجولو نشر ذراعيه ثم انحنى عليه وصرخ بكل قواه:

– قف!.. لا تقتلوا الفتى... ليقل كلمته، وبعدها سنجهز عليه.

انهض بيتكا من الارض، وهزه.

– تحدث!

سبحت امام ناظري بيتكا الارض والسماء التي تتناثر فيها ندف السحب الشعثاء. فاستجمع كل قواه وقال:

– اقتلوني... فالموت واحد!

صرخ البعض من خلفه:

– بصوت أعلى... لا نسمع شيئا!

مسح بيتكا بكمه الدم النازف من صدغه وقال بصوت اعلى:

– فكروا بالامر جيدا. سيقودكم ماخنو حتى رومانيا ثم يتركم!.. انه يحتاجكم الآن فقط!.. فمن يريد ان يصبح عبدا رقيقا فليذهب معه، اما الباقون فسيقضي عليهم الجيش الاحمر. وان استسلمنا الآن، فلن يصيبنا مكروه...

تسود الوهدة رطوبة وسكون. وشعر الجميع بالاختناق كما لو ان الهواء لا يكفيهم.

حملت الريح السحب قريبا من الارض. سكون... سكون...

مسح رجل المدفع الرشاش جبهته بيده وسأل بصوت خافت:

– ما رأيكم يا شباب؟

طاطأت الرؤوس. ومن الجانب مزق قائد الفصيلة كيريوخا قميصه فوق صدره المصاب ورفس قدميه آخر مرة، وخمد وهو يرتعش ارتعاشة خفيفة.

صاح بيتكا:

– ليقف جميع الراغبين بالقاء السلاح في اليمين، ومن لايرغب – في اليسار!

لوح رجل المدفع الرشاش بيده يائسا وخطا نحو اليمين، واندفع وراءه حشد الرجال بخطى حثيثة. وبقي حوالي ثمانية اشخاص في مكانهم مترددين، ومن ثم التحقوا بالآخرين...

بعد خمس دقائق ساروا نحو السوفخوز بكتلة متراصة وفي مقدمتهم بيتكا ورجل المدفع الرشاش مانجولو. ورفع بيتكا فوق الحربة الصدئة قميصا داخليا ممزقا بدلا من الراية.

خرج من بوابة السوفخوز حشد من الرجال وبنادقهم مشرعة وهم يتطلعون بريبة.

على مسافة ثلثمائة خطوة توقفت الفصيلة. وتقدم بيتكا ومانجولو، تاركين بندقيتيهما، نحو السوفخوز، وتوجه

للقائهما اثنان من رجال السوفخوز. التقوا في منتصف الطريق. وتبادلوا الحديث، واحتضن بيتكا رجل سوفخوز ملتحيا. وتبادل مانجولو بعد مسح شاربيه القبلات مع الآخر في كلتا وجنتيه. وصدرت عن الطرفين همهمة ارتياح. وكوم رجال الفصيلة بنادقهم بقرقعة، ودخلوا افرادا وازواجا في بوابة السوفخوز المفتوحة على مصراعيها.

١٠

جاء من مركز المقاطعة مفوض لجنة الطوارئ*، ووجه الاسئلة الى بيتكا، وسجل افاداته في دفتر، وصافح كلتا يديه ثم انصرف.

انضم قسم من رجال ماخنو الى فوج الخيالة الاحمر الذي كان يطارد ماخنو، اما الباقون فتوجهوا الى مركز المقاطعة، الى القوميسارية العسكرية. بينما بقي بيتكا في السوفخوز.

انه لشيء جميل الاستلقاء في الفراش بعد كل ما ألم به من خطوب وارزاء. ويبدو كما لو بدأت تخف حدة الآلام المبرحة في مقلة عينه الخاوية. وكما لو انه لم يسحب احد بيتكا ابدا بالوهق ولم يضربه حتى أوشك على الموت. وزالت من ذاكرته احداث الماضي القريب، وما كان بوده استعادتها.

ولكن حينما يمر في النادي امام المرآة المكسورة ويرى وجهه الرمادي الشاحب، كانت المرارة تبعث الرعشة في شفتيه، ويبدأ بالتنفس بصعوبة.

في مساء يوم الثلاثاء دلف الى غرفة بيتكا سكرتير خلية الكمسمول في السوفخوز. جلس الى جانب بيتكا، وثنى ساقيه الطويليتين ذواتي جزمتي الصيد، وتنحنح:

* اي لجنة الطوارئ لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، والمضاربة (١٩١٨ – ١٩٢٢). **المترجم.**

– تعال الى النادي بعد ساعة لحضور الاجتماع العام.
– حسنا... سآتي.

جلس السكرتير هنيهة ثم انصرف. وبعد ساعة كان بيتكا في النادي. واستمع الى التقارير التي القاها رئيس السوفخوز والمهندس الزراعي ومدير مصنع الطوب والطبيب البيطري. وتراءت امام بيتكا بالارقام الواردة في التقارير الحياة القويمة المنتظمة كالساعة في السوفخوز.

المحضر. صياغة القرارات. الرغبات.

طلب الكلمة سكرتير الخلية لدى التطرق الى الشئون اليومية العادية.

– ايها الرفاق. يعيش معنا في السوفخوز الكمسمولي بيوتر كريمنيف. وتعرفون اننا مدينون له في الحفاظ على السوفخوز من الدمار. والخلية تقترح ارسال كريمنيف للعلاج في مركز المقاطعة، ومن ثم تعيينه في الوظيفة الشاغرة بمصنعنا. لنصوت، فمن يؤيد الاقتراح؟

تم التصويت بالاجماع. ولم يمتنع احد عن التصويت. لكن بيتكا نهض من المصطبة وسحت الدموع المدرارة الخابية اللون من المقلة الخالية لعينه، والتوت شفتاه. وقف واجال بصره في الحاضرين بعين نصف مغلقة، وقال وهو يجهد في تطويع لسانه الحرون:

– شكرا. لكنني لا استطيع البقاء عندكم... وكان سيسعدني العمل معكم. بيد ان القضية... القضية هي: ان الحياة تسير عندكم بانتظام... وهناك في الدسكرة التي جئت منها... هناك الحياة تتعثر... لقد دبرنا الامور باعظم العسر، وشكلنا خلية كمسمول، والآن لربما لم يبق الكثير منهم على قيد الحياة... فقد بطش بهم رجال ماخنو... وانا اريد العودة الى هناك ... هناك ثمة حاجة اكبر الى العاملين...

صمت الجميع. كانوا يوافقونه جميعا في الرأي. وران السكون على النادي.

خرج لتوديعه جميع اهل السوفخوز تقريبا. حينما ودعهم بيتكا، وصعد التلة، ادلهم الظلام، واكفهرت العتمة فوق الطريق، وعلى صف اعمدة التلغراف الخرساء...

تنداح بمحاذاة الدون طريق هيتمان في اعلى الجبال العبوسة العريضة الجبهة. وكان بيتكا يخطو صامتا.

وترن خطواته في الظلام الرطب وفي السكون الخاوي لليل الهاجع. وتخشخش تحت قدميه الارض المغطاة بالصقيع. وغطت الحفر التي تركتها حوافر الخيل طبقة رقيقة من الجليد. وكان الجليد يرن برقة وهشاشة حينما يتحطم ويطرطش الماء المستبرد.

طلع ببطء من وراء الرابية التي تحرس الطريق قمر اصطبغ بالحمرة من الانهاك. وتناثرت في السهب ظلال غير منتظمة ومائلة ومتحركة. وغمر الطريق لون فضي لامع، وانعكست فوق الجليد زرقة السماء.

كان بيتكا يمضي بصمت، وهو يبتلع الهواء بشراهة بفم مفتوح. وكانت تنبعث من نبات الافسنتين الذابل على جانب الطريق رائحة الحرارة والعرق المر.

يتعرج الطريق ممتدا الى ما لانهاية، لكن بيتكا يخطو بعزم نحو لقاء الليل الزاحف، وتومض له نجمة خماسية من ستارة السماء الزرقاء محيية اياه بضوء اخضر شاحب.

١٩٢٥

ابن حرام

١

حلم ميشكا بان جده قطع في البستان عودا كبيرا من غصن شجرة الكرز، وتوجه نحوه ملوحا به، قائلا بحزم:

– هيا، تعال الى هنا ميخايلو فوميتش، ساداعبك في تلك الاماكن التي تنمو منها الساقان!..

فسأل ميشكا:

– ولاي سبب، يا جدو!

– لانك سرقت من القن جميع بيض الدجاجة ذات القنزعة، لكي تعطيها ثمنا لركوب الأرجوحة!..

صاح ميشكا خائفا:

– جدو، في هذا العام لم اركب الارجوحة!

بيد ان الجد مسح لحيته بوقار، وفجأة دق الارض بقدمه وصرخ:

– انطرح، يا شقي، وانزع سروالك!

فصرخ ميشكا في نومه واستيقظ. كان قلبه ينبض كما لو انه تذوق فعلا ضربات العصا. فتح عينا واحدة قليلا فرأى النور يغمر البيت. وكان ضوء الفجر يسود وراء النافذة. رفع ميشكا رأسه، فسمع أصواتا في مدخل البيت: كانت امه تتحدث بصوت عال وتتمتم بشيء ما وتكاد تختنق ضحكا. بينما كان الجد يسعل، وصوت غريب يتمتم: «بو – بو – بو».

مسح ميشكا عينيه، ورأى كيف فتح الباب ثم اصطفق و دلف الجد الى داخل الغرفة مسرعا وقافزا، والنظارة على عينيه تتراقص صاعدة هابطة. بادىء ذي بدء فكر ميشكا ان القس جاء بصحبة المنشدين في الكنيسة (ففي عيد الفصح انشغل الجد هكذا لدى مجيئهم)، ولكن اقتحم الغرفة في اعقاب الجد جندي غريب ضخم الجثة، يرتدي معطفا أسود وقبعة بشريطين ولكن بدون حافة. بينما تعلقت امه برقبته مولولة.

وفي وسط الغرفة أبعد الرجل الغريب الأم عن رقبته وصرخ بصوت جهوري:

– اين نجلي؟

فزع ميشكا واختبأ تحت اللحاف. فصاحت امه:

– مينوشكا... صغيري، لم تنام؟ لقد عاد ابوك من الخدمة العسكرية.

لم يكد يرف جفن ميشكا حتى اختطفه الجندي ورماه تحت السقف ثم احتضنه الى صدره، وانهمك يطبع بشاربيه الاشقرين قبلات عنيفة شائكة على شفتيه وخديه وعينيه. وكان شارباه مبللين بملوحة. اراد ميشكا التخلص من قبضته ولكنه لم يفلح.

صاح الاب:

– انظروا... اي بلشفي شب في بيتي!.. عما قريب سيغدو اطول قامة من ابيه؟!.. هوه... هوه... هوه.!! واخذ يلاعب ميشكا. فتارة يضعه فوق راحته ويديره، وتارة يرمي به الى السقف حتى العارضة.

صبر ميشكا وصبر، ثم عبس مقطبا حاجبيه مثل جده، ولاحت على وجهه الصرامة وامسك بشاربي ابيه بقوة.

– دعني... بابا...

– لن اخلي سبيلك...

– دعني، انا اصبحت كبيرا، وانت تداريني كالطفل!..

اجلس الاب ميشكا في حضنه وسأله مبتسما:

– كم عمرك يا «مسدس»؟

دمدم ميشكا ناظرا اليه ومقطبا حاجبيه:
– دخلت العام الثامن.
– اتذكر يا بني كيف صنعت لك زوارق في العام قبل الفائت؟ أو تذكر كيف انزلناها في البركة؟
صاح ميشكا، وتشبث بوجل بعنق ابيه:
– اذكر!..
بعد هذا غمرهم المرح والفرح: اجلس الأب ميشكا فوق عنقه، ممسكا بساقيه، وذارعا ارجاء الغرفة في دورة تلو الدورة. ثم صهل كالحصان صهيلا عنيفا، حتى توقفت انفاس ميشكا جذلا. بينما كانت الام تسحب ميشكا من كمه وتصرخ:
– اذهب الى الفناء والعب!.. اذهب، اقول لك ايها الشقي الصغير! – وناشدت الاب قائلة: – دعه، فوما اكيميتش، دعه... رجاء! انه لن يدعني اكحل عيني بمرآك يا صقري الحبيب! لم نلتق طيلة عامين، بينما انت تشغل نفسك به!
اجلس الاب ميشكا على الارض وقال:
– هيا... اذهب والعب مع الاولاد، وحينما تعود ساعطيك هدايا.
اغلق ميشكا الباب وراءه، وفي البداية فكر في الاصغاء الى الاحاديث في البيت، ولكنه تذكر عندئذ بان احداً من الاولاد لايعرف بعد بان اباه قد رجع. واطلق ساقيه للريح عبر الفناء والبقجة، وداس على جورات البطاطس، متوجها الى البركة.
استحم ميشكا في الماء الراكد العفن، وتيمم بالرمل، وغاص آخر مرة، ثم لبس سرواله وهو يقفز على ساق واحدة. وكان قد عزم نهائيا على الذهاب الى البيت، ولكن دنا منه عندئذ فيتكا، ابن القس.
– لاتذهب، ميشكا. دعنا نسبح ثم نذهب الى بيتنا للعب. سمحت ماما لك بالمجيء الينا.

سحب ميشكا بيده اليسرى السروال المنزلق، وعدل العلاقة على كتفه، وقال بلا رغبة:
– انني لا اريد ان العب معك. ان رائحة اذنيك نتنة جدا!..
ضيق فيتكا عينه اليسرى بخبث، وقال وهو ينزع من كتفيه النحيفتين القميص المحيوك:
– انها بسبب مرض الحكة. اما انت فمن الرعاع، وولدت امك في الشارع.
– هل رأيت ذلك؟
– سمعت طباختنا تحدث امي عن ذلك.
اخذ ميشكا يحفر الرمل بقدمه، وتطلع الى فيتكا من قمة الرأس وحتى كعبي القدمين.
– امك تكذب! اما ابي فقد قاتل في الحرب. وابوك طفيلي يلتهم طعام غيره!
– وقح! – صاح بهذا ابن القس وهو يلوي شفتيه.
تناول ميشكا حصوة كبيرة صقلتها المياه. حبس ابن القس دموعه، وارتسمت على اساريره ابتسامة وديعة جدا.
– لا تتشاجر، ميشكا... ولا تغضب... اتريد ساعطيك خنجري الذي صنعته من الحديد؟
ومضت عينا ميشكا ببريق البهجة، والقى الحصوة جانبا، ولكنه حينما تذكر اباه قال باعتزاز:
– لقد جلب لي ابي خنجرا افضل مما لديك.
فقال فيتكا بريبة وبلهجة ممطوطة:
– الا تكذب؟
– انت نفسك تكذب، ان قلت جلب فمعنى ذلك انه فعل!.. كما وجلب بندقية حقيقية...
ضحك فيتكا بحسد قائلا:
– قل، ما اغناك الآن!
– ولديه ايضا قبعة، وفيها شرابات، ونقشت عليها كلمات مذهبة كما في كتبك.

فكر فيتكا مليا باي شيء سيثير دهشة ميشكا. وقطب جبينه ومسد بطنه الشاحب اللون.

– ان ابي سيصبح قريبا بدرجة اسقف. اما ابوك فكان راعي ماشية. مفهوم؟

مل ميشكا من الوقوف، فاستدار وتوجه نحو البقجة. وهتف ابن القسيس وراءه قائلا:

– ميشا... ميشا... لدي ما اقوله لك.

– قل...

– اقترب مني!..

دنا ميشكا وخزره بعينين ضيقتين بريبة.

– هيا... قل...

اخذ ابن القس يرقص فوق الرمل بساقين نحيلتين معوجتين، وصرخ بشماتة مبتسما:

– ابوك... شيوعي. وحالما تموت وتحلق روحك في السماء سيقول الرب: «لتذهب الى جهنم لأن اباك كان شيوعيا!..» ويأخذك الابالسة هناك ليحمصوك على مقلاة.

– وانت... هل تتصور انهم لن يحمصوك؟

– ان ابي قسيس!.. وانت جاهل احمق غير متعلم ولا تفقه شيئا...

انتاب ميشكا الفزع، التفت، وهرول مسرعا الى البيت.

توقف عند سياج البقجة، وصرخ مهددا ابن القسيس بقبضته:

– سأسأل جدي، وان كنت تكذب فاحذرك من المرور بالقرب من بيتنا...

وتسلق السياج، وركض نحو البيت. وامام ناظريه مقلاة، وفوقها يحمصونه هو ميشكا... انها ساخنة لايمكن الجلوس فوقها، وحوله تبقبق القشطة... سرت القشعريرة على ظهره... من الخير الاسراع الى الجد والاستفسار منه...

ولسوء الحظ انحصرت الخنزيرة في البوابة. وكان رأسها من ذلك الجانب بينما جسمها من هذا الجانب.

وقوائمها ترسخ في الارض، وتلوى ذنبها وتزعق بصوت عال. صار ميشكا يساعدها. وعندما حاول فتح البوابة بدأت الخنزيرة باطلاق شخير. فاعتلى ظهرها وجاهدت الخنزيرة بكل قواها، فانتزعت البوابة من مصراعيها وانطلقت عبر الفناء باقصى سرعة. وكان ميشكا يلكزها بكعبيه في الجنبين. ويندفع بشكل جعل خصلات شعر رأسه تتطاير مع الريح الى الخلف. وحينما بلغ الجرن قفز الى الارض، فرأى الجد واقفا عند الشرفة داعيا اياه باشارة من اصبعه.

– تعال الى هنا، يا صغيري!

لم يخمن ميشكا سبب استدعاء الجد له. وآنئذ تذكر مرة اخرى مقلاة جهنم، وخب مسرعا نحو الجد.

– جدو... جدو... هل توجد ابالسة في السماء؟

– الآن سأذيقك طعم الابالسة... سابصق عليك في عدد من المواضع... واضربك بعصاي! آه، يالك من ملعون صغير. لم امتطيت ظهر الخنزيرة؟

امسك الجد بجديلة شعر ميشكا، وصاح على الام من البيت:

– تعالي... ومتعي النظر بصبيك الذكي.

خرجت الام.

– ماذا فعل؟

– ماذا... انه امتطى ظهر الخنزيرة منطلقا بها في ارجاء الفناء، والغبار يتصاعد مع الريح.

تأوهت الام قائلة:

– هل ركب الخنزيرة الحامل؟

وقبل ان يفتح ميشكا فمه لتبرير فعلته نزع الجد حزامه وامسك بيده اليسرى السروال لكي لايسقط، ووضع باليمنى رأس ميشكا ما بين ركبتيه. وجلده وهو يردد بكل حزم:

– لا تركب الخنزيرة... لاتركب...

اراد ميشكا ان يصرخ، بينما الجد مابرح يردد:

معنى هذا، يا ابن الكلبة، لاتشفق على ابيك. فهو تعب من السفر، واخلد للنوم، بينما تثير الصراخ.

فاضطر الى التزام الصمت. وحاول ان يرفس جده، لكنه لم يبلغه بقدميه. وامسكت الام ميشكا ودفعته الى البيت:

– اجلس هنا... يا ابن مائة ابليس! ان بلغتك يداي، فلن تكون رقيقة كيدي جدك.

جلس الجد على المصطبة في المطبخ. وبين حين وآخر كان يتطلع الى ظهر ميشكا.

التفت ميشكا نحو الجد، ومسح بقبضته آخر دمعة، وقال وهو يستند بظهره على الباب:

– جدو... جدو... انتظر وسترى...

– ماذا يا سفيه، هل تهدد جدك؟

شاهد ميشكا كيف صار جده ينزع حزامه مجددا، ففتح الباب قليلا مسبقا.

عاد الجد يساله:

– اذن، انت تهددني؟

بينما اختفى ميشكا وراء الباب تماما. وصار يبص عبر الشق متربصا كل حركة تبدر عن الجد. ثم قال:

– مهلا... مهلا... يا جدو... حينما ستسقط اسنانك، لن الوك اللقمات من اجلك. مهما رجوتني آنذاك!

خرج الجد الى الشرفة. ورأى كيف يغوص راس ميشكا وسط اعشاب القنب في البقجة ويومض سرواله الازرق. وواصل تهديده طويلا بعصاه. بينما كان يخفي نفسه ابتسامة في لحيته.

* * *

كان ابوه يدعوه باسم «مينكا» وامه باسم «مينوشكا» أما جده ففي لحظة التدليل يدعوه باسم «الملعون» اما في الاوقات الاخرى حينما تنتصب الشعيرات الرمادية الكثة

لحاجبي جده ويغدو عبوسا فكان يقول: «هيه... ميخايلو فوميتش... تعال لانتزع اذنيك...»

اما الآخرون جميعا، الجارات النمامات، والصبيان، واهل الدسكرة قاطبة، فيدعونه بـ «ميشكا» و «ابن الحرام».

لقد انجبته امه وهي غير متزوجة. وبالرغم من انها عقدت قرانها بعد شهر من ذلك مع الراعي فوما، الذي كان والد الطفل، فان تسمية «ابن الحرام» بقيت عالقة كالقرحة بميشكا طوال حياته.

يبدو ميشكا صبيا نحيفا. كان شعره في الربيع مثل وريقات زهرة عباد الشمس، وفي حزيران احرقته الشمس بحرارتها وجعلته اشعث ذا خصلات شقراء. ووجنتاه مغطاة بالنمش مثل بيض العصافير. وبسبب التعرض للشمس والسباحة في البركة باستمرار تشقق جلد انفه وغمرته القشور. واجمل ما في ميشكا الاعوج الساقين هو عيناه. اذ كانتا تتطلعان من الشقين الضيقين زرقاوين وماكرتين مثل حبيبات الجليد غير الذائبة في النهر.

وقد أحبه ابوه لعينيه وكذلك لاندفاعه وخفة حركته. وجلب من الخدمة العسكرية هدية الى ابنه: كعكة بالعسل تصلبت لقدمها، وزوج مستعمل من الجزم. ولفت الام الجزمتين بمنشفة واخفتها في صندوق اما الكعكة فقد فتتها ميشكا في المساء نفسه بواسطة المطرقة والتهمها حتى آخرفتة.

في اليوم التالي استيقظ ميشكا مع شروق الشمس. واخذ بكفه حفنة ماء دافيء من قدر حديدي، ومسح اوساخ يوم امس من على وجهه، وهرول الى الفناء لكي يجف.

كانت امه منهمكة بالعمل عند البقرة. اما الجد فقد جلس على منصة عند جدار البيت، واستدعى ميشكا.

– ازحف تحت العنبر، فالدجاجة قوقأت هناك ولابد وانها وضعت بيضة.

ان ميشكا مستعد دوما لخدمة الجد. وزحف بسرعة على

اربع تحت العنبر وخرج من الجانب الآخر والسلام! وهرب قافزا في البقجة، مسرعا الى البركة، وهو يلتفت ليعرف فيما اذا كان الجد يراه. وحينما بلغ السياج كانت ساقاه قد قرصهما نبات القراص. اما الجد فكان ينتظر ويتنحنح. ولما طال انتظاره زحف تحت العنبر بنفسه. وتلطخ ببراز الدجاج، واصابته غشاوة بسبب العتمة واصطدم برأسه بصورة مؤلمة على عوارض الارضية حتى بلغ الطرف الآخر.

– يالك من بليد يا ميشكا حقا، تبحث وتبحث فلا تجد بيضة صغيرة! وهل يمكن ان تضع الدجاجة بيضا هنا؟ لابد وان البيضة موجودة هنا، عند الحجر. اين تزحف يا شيطان؟

لم يتلق الجد ردا سوى السكون. فخرج من تحت العنبر وهو ينفض عن سرواله ما علق به من اوساخ، وتطلع طويلا بعينين ضيقتين نحو البركة. ورأى ميشكا، ولوح بيده في يأس...

احاط الاولاد بميشكا قرب البركة وهم يتساءلون:

– هل كان ابوك في الحرب؟

– نعم.

– وماذا فعل هناك؟

– معروف ماذا فعل، كان يقاتل!..

– انت تكذب... كان هناك يقتل القمل ويعرق العظام في المطبخ...

وقهقه الاولاد، وصاروا يشيرون باصابعهم نحو ميشكا، ويتقافزون حوله. ترقرقت الدموع من عيني ميشكا قهرا. كما ان فيتكا ابن القسيس اساء له القول.

ساله:

– ابوك شيوعي؟

– لا اعرف...

– اما انا، فاعرف انه شيوعي. وقال بابا صباح اليوم

انه باع روحه الى الشياطين. وقال ايضا انه عما قريب سيشنق كافة الشيوعيين!..

التزم الاولاد الصمت، بينما انقبض فؤاد ميشكا. سيشنقون اباه. لاي سبب؟ وزم شفتيه بقوة وقال:

– توجد لدى بابا بندقية كبيرة، وسيقتل جميع البرجوازيين.

ومد فيتكا ساقه الى الامام وقال بلهجة الانتصار:

– يداه قصيرتان. وبابا لن يمنحه بركته المقدسة، وبدون مباركة لا يستطيع عمل اي شيء.

دفع بروشكا ابن صاحب المتجر ميشكا في صدره وصرخ وقد توسع منخاراه:

– لا تتبجح كثيرا بابيك!.. فقد سلب من ابي السلع حينما قامت الثورة. وقال ابي: ان عادت السلطة القديمة فسيكون الراعي فوما اول من ابطش به.

دقت ناتاشكا شقيقة بروشكا الارض بقدمها:

– اضربوه، يا اولاد، ماذا تنتظرون؟

– اضربوا ابن الشيوعي!..

– ابن حرام!...

– اعطه علقة يا بروشكا.

لوح بروشكا بعصا وضرب ميشكا على كتفه، ووضع فيتكا ابن القس ساقه وراءه، وهوى ميشكا بظهره على الرمل بعنف.

تعالى صراخ الاولاد وهجموا عليه. وزعقت ناتاشكا بصوت رفيع، وخدشت رقبة ميشكا باظافرها. ووجه احدهم بقدمه ضربة مؤلمة الى بطنه.

دفع ميشكا بروشكا عنه وجرى بحركة ملتوية فوق الرمل، مثل ارنب يهرب من مطارديه، انطلق يعدو الى البيت. لاحقوه بالصفير، ورجموه بالحجارة، لكنهم لم يركضوا وراءه.

ولم يسترجع ميشكا انفاسه الا عندما دس رأسه وغاص في حرش من اغصان القنب الشائكة الفتية. وتقرفص

على الارض الرطبة ذات الرائحة النفاذة. ومسح الدم عن رقبته المخدشة وانتحب. ومن فوقه كانت الشمس تسعى الى ان ترمق عيني ميشكا عبر اوراق نبات القنب، وجففت الدموع على خديه. ولثمت، مثل ماما، قمة رأسه الاشقر ذي الشعيرات المنتصبة.

جلس طويلا حتى جفت الدموع في عينيه، ثم نهض ودلف بهدوء الى الفناء.

كان ابوه مشغولا تحت السقيفة بدهن عجلات العربة بالقطران. وقد هبطت قبعته فوق قذاله، وتدلى الشريطين، اما القميص الازرق فذو خطوط بيضاء على الصدر. اقترب ميشكا من الجانب ووقف عند العربة. صمت طويلا. واستجمع شجاعته وسحب يد ابيه وسأل بهمس:

– بابا... ماذا فعلت في الحرب؟

ارتسمت على شاربي ابيه الشقراوين ابتسامة وقال:

– قاتلت يا بني.

– الاولاد... يقولون انك كنت تقتل القمل فقط!..

وانحبست العبرات مجددا في بلعوم ميشكا. وضحك الاب وحمل ميشكا بذراعيه.

– انهم يكذبون يا صغيري. كنت ابحر على سفينة. سفينة كبيرة تمخر عباب البحر، وبعد ذلك توجهت لأقاتل.

– من قاتلت؟

– السادة، يا حبيبي. انت مازلت صغيرا، لذا وجب علي الذهاب الى الحرب بدلا منك. وثمة اغنية عن ذلك.

ابتسم الاب. وتطلع نحو ميشكا وهو يدق بقدمه وانشد:

اوه ميخائيلا... ميخائيل، ميخايلاتكو...
لاتذهب الى الحرب، ليذهب بابا،
بابا عجوز، ويكفي ما عاش،
وانت شاب، ولم تتزوج بعد...

نسي ميشكا اساءة الاولاد اليه، وضحك، لأن شاربي ابيه قد انفرجتا فوق الشفتين مثل عيدان الحشيش التي تصنع منها امه المكانس. بينما كانت الشفتان تحت الشاربين تتلاطمان بصورة مضحكة وفمه مفتوح كثغرة سوداء واسعة.

– لا تشاغلني الآن يا مينكا. فسأعمل في اصلاح العربة، وفي المساء حينما ترقد للنوم سأروي لك كل شيء عن الحرب!

* * *

استطال النهار مثل درب طويل مقفر في السهب. وغابت الشمس. وعبر قطيع الخيل الدسكرة. وهدأ الغبار. ورنت من السماء الداجية بحياء أول نجمة.

كان ميشا يغالب صبره، بينما انشغلت الام، كما لو كان هذا عمدا، مع البقرة فترة طويلة. وعملت ردحا طويلا من الزمن في تصفية الحليب. وولجت الى القبو، وانشغلت هناك ساعة باكملها. اما ميشا فكان يلتف حولها كاللبلاب.

– متى سنتناول العشاء؟

– جوعان؟ ستلحق يا قليل الصبر!

بيد ان ميشكا لم يتزحزح خطوة عنها. وصار يلاحقها في كل مكان: فان نزلت الى القبو، او صعدت ثانية الى المطبخ، كان يدب في اثرها، متعلقا بها مثل دودة العلق، متشبثا بطرف ردائها.

– ما... ما! العشاء قريب؟

– دعني، ايتها الدملة اللصيقة! ان كنت جائعا فخذ قطعة خبز وكل.

لكن ميشكا لا يرعوي، وحتى اللطمة التي تلقاها على قفاه من امه، لم تجد نفعا.

وعندما حان موعد العشاء التهم حساءه بسرعة واندفع الى الغرفة الاخرى. ورمى سرواله بعيدا وراء الصندوق

وغاص مهرولا في الفراش تحت لحاف الام الذي صنع من خرق ملونة. ورقد ساكنا منتظرا مجيء ابيه ليحدثه عن الحرب.

ركع الجد امام الايقونات، وهو يردد الصلوات بصوت خافت، وكان يسمع صوت ارتطام جبهته بالارضية لدى انحنائه عليها. رفع ميشكا راسه. فاذا بالجد يحني ظهره بالم ويستند باصابع يده اليسرى على لوحات الارضية حتى ترتطم جبهته بها. اما ميشا فيدق في هذه اللحظة الجدار بمرفقه.

ثم يعاود الجد ترديد الصلوات بهمس، ثم يحني راسه مرتطما بالارضية – بم! بينما ميشكا يضرب الجدار بمرفقه مرة اخرى – بام! فغضب الجد. والتفت نحو ميشكا وقال:

– سأريك يا لعين، المغفرة يا رب! اضرب الجدار مرة ثانية وسأريك!

وكادت تبدأ مشاجرة لو لم يدخل الغرفة الاب آنذاك.

سأل الاب:

– لماذا رقدت هنا يا مينكا؟

– انني انام مع ماما دائما.

جلس الاب على طرف الفراش واخذ يبرم شاربين صامتا. وبعد التأمل برهة قال:

– لقد هيأت لك الفراش في تلك الغرفة مع الجد.

– انني لن انام مع جدي.

– لماذا؟

– بسبب شاربيه – اذ تنبعث منهما رائحة دخان قوية.

برم الاب شاربيه مرة أخرى، وتنهد:

– لا يا بني. خير لك ان تنام مع جدك.

اخفى ميشكا راسه تحت اللحاف، ونظر بعين واحدة من تحته وقال باستياء:

– يوم امس نمت يا بابا في مكاني، واليوم ايضا... نم انت مع جدي.

جلس في الفراش واحتضن بيديه رأس ابيه وهمس له:

– انت نم مع جدي، لأن امي لن تستطيع النوم معك اذ تفوح منك ايضا رائحة الدخان.

– حسنا... سأنام مع الجد. ولكنني لن احدثك عن الحرب.

ثم نهض الاب وتوجه نحو المطبخ.

– بابا...

– ماذا؟

وقال ميشكا بحسرة ونهض:

– نم هنا، ان اردت. هل ستحدثني عن الحرب؟

– سأحدثك.

رقد الجد بالقرب من الجدار، اما ميشكا فقد وضعه عند الطرف. وبعد فترة قصيرة جاء الأب وقرب المصطبة من الفراش، وجلس ودخن سيجارة كريهة الرائحة.

– هذا ما حدث... اتذكر انه كان يوجد وراء جرننا حقل يمتلكه صاحب المتجر؟..

تذكر ميشكا كيف كان يلعب سابقا وسط الحنطة العالية الحلوة العبير. وكان يتسلق السياج الحجري للجرن ويلج الحقل. والحنطة بعلو قامته، والسنابل الثقيلة السوداء الشعيرات تدغدغ وجهه. وتفوح رائحة التراب وازهار الاقحوان وريح السهب. وكانت امه تقول له احيانا:

– لا تذهب مينوشكا بعيدا في الحقل، فقد تضل الطريق...

صمت الاب وقال ممسدا رأس ميشكا:

– اتذكر كيف ذهبت معي الى ماوراء «الرابية الرملية»؟ كان يوجد هناك حقلنا حيث تنمو الحنطة...

وعادت الى ذاكرة ميشكا مرة اخرى: يمتد حقل الحنطة ضيقا بمحاذاة الطريق وراء «الرابية الرملية». وحينما وصل ميشكا وابوه الى هناك وجدوا الماشية قد اتلفت الحقل كله. وترقد السنابل التالفة باكوام وسخة مداسة على الارض،

وتتأرجح مع الريح السيقان العارية. ويتذكر ميشكا اباه، الضخم الجسم والقوي البدن، وقد التوت سحنته التواء رهيبا وترقرقت الدموع بشحة فوق وجنتيه المعفرتين بالتراب. وميشكا انتحب ايضا وهو يرنو اليه ببصره.

في طريق العودة سأل الاب حارس مزرعة البطيخ:

– اخبرني، فيدوت، من اتلف حنطتي؟

بصق حارس المزرعة بين قدميه واجاب:

– انه صاحب المتجر... ساق ماشيته الى السوق، ووجهها عن قصد الى حقلك.

...قرب الاب المصطبة الى ميشكا اكثر وبدأ الحديث:

– لقد شغل صاحب المتجر وغيره من الاثرياء الارض كلها، اما الفقراء فلم تكن لهم ارض يزرعونها. وهكذا كانت الحال في كل مكان، وليس في دسكرتنا فحسب. وآنذاك كانوا يسيئون الينا اعنف الاساءة... وصارت الحياة عسيرة، وعملت أجيرا كراع، ومن ثم اقتادوني للخدمة العسكرية. ولقيت المشاق في الخدمة. فالضباط يضربونني لاقل هفوة. وبعد هذا جاء البلاشفة واكبرهم اسمه لينين. ولا تبدو عليه الوجاهة، بيد انه كثير العلم، بالرغم من انه ينحدر من عامة الناس. وصار البلاشفة يتحدثون عن اشياء تذهل العقل. فقالوا: «بم تفكرون يا عمال وفلاحين؟ اكنسوا السادة والرؤساء بمقشة، وتخلصوا منهم الى الابد. فكل شيء ملك لكم!..»

بهذه الاقوال بعثوا فينا الحركة، وفكرنا وفكرنا فآمنا بقولهم. وانتزعنا من السادة الارض والضياع، الا ان الحياة غدت صعبة بالنسبة لهم، وجن جنونهم غيظا فشنوا الحرب علينا نحن الفلاحين والعمال... افهمت يا بني؟

اما لينين هذا وهو اكبر البلاشفة فقد اثار عقول الناس كما يفعل المحراث بالتربة. وجمع الجنود والعمال وصار يحارب السادة الاغنياء! فتفرقوا شذر مذر. وصار الجنود والعمال يكنون باسم «الحرس الاحمر». وانا ايضا كنت في

هذا الحرس. وعشنا في بيت كبير جدا يسمى قصر «سمولني». والاروقة هناك طويلة جدا، والغرف كثيرة الى حد ان المرء قد يضيع فيها.

وحدث مرة ليلا ان وقفت احرس المدخل. الجو بارد في الفناء. ولم اكن ارتدي سوى المعطف. والرياح تعصف... حينما خرج منه شخصان، ومشيا بالقرب مني، واقتربا مني، فعرفت في احدهما لينين. دنا مني وسأل بلطف:

– الا تشعر بالبرد يا رفيق؟

وقلت له:

– كلا يا رفيق لينين، لا يستطيع الزمهرير قهرنا، بل ولا اي اعداء ايضا. اننا لم نأخذ السلطة بايدينا لكي نعطيها الى البرجوازيين.

فضحك وصافحني بقوة. ثم مضى على مهله نحو البوابة.

صمت الاب. واستخرج من جيبه كيس التبغ، وخشخش بالورق، واولع اللفافة بعد ان شخط بعود الثقاب، ورأى ميشكا فوق الشارب الاشقر المنتصب دمعة لامعة تترقرق مثل قطرة الطل، كتلك القطرات التي تتدلى من اطراف وريقات نبات القراص.

– هكذا كان... يعتني بامر الجميع، ويقلق لحال كل جندي من اعماق قلبه... بعد هذا غالبا ما كنت اراه، فيمر بي، ويعرفني عن بعد، فيبتسم ويقول:

– الن يحطمنا البرجوازيون، ها؟

وكنت اقول له:

– انهم عاجزون عن ذلك، يا رفيق لينين.

وسارت الامور كما قال بالضبط. فقد انتزعنا الارض والمصانع، وطردنا الاغنياء – مصاصي دمائنا! وحينما تشب لا تنس ان اباك كان بحارا واراق دمه من اجل الكومونة طوال اربعة اعوام كاملة. وحتى ذلك الوقت اكون قد مت وكذلك لينين سيموت، اما قضيتنا فتبقى خالدة الى الابد!.. وحينما ستشب هل ستحارب من اجل السلطة السوفيتية كما حارب ابوك؟

– سأحارب، – هتف ميشكا بذلك، وانتفض في الفراش واقفا، واراد ان يعانق اباه، غير انه نسي ان جده يرقد الى جانبه، وداس على بطنه بقدمه.

صرخ الجد عاليا واراد الامساك بناصية ميشكا، لكن الاب حمل ميشكا فوق ذراعيه واخذه الى الغرفة الاخرى.

وغفا ميشكا فوق ذراعيه. في البداية فكر طويلا بذلك الرجل العجيب – لينين، وبالبلاشفة والحرب والبواخر. وفي البداية سمع وهو شبه نائم اصواتا مكتومة، وتحسس الرائحة الحلوة للعرق والتبغ، – ثم انغلقت عيناه، وبدا كما لو ان احدهم ضغط براحتي يديه على جفنيه.

ما ان غفى حتى راى مدينة. الشوارع عريضة، والدجاجات تغتسل في اكوام الرماد. ان عددها كبير في الدسكرة، اما في المدينة فهو اكبر بكثير. البيوت بالضبط كما وصفها أبوه. بيت كبير مسقف بالقصب الجديد – وفوق المدخنة ينتصب بيت آخر، وفوق مدخنة هذا بيت آخر. بينما تمتد مدخنة اعلى البيوت الى عباب السماء.

ويمشي ميشكا في الشارع مرفوع الراس ليرى بشكل افضل، وفجأة يقع بصره على رجل طويل بقميص أحمر يتقدم نحوه. وسأله بلطف للغاية:

– لم تتسكع يا ميشكا بلا عمل؟

– لقد سمح لي جدي بالخروج للعب.

– او تعرف من أنا؟

– كلا... لا اعرف...

– انا – الرفيق لينين...

ارتخت ساقا ميشكا رعبا. واراد ان يلوذ بالفرار، بيد ان الرجل ذا القميص الاحمر تشبث بكم ميشكا وقال:

– انت يا ميشكا بلا ذرة من ضمير. انت تعرف حق المعرفة انني احارب من اجل الفقراء. فلماذا لم تلتحق بجيشي؟..

فرد ميشكا مبررا موقفه:

– جدو... لا يسمح لي بذلك.

– كما تريد... ولكن الامور عندنا لا تسير على ما يرام بدونك. يجب عليك الالتحاق بجيشي، وهذا كل ما في الامر!..

امسك ميشكا بيده وقال بعزم ثابت:

– حسنا... سالتحق بجيشك دون سماح جدي، وساحارب من اجل الفقراء. ولكن ان جلدني جدي بالعصا لهذا السبب، فعليك الدفاع عني.

قال الرفيق لينين. – سافعل ذلك حتما! – ثم انصرف مبتعدا في الشارع. اما ميشكا فقد احتبست انفاسه من الفرح. واراد الصراخ، لكن لسانه قد جف والتصق بسقف حلقومه...

ارتجف ميشكا في الفراش ورفس جده بقدميه واستيقظ.

كان الجد يتمتم في نومه، ويحرك شفتيه، وكان بوسع ميشكا ان يرى خارج النافذة الصغيرة كيف بدت الزرقة الشاحبة للسماء وراء البركة، ومقابلها رغاء وردي بلون الدماء من السحب المتلبدة تنساب من جهة الشرق.

* * *

ومنذ ذلك الحين صار الاب يتحدث الى ميشكا عن الحرب، وعن لينين، وعن تلك الاصقاع التي رآها.

في مساء يوم السبت جاء الحارس من اللجنة التنفيذية الى الفناء بصحبة رجل قصير القامة يرتدي معطفا عسكريا ويضع تحت ابطه حقيبة جلدية. استدعى الجد وقال:

– اتيت للسكن عندكم بهذا الرفيق المسئول في السوفيت. جاء الينا من المدينة، وسيبيت الليلة عندكم. فقدم له طعام العشاء يا شيخ.

– نحن، طبعا، لا نعارض. ولكن هل يوجد لديك اوراق اعتماد ايها السيد الرفيق؟

عجب ميشكا من سعة اطلاع الجد، ودس اصبعه في فمه، واخذ يصغي للحديث.

– كل الاوراق موجودة، يا عم، كلها! – اجاب الرجل ذو الحقيبة الجلدية مبتسما ودلف الى الغرفة.

تبعه الجد، بينما سار ميشكا وراء الجد.

وسأل الجد في طريقه:

– ما الذي جاء بكم الينا؟

– لقد جئت بشأن الانتخابات الجديدة. سنقوم بانتخاب رئيس واعضاء المجلس.

بعد فترة وجيزة أتى الاب قادما من الجرن. فحيا الغريب وأمر الام بتهيئة طعام العشاء. بعد العشاء جلس الاب والغريب على المصطبة الى جانب احدهما الآخر. وفتح الغريب الحقيبة الجلدية واستخرج منها حزمة اوراق وبدأ يريها الى الأب. وكان ميشكا عديم الصبر، يحوم حولهما، ويحاول القاء نظرة عليها. تناول الاب ورقة واراها الى ميشكا:

– انظر يا مينكا... انه لينين ذاك!

انتزع ميشكا الصورة من يد أبيه وبحلق فيها فاتحا فاه من العجب. يبدو على الورقة رجل فقير بكل قامته ولا يرتدي قميصا أحمر البتة، بل جاكتة. وقد دس احدى يديه في جيب سرواله أما الاخرى فيشير بها امامه. تفحص ميشكا الصورة بامعان، وفي لحظة خاطفة التقط فيها كل شيء، وانطبع في ذاكرته بقوة الى الابد الحاجبان المقوسان والابتسامة المرتسمة في العينين والشفتين، وتذكر كل تفاصيل الوجه.

اخذ الغريب الصورة من يد ميشكا، واغلق قفل الحقيبة، وتوجه للرقاد. وكان قد نزع ملابسه واستلقى وغطى جسده بمعطفه العسكري، وبدأ يغالبه النعاس، حينما سمع صريف الباب فجأة. رفع رأسه:

– من هناك؟

ثمة قدمان عاريتان تمشيان فوق الارض.

– من هناك؟ – سأل مجددا ثم رأى ميشكا بغتة عند السرير؟

– ماذا تريد يا صغيري؟

لزم ميشكا الصمت هنيهة، ثم استجمع شجاعته وقال هامسا:

– اسمع، يا عم... انت... يعني... اعطني لينين! صمت الغريب وقد تدلى رأسه من السرير ورمقه بنظراته.

استولى الفزع على ميشكا: ماذا لو بخل ورفض اعطائي الصورة؟ جاهد في التغلب على تهدج صوته، وهمس لاهثا وبسرعة:

– اعطنيها الى الأبد... وانا سأهديك علبة صفيح جيدة، وكذلك جميع الكعاب* و... – ثم قال ميشكا ملوحا بيده بعزم: – والجزمتين اللتين جلبهما لي بابا ايضا!

فسأل الغريب مبتسما:

– ما حاجتك الى لينين؟

«انه لن يعطيني الصورة!» – مرقت هذه الفكرة في رأس ميشكا. واحنى رأسه لكي لا ترى الدموع، وقال متمتما بحشرجة:

– اريده، وفقط!

ضحك الغريب، ثم اخرج الحقيبة من تحت الوسادة وناول ميشكا الصورة. فاخفاها ميشكا تحت قميصه وضغط بها على صدره، على قلبه بقوة، وهرول خارجا من الغرفة.

استيقظ الجد وسأل:

– ماذا جرى لك، فصرت تحوم في منتصف الليل؟ قلت لك لا تشرب الحليب قبل الرقاد. وهاهي الحاجة تؤرقك، يمكنك ان تبول في دلو المياه القذرة. ليس لي رغبة بأخذك الى خارج البيت.

رقد ميشكا صامتا، ماسكا بالصورة بكلتا يديه، وكان

* قطع عظام صغيرة يستخدمها الصغار في اللعب. **المترجم.**

يخشى التقلب خوفا ان تنبعج، واستسلم للكرى على هذه الحال.

استيقظ مع اول خيوط الفجر وكانت امه قد حلبت البقرة لتوها وساقتها مع القطيع. وحينما رأت ميشكا لوحت بيديها قائلة:

– ما الذي يعكر نومك؟ لم نهضت مبكرا هكذا؟

كان ميشكا يضغط على الصورة تحت قميصه وانسل بمحاذاة امه جاريا الى الجرن واختفى تحت العنبر.

تنمو اعشاب راعي الحمام حول الجرن، وجدار اخضر كثيف منيع من نبات القراص.

زحف ميشكا تحت الجرن، وحفر بيده الرمل، وقطف ورقة راعي حمام صفراء كالحة ولف بها الصورة، ووضعها في الحفرة وفوقها حجر، لكي لا تحملها الريح.

هطل المطر منذ الصباح حتى المساء. وغطت السماء سحب رمادية زرقاء غامقة. وامتلأ الفناء ببرك الاوحال، وتسابقت في الشارع جداول الماء.

واضطر ميشكا الى الجلوس في البيت. وكان الظلام قد ادلهم حينما خرج الاب والجد الى الاجتماع في اللجنة التنفيذية. واعتمر ميشكا قبعة جده وتبعهما. يقع مقر اللجنة التنفيذية في مبنى حارس الكنيسة، وتسلق ميشكا بجهد الدرجات المعوجة القذرة عند الشرفة، ودخل الغرفة متنحنحا. ثمة سحابة من دخان التبغ تحوم تحت السقف والمكان غاص بالبشر. وجلس وراء الطاولة عند النافذة ذلك الرجل الغريب وكان يروي شيئا ما الى القوزاق المجتمعين.

انسل ميشكا بهدوء الى مؤخرة الغرفة وجلس على آخر مصطبة.

– من يؤيد انتخاب فوما كورشونوف رئيسا، ارجو رفع الايدي!

صاح بروخور ليسينكوف، صهر صاحب المتجر، الذي كان يجلس امام ميشكا قائلا:

– ايها المواطنون... انا اعارض! فهو غير شريف! ولقد كشفنا أمره منذ ان كان راعيا لقطيعنا!..

ورأى ميشكا كيف نهض الاسكافي فيدوت من عتبة النافذة وصرخ وهو يلوح بيديه:

– ايها الرفاق... لا يريد الاغنياء ان يصبح الراعي فوما رئيسا. ولكن لما هو بروليتاري ويؤيد السلطة السوفيتية...

اخذ القوزاق الاغنياء، الذين تجمهروا عند الباب، يدقون الارض بكعوب اقدامهم ويصفرون. وتعالى الضجيج في مبنى اللجنة التنفيذية.

– لا نريد الراعي!

– مادام قد جاء من الخدمة العسكرية، فليعمل راعيا مرة اخرى!..

– ليذهب فوما كورشونوف الى الجحيم!

تطلع ميشكا الى وجه ابيه الشاحب، الذي كان يقف عند المصطبة، واصاب وجهه نفسه الشحوب خوفا عليه.

– النظام، يا رفاق!.. سأبعد المخالفين عن الاجتماع! – صاح الغريب ضاربا الطاولة بقبضته.

– سننتخب رجلا منا، من القوزاق.

– لا نريد فوما!..

– لا نريده... بأمه!

صرخ بهذا القوزاق، وكان اكثرهم صراخا بروخور صهر صاحب المتجر.

اعتلى المصطبة قوزاقي ربعة ذو لحية حمراء وفي احدى اذنيه قرط، ويرتدي جاكتة رثة ومرقعة.

– ايها الاخوان! اذن هذا بيت القصيد!.. يريد الاغنياء ان يجلسوا رجلهم عنوة في كرسي الرئاسة!.. وبعدها...

سمع ميشكا كلمات متفرقة فحسب وسط العويل الصاخب كان يرددها القوزاقي ذو القرط في اذنه:

– الارض... فالارض يعاد توزيعها مجددا...

وسيعطون الى الفقراء الطين والرمل، بينما سيحتفظون بالارض الخصبة والطيبة لانفسهم.

وصار الحشد المتجمع عند الباب يصيح:

– نرشح بروخور رئيسا!..

– بروخور! بروخور! هو – هو – هو!.. ها – ها –ها!..

عاد الهدوء الى القاعة بعد جهد جهيد. وبدأ الغريب بالصراخ والصراخ بصوت عال وعابس الوجه والذعاب يتناثر من فمه.

ودار في خلد ميشكا: «لابد وانه يعنفهم».

وسأل الغريب بصوت عال:

– من يؤيد ترشيح فوما كورشونوف؟

ارتفعت أيد كثيرة فوق المصاطب. ورفع ميشكا يده ايضا. وصار احدهم يحسب بصوت عال وهو يقفز من مصطبة الى أخرى.

– ثلاثة وستون... اربعة وستون... – واشار نحو ميشكا المرفوع اليد دون ان يتطلع اليه وقال: – خمسة وستون!..

دوّن الغريب شيئا ما على الورقة، وقال:

– من يؤيد ترشيح بروخور ليسينكوف، ارجو رفع الايدي!

فرفع سبعة وعشرون من القوزاق والطحان يغور ايديهم سوية وبحيوية. ورفع ميشكا يده ايضا. لكن الرجل الذي كان يحسب الاصوات دنا منه وتطلع اليه من فوق الى تحت وامسك بصوان اذنه:

– يالك من وغد صغير! اطلع من هنا والا فساعطيك علقة! اياك ان تصوت!..

ضحك الجميع حواليه. واقتاد الرجل ميشكا الى الباب ودفعه في ظهره. وتذكر ميشكا ما كان يقوله ابوه لدى المشاجرة مع جده. وحينما نزل من الدرجات الزلقة والقذرة هتف:

– من اعطاك هذا الحق؟

– سأريك من اعطاني الحق!

ان هذه الاساءة كانت كغيرها شديدة المرارة.

حينما بلغ ميشكا البيت بكى قليلا، واشتكى الى امه، لكنها قالت غاضبة:

– لا تذهب الى حيث لا ينبغي لك الذهاب... وتدس انفك في كل مكان... انا لا اتلقى بسببك سوى الاذى.

في صباح اليوم التالي جلسوا الى المائدة لتناول الافطار. وما كادوا ينتهون من تناول طعامهم حتى سمعوا صوت موسيقى آتيا من بعيد. وضع الاب الملعقة وقال وهو يمسح شاربيه:

– لابد انها فرقة اوركسترا عسكرية!

اختفى ميشكا من المصطبة وكأن هبة ريح حملته معها. واصطفق الباب عند المدخل. وسمع وراء النوافذ صوت اقدام خفيفة. «توب... توب... توب»...

وخرج الى الفناء الاب والجد ايضا. واطلت الام من النافذة نصف اطلالة.

في نهاية الشارع كانت صفوف رجال الجيش الاحمر تتدفق في موجة خضراء عارمة. في المقدمة يسير الموسيقيون نافخين في ابواق كبيرة، ويهدر الطبل، وغمرت الدسكرة الالحان الموسيقية.

تراقصت عينا ميشكا، ودار حول نفسه في مكانه بحيرة، ثم اندفع منطلقا نحو الموسيقيين. واحس بشيء عذب في صدره وانزلق الى حنجرته... تطلع ميشكا الى رجال الجيش الاحمر ذوي الوجوه الجذلة والمعفرة بالتراب، والى الموسيقيين بوجناتهم المنتفخة بفخامة وعلى الفور قر عزمه: «ساذهب معهم للقتال!..»

واستعاد في ذاكرته الحلم الذي راوده، ولم يعرف من اين واتته الجراة، وتشبث بحقيبة الرصاص لآخر رجل:

– الى اين ذاهبون؟ للقتال؟

– طبعاً. نحن ذاهبون للقتال.

– ومن اجل من تقاتلون؟

– من اجل السلطة السوفيتية، ايها الاحمق الصغير. هيا، تعال الى هنا في الوسط.

ودفع ميشكا الى وسط الصفوف، وضحك احدهم ونقر باصبعه على قفاه ذي الشعر الاشعث، بينما اخرج الآخر من جيبه قطعة سكر مكسوة بالسخام، ودسها في فمه. وصاح احدهم من مكان ما في الصفوف الامامية عندما وصلوا الى الساحة:

– تف!..

توقف رجال الجيش الاحمر، وانتشروا في ارجاء الساحة، وجلسوا متزاحمين متفيئين بالظل البارد لسياج المدرسة. اقترب من ميشكا مقاتل حليق طويل القامة يتدلى على جانبه سيف، وسأل وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة:

– من اين تعلقت بنا؟

وقف ميشكا شامخا بانفه، وهو يرفع سرواله المنزلق الى الاسفل.

– انا ذاهب معكم للقتال!

صاح احد رجال الجيش الاحمر:

– ايها الرفيق قائد الكتيبة، خذه كمساعد لك.

قهقه الجميع حوله. وكاد ميشكا ينتحب، بيد ان الرجل، الذي اطلقت عليه التسمية الغريبة... «قائد الكتيبة»، قطب حاجبيه وصاح بحزم:

– لم تكركرون، يا حمقى؟ طبعا سنأخذه، ولكن بشرط... – والتفت قائد الكتيبة نحو ميشكا وقال: – ان لسروالك حمالة واحدة، وهذا لا يجوز، فمظهرك يجلب لنا الخزي والعار!.. انظر لدي حمالتان، وكذلك لدى جميع الجنود. فاذهب ودع ماما تخيط لك الحمالة الثانية. اما نحن فسننتظرك هنا... – ثم استدار نحو الجدار وصاح غامزا بعينه:

– تيريشينكو، اجلب للمقاتل الجديد بندقية ومعطفا.

نهض احد الراقدين عند السياج، ووضع يده عند حافة قبعته واجاب:

– سمعا وطاعة... – ثم ابتعد مسرعا بمحاذاة السياج.

– هيا... اذهب بسرعة، ولتعجل ماما بخياطة الحمالة الاخرى.

رمق ميشكا قائد الكتيبة بنظرة صارمة:

– اياك ان تخدعني!

– لا تقلق... كيف يمكن...

المسافة بعيدة من الساحة الى البيت. وحينما بلغ ميشكا البوابة صار يلهث، وما كان يستطيع استرجاع انفاسه. نزع سرواله راكضا عند بوابة البيت، واندفع الى داخل البيت بسرعة وقدماه العاريان تومضان.

– ماما!.. السروال!.. يجب خياطة الحمالة...

السكون يخيم على البيت. وكان الذباب يطن فوق الموقد بسحابة سوداء. وحام ميشكا حول الجرن والحديقة. فلم يجد اثرا للام والاب والجد. واندفع الى داخل الغرفة فراى امام بصره كيسا. فقطع بالسكين شريطا طويلا، ولم يكن لديه الوقت للخياطة، كما انه لايجيد الخياطة. فربط الشريط بالسروال على عجل. والقاه عبر الكتف، وربطه مرة اخرى في المقدمة. وفي لحظة اختفى تحت العنبر. ازال الحجر والقى نظرة خاطفة على يد لينين التي تشير نحوه – اي ميشكا – وهمس بتنهدة:

– هل ترى؟.. انني ايضا التحقت بجيشك!..

لف الصورة بعناية بورقة نبات راعي الحمام، ودسها تحت ابطه وهرول في الشارع. وكانت احدى يديه تضغط الصورة على صدره، والاخرى تعدل السروال لكي لا يسقط. وجرى بمحاذاة سياج الجيران وصاح مخاطبا الجارة:

– انيسيموفنا!

– ماذا؟

– بلغي اهلي ان يتناولوا الغداء بدوني.

– الى اين ذاهب، ايها الشيطان الصغير؟
لوح ميشكا بيده.
– انا ذاهب للخدمة في الجيش!..
حينما بلغ الساحة تسمر في مكانه. فقد كانت الساحة خالية. ووجد تحت الجدار اعقاب سجاير، ومعلبات فارغة، ولفائف مهلهلة تلف بها الاقدام، وفي الطرف القصي للدسكرة تهدر الموسيقى عاليا، وتسمع خطوات الذاهبين تدق فوق الارض المردوسة.

انفجر ميشكا باكيا بصوت عال، ثم ارسل صرخة واندفع راكضا للحاق بهم. وكان سيلحق بهم حتما لكن بدا رابضا عند بيت السراج، في قارعة الطريق، كلب اصفر طويل الذنب يكشر عن انيابه نحوه، وحينما تفاداه ميشكا وبلغ الطرف الآخر – كانت قد اختفت الموسيقى ودبيب الاقدام.

* * *

بعد يومين جاءت الى الدسكرة مفرزة مؤلفة من حوالي اربعين رجلا. وكان الجنود بجزم لباد رمادية وجاكتات عمالية ملطخة بالزيت. ورجع الاب من اللجنة التنفيذية لتناول طعام الغداء وقال للجد:

– هيء يا بابا الحبوب في العنبر. لقد جاءت مفرزة جباية الحبوب والمواد الغذائية، لاجل اخذ فائض الحبوب.

صار الجنود يتنقلون من بيت الى بيت، فيفحصون الارض في العنابر بواسطة الحراب، ويستخرجون الحبوب المدفونة وينقلونها في العربات الى العنبر العمومي.

وجاءوا الى بيت الرئيس. وسأل اولهم وهو يدخن غليونه مخاطبا الجد قائلا:

– هل دفنت الحبوب ياجد؟ قل الحقيقة!

مسد الجد لحيته وقال باعتزاز:

– لكن ولدي شيوعي!

ودلفوا الى العنبر. والقى الجندي الذي يدخن الغليون نظرة على اكياس الحبوب وابتسم:

– انقل يا عم، هذا الجزء من الخزين، اما الباقي فهو لكم للطعام والبذار.

شد الجد الحصان العجوز «سافراسكا» الى العربة، وتنهد وتحسر، وصب ثمانية اكياس قمح، ولوح بيده يائسا، واخذها الى العنبر العمومي. وبكت الام قليلا، أسفا على الحبوب، اما ميشكا فساعد الجد في صب الحبوب في الاكياس، ثم مضى الى فيتكا ابن القس للعب.

حالما جلسا في المطبخ، ونثرا على الارض هياكل خيل مقصوصة من الورق، دخل الى المطبخ اولئك الجنود انفسهم. وهرع القسيس للقائهم، وهو يتعثر باذيال ردائه، وتململ، ورجاهم الدخول الى الغرفة. لكن الجندي صاحب الغليون قال بحزم:

– لنذهب الى العنبر. اين تخزنون الحبوب؟

خرجت من الغرفة زوجة القس بشعر أشعث، واختلست ابتسامة:

– تصوروا، يا سادة، ليس لدينا اية حبوب. ان زوجي لم يبدأ بعد جولته في الابرشية...

– وهل عندكم قبو؟

– كلا، لايوجد... اننا كنا نخزن الحبوب سابقا في العنبر.

تذكر ميشكا كيف انه تسلل وفيتكا من المطبخ الى قبو واسع. وقال ملتفتا الى زوجة القس:

– لكننا نزلنا انا وفيتكا الى القبو من المطبخ... هل نسيت؟

شحب وجه زوجة القسيس وندت عنها ضحكة:

– لقد اخطأت يا صغيري. فيتيا، اذهبا والعبا في الحديقة.

ضيق الجندي صاحب الغليون عينيه، وابتسم الى ميشكا:

– كيف النزول الى القبو، يا ولد؟

طقطقت زوجة القسيس باصابعها وقالت:

– هل من المعقول ان تصدق صبيا احمق؟ اؤكد لكم يا سادة، انه لا يوجد عندنا قبو.

وقال القس مجرجرا اطراف ردائه:

– ربما يحلو للرفاق تناول شيء من الطعام؟ تفضلوا الى الغرفة!

حينما مرت زوجة القسيس بمحاذاة ميشكا قرصته بشكل مؤلم، وابتسمت بلطف:

– اذهبا، ياولدي، الى الحديقة. ولا تقفا في طريقنا.

تغامز الجنود وتوجهوا الى المطبخ، وصاروا يدقون الارضية باعقاب البنادق. وازاحوا الطاولة عند الجدار، ورفعوا بساطا صغيرا. ورفع الجندي ذو الغليون احد الالواح، وتطلع الى القبو.

– الا تخجلون؟ قلتم ليس لدينا اية حبوب، بينما القبو مليء الى اعلاه بالحنطة!..

صوبت زوجة القس نظرات تتطاير منها الشرر الى ميشكا، مما اثارت في قلبه الرعب، واراد الذهاب الى بيته باسرع وقت. فنهض وتوجه الى الفناء. وتبعته زوجة القسيس الى المدخل وشهقت باكية وتشبثت بفروة شعره وصارت تجرجره على الارض.

لم يتخلص من قبضتها الا بعد جهد جهيد وانطلق مهرولا الى البيت دون النظر الى ورائه. وروى كل شيء الى امه والدموع تترقرق من عينيه. اما امه فامسكت برأسها فقط يأسا:

– ماذا افعل معك؟ اغرب عن وجهي قبل ان اذيقك علقة ساخنة!..

ومنذ ذلك الحين كان ميشكا يزحف الى تحت العنبر بعد كل اساءة توجه اليه، فيزيل الحجر ويفتح ورقة راعي الحمام، ويروي الى لينين مصيبته، والدموع تبلل الورقة، ويشكو اليه من اساء له.

انصرم اسبوع. واحس ميشكا بالوحشة، فليس لديه من يلعب معه. ولم يعد صبيان الجيران يرغبون في اللعب معه. واضيف الى لقب «ابن حرام» لقب آخر، مستعار من اقوال الكبار، وكانوا يصيحون في اعقاب ميشكا:

– هه... انت... ايها الشيوعي الصغير، ايها المخدج الشيوعي، التفت وراءك!

وحدث مرة ان عاد ميشكا من البركة الى البيت قبيل المغيب. وما كاد يدخل البيت حتى سمع كيف كان ابوه يتحدث بصوت حاد، بينما امه تبكي وتولول كما لو فارق الحياة. ولج ميشكا عبر الباب فراى ابوه وقد لف معطفه وصار ينتعل جزمتيه.

– الى اين ذاهب يا بابا؟

ضحك الاب واجاب:

– عدي، يابني، من روع امك. انها تقطع نياط قلبي ببكائها. انا ذاهب الى الحرب، بينما هي تقف في طريقي!..

– وانا ايضا، ساذهب معك، يا بابا!

تمنطق الاب بحزامه، وارتدى القبعة ذات الشرائط.

– يالك من احمق، فعلا! فكيف لنا ان نترك البيت معا دفعة واحدة؟ حينما ارجع ستذهب انت. والا فحينما ينضج القمح، من سيحصده؟ الام مشغولة بتدبير شئون البيت، اما الجد فهو شيخ عجوز...

حبس ميشكا دموعه لدى توديع ابيه، وحتى ابتسم، اما الام فقد تعلقت برقبة ابيه كما في المرة السابقة. وابعدها قسرا. اما جده فسعل فقط وهو يقبل الذاهب الى الجيش، وهمس في اذنه:

– فوموشكا... بني، ماذا لو بقيت في البيت؟ ولربما هم في غنى عنك؟ ان قتلوك ضعنا.

– كفى، يابابا. هذا شيء غير حسن. من سيدافع عن سلطتنا، ان عمد جميع الرجال للاختباء تحت تنورات زوجاتهم؟

– حسنا... اذهب، ان كنت على حق.

اشاح الجد بوجهه، ومسح دموعه دون ان يراه أحد. مضوا لتوديع الاب حتى مبنى اللجنة التنفيذية. وكان قد اجتمع في فناء المبنى حوالى عشرين شخصا مع بنادقهم. اخذ الاب بندقيته أيضا، وعندما لثم ميشكا آخر مرة، خطا سوية مع الآخرين في الشارع نحو طرف الدسكرة.

عاد ميشكا الى البيت بصحبة جده. وسارت الام مترنحة وراءهما. وتردد في الدسكرة نباح كلاب متقطع، واضواء متفرقة. وغمر الدسكرة ظلام الليل وكأنها عجوز ملفعة بوشاح أسود. وتساقط المطر رذاذا. وتراقص البرق في مكان ما وراء الدسكرة وفوق السهب. وانهالت صاعقة بضربات هادرة متناثرة.

اقتربوا من البيت. وسأل ميشكا الذي التزم الصمت طوال الطريق، مخاطبا جده:

– جدو... ضد من سيحارب بابا؟

– دعني وشأني!..

– جدو!..

– ماذا؟

– ضد من سيحارب ابي؟

اغلق الجد البوابة بالترباس، واجاب:

– ظهر اشرار بالقرب من الدسكرة. والناس يسمونهم بالعصابة. واعتقد انهم مجرد قطاع طرق... وقد ذهب ابوك لقتالهم.

– وهل عددهم كبير، يا جدي؟

– يثرثرون بان عددهم حوالي المائتين... الآن، اذهب يا صغيري فقد حان وقت النوم.

افاق ميشكا ليلا لدى سماعه اصوات. ثم استيقظ وتحسس الفراش، ولم يكن الجد هناك.

– جدو، اين انت؟

– شش! اصمت ونم، يا لجوج!

نهض ميشكا وبلغ النافذة متلمسا طريقه وسط الظلمة. كان الجد جالسا على المصطبة مرتديا سروالا داخليا فحسب، واطل براسه من النافذة المفتوحة وهو يصغي. واصغي ميشكا ايضا. وسمع في الصمت المطبق بوضوح كيف كانت الطلقات تتردد في مكان ما وراء الدسكرة بصورة متفرقة في البداية، ثم بصليات منتظمة.

«طاخ... طا... طا... طا... خ!».

كما لو كانوا يدقون مسامير.

تملك ميشكا الرعب. فالتصق بالجد وسأل:

– هل هو ابي يطلق النار؟

صمت الجد. بينما انتحبت الام مجددا، وندبت.

تواصل اطلاق النار حتى الفجر. ثم هدأ كل شيء. تكوم ميشكا على المصطبة، واستغرق في نوم عميق غير بهيج. وعند الفجر انطلق رهط من الفرسان في الشارع نحو مبنى اللجنة التنفيذية. ايقظ الجد ميشكا، بينما هرع نفسه الى الفناء.

تعالى عمود دخان اسود فوق مبنى اللجنة التنفيذية. وزحفت النيران الى المباني الملحقة، وصار الفرسان يمضون راكضين ذاهبين في الشوارع. ودنا احدهم من الفناء وصرخ نحو الجد:

– هل لديك حصان، يا شيخ؟

– نعم...

– شده الى العربة واذهب الى خارج الدسكرة. فهناك في الاجمة توجد جثث الشيوعيين منكم. فاجلبهم، ودع اهاليهم يدفنوهم.

شد الجد «سافراسكا» بسرعة الى العربة، وتناول الاعنة بيدين مرتعشتين، وانطلق خببا من الفناء.

تعالى الصراخ في الدسكرة. كان قطاع الطرق ينهبون العلف من الاجران، ويذبحون الخراف. ترجل احدهم من ظهر حصانه الى قرب بيت انيسيموفنا، واندفع الى الداخل. وسمع ميشكا كيف صارت انيسيموفنا تصرخ بصوت

أجش، بينما صعد قاطع الطريق الشرفة، وهو يقعقع بسيفه، وجلس ونزع جزمتيه، ومزق شال انيسيموفنا الانيق الى نصفين، ورمى بخرق قدميه الرثة القذرة، ولف قدميه بنصفي الشال.

دخل ميشكا الى الغرفة، ورقد على السرير، وضغط رأسه بالوسادة، ولم ينهض الا عندما سمع صرير البوابة. وجرى الى الشرفة، ورأى كيف كان جده، بلحية بللتها الدموع، يقود الحصان الى داخل الفناء.

ووراءه كان يرقد في العربة رجل حافي القدمين، وقد نشر يديه ورأسه يصطدم بمؤخرة العربة متراقصا بينما يسيل فوق اللوح دم اسود غليظ القوام...

دنا ميشكا من العربة مترنحا، ورمق ببصره وجه الرجل، المقطع بضربات سيف: برزت اسنانه وتدلى الخد المقطوع سوية مع العظم، وحطت ذبابة خضراء كبيرة متأرجحة فوق العين الجاحظة المخضبة بالدم.

لم يفقه ميشكا الامر لاول وهلة، الا حينما جال ببصره، وهو يرتعش رعبا، فرأى على الصدر، وفوق قميص البحارة الخطوط الزرقاء والبيضاء، ملطخة بالدم، فجفل بقوة كما لو ان احدهم عاجله بضربة على ساقيه من الخلف، وبحلق مرة اخرى بعينين واسعتين في الوجه الاسود الهامد، وصرخ قافزا فوق العربة:

— بابا... انهض! بابا... عزيزي! — سقط من العربة، واراد ان يعدو، لكن تعثرت قدماه، وزحف على أربع حتى الشرفة، ودفن رأسه في الرمل.

* * *

غاصت عينا الجد عميقا في المقلتين، ورأسه يهتز ويتراقص، وشفتاه تهمسان بكلمات بلا صوت.

مسد رأس ميشكا طويلا صامتا ثم ألقى بنظرة على

الام المستلقية على الفراش ووجهها على الوسادة، وهمس:

— لنذهب، يا حفيدي الصغير، الى الفناء...

قاد الجد ميشكا بيده الى سقيفة الباب. وحينما خطا ميشكا بمحاذاة الغرفة الثانية، اغلق عينيه بشدة، وارتجف: كان ابوه يرقد على الطاولة في الغرفة، صامتا وبجلال. وقد غسلوا دمه، لكن تراءت لميشكا صورة عين ابيه الزجاجية المخضبة بالدم وذبابة خضراء كبيرة فوقها.

انشغل الجد طويلا بفك الحبل عند البئر، ودلف الى الاسطبل واقتاد «سافراسكا»، ولامر ما مسح الرغاوة من مشفريه بكمه. ثم وضع عليه اللجام، وأصاخ السمع. كان يتردد في الدسكرة الصراخ والقهقهات. ومر بمحاذاة البيت فارسان، ولمعت سيجارتان في العتمة، وثمة اصوات تقول:

— ها قد نفذنا اعمال جباية الغذاء من أجلهم! وسيتذكرون في العالم الآخر كيف يسلبون الناس خبزهم!..

خفتت طقطقة سنابك الخيل. انحنى الجد فوق اذن ميشكا وهمس:

— انا عجوز، ولن امتطي الحصان... ساجلسك، يا حفيدي فوق الحصان، فاذهب الى عزبة «برونين»، برعاية الله. وسادلك على الطريق... واغلب الظن انه يرابط هناك تلك الفصيلة التي مرت، مصحوبا بالموسيقى، بدسكرتنا... ابلغهم بان يأتوا الى الدسكرة، فهنا عصابة!.. هل فهمت؟..

اومأ ميشكا برأسه صامتا. اجلسه الجد على الحصان، وربط ساقيه بحبل الى السرج لكيلا يسقط. وقاد «سافراسكا» عبر الجرن، وبمحاذاة البركة، ومربض العصابة، متجها الى السهب.

— هناك اخدود يشق الرابية، فتوجه بمحاذاته، دون الاستدارة الى اية ناحية. فتصل الى العزبة مباشرة. هيا، يا حبيبي!..

طبع الجد قبلة على وجه ميشكا، وضرب «سافراسكا» براحة يده ضربة خفيفة.

الليل مقمر، ومعالم الكون واضحة. ومضى «سافراسكا» بمشية وئيدة، وهو ينخر، ولكونه احس بان حمولته قليلة صارت خطواته ابطأ. وكان ميشكا يحثه بلجامه ويلطمه على رقبته بيده. ويأخذ الحصان بالعدو خببا فيتأرجح على ظهره.

كانت ثمة طيور سمان تصفر بجذل في حقل الحنطة الناضجة الاخضر الكثيف. وفي قاع الاخدود ترقرق مياه ينبوع، والنسيم بارد.

احس ميشكا بالخوف من وجوده وحيدا في السهب. واحتضن عنق «سافراسكا» الدافىء، والتصق به ككتلة صغيرة مرتجفة من البرد.

ينساب الاخدود نحو الاعلى ثم يهبط، ومرة اخرى ينساب نحو الاعلى. وكان ميشكا يخاف ان يلتفت الى الوراء. وصار يهمس بكلام ما سعيا الى عدم التفكير باي شيء. وجمدت في اذنيه طيات السكون، وعيناه مغمضتان.

هز «سافراسكا» برأسه ونخر واسرع في المشي. وفتح ميشكا عينيه قليلا، فرأى في الاسفل تحت الرابية انوارا شاحبة صفراء، وحملت الريح نباح كلاب. غمر دفء الفرح قلب ميشكا للحظة قصيرة، ولكز «سافراسكا» بقدميه وصرخ:

– هيا!..

صار نباح الكلاب اقرب الآن، وتراءى على تلة شبح طاحونة الهواء بخطوط غير واضحة. وصدرت صيحة من الطاحونة:

– من القادم؟

اخذ ميشكا يحث «سافراسكا» للسير صامتا دون ان يجيب. وصاحت الديكة في العزبة الهاجعة.

– قف!.. من القادم!.. ساطلق النار!..

شد ميشكا الاعنة بفزع، لكن «سافراسكا» احس بقرب الخيول فصهل واندفع دون ان يهتم بشد الاعنة.

– قف!..

انطلقت عيارات نارية قرب الطاحونة. وغرق صراخ ميشكا وسط ضجيج حوافر الخيل. وشخر «سافراسكا» وشب على قائمتيه الخلفيتين، وانهار بثقله على جنبه.

وشعر ميشكا للحظة بالم فظيع لا يطاق في ساقه، وجمد الصراخ على شفتيه. وكان «سافراسكا» ينيخ بثقله على الساق اكثر فاكثر.

اقترب وقع سنابك الخيل اكثر، ودنا فارسان وترجلا وهما يقعقعان بسيفيهما من جواديهما، وانحنيا فوق ميشكا:

– يا الهي... انه صبي صغير!..

– هل يعقل باننا اوردناه حتفه؟!

مد احدهم يده في عب ميشكا متلمسا، وشعر الصبي برائحة التبغ بالقرب من وجهه. وقال صوت ما بابتهاج:

– انه حي يرزق!.. يبدو ان الحصان دهس ساقه.

همس ميشكا، وهو يفقد وعيه:

– عصابة في الدسكرة... لقد قتلوا بابا... واحرقوا مبنى اللجنة التنفيذية. وامرني جدي بالاسراع اليكم!

وسبحت دوائر ملونة امام بصر ميشكا الذي غطته الغشاوة...

ومشى امامه ابوه وهو يبرم شاربيه الاشقرين ضاحكا، وعلى عينه تحط ذبابة خضراء متأرجحة. وخطا جده هازا راسه معاتبا، وامه، ومن ثم سار رجل صغير القامة عريض الجبهة مادا يده، واليد تشير نحوه هو ميشكا مباشرة.

– ايها الرفيق لينين!.. – صاح ميشكا بصوت متحشرج، وهو يجاهد برفع راسه، وابتسم مادا يده الى الامام.

١٩٢٥

درب أعوج

بدا ان نورا كانت حتى وقت قريب صبية غير متناسقة الهيئة وثقيلة الحركة. وكانت تتهادى وتمشي بخطوات خرقاء مؤرجحة ذراعيها في كافة الاتجاهات. وحينما تلتقي شخصا غريبا تدبر عنه مبتعدة وترمقه عيناها السوداوان من تحت المنديل، الذي تلف به رأسها، بنظرات تنم عن حياء وتوحش. اما الآن فقد قابلت فاسكا في الطريق فتاة كاعب هيفاء، تتطلع الى الامام في سيرها وعلى اساريرها مسحة ابتسامة، وشعر فاسكا وكأنه قد مست وجهه أنسام ربيعية دافئة.

اغلق فاسكا عينيه للحظة، ثم التفت وصار يتابعها بنظراته حتى المنعطف، ثم انطلق بحصانه خببا. وبلغ النهر في موضع سقي الخيل، وبينما كان ينزع اللجام عنه راودته الابتسامة لدى استعادة ذكرى ذلك اللقاء. ولسبب ما تراءت نورا امام ناظريه ممسكة بيديها بلطف وبثقة النبوت الزاهي الالوان الذي يتأرجح في طرفيه دلوان اخضران بايقاع مع خطواتها. ومنذ ذلك الحين بدأ قلبه يهفو للقائها، وصار يذهب الى النهر عن قصد عبر الزقاق الجانبي البعيد حيث يقوم بيت والد نورا. وحينما كان يراها خلف السياج او وراء النافذة كانت تغمر فؤاده البهجة مشوبة بالدفء، ويسحب الاعنة لتخفيف حركة حصانه.

ركب حصانه يوم الجمعة في الاسبوع الماضي متوجها الى المرج لمعرفة حال اكداس التبن. وكان ينبعث منها بخار بعد هطول المطر وتعبق بالرائحة الحلوة للعفونة. ورأى نوركا بالقرب من اكداس التبن العائدة لاسرة افدييف. كانت تمضي رافعة اطراف تنورتها ملوحة بعصا في يدها. فدنا بحصانه منها.

– مرحبا، يا حلوة!

– مرحبا، ان كنت لا تهزل.

وابتسمت.

ترجل فاسكا قافزا من الحصان وترك الأعنة.

– عم تبحثين يا نورا؟

– سرح العجل... ألم تره في مكان ما؟

– لقد رجع القطيع الى الدسكرة منذ فترة طويلة، ولم أر عجلكم بينها.

اخرج كيس التبغ ولف سيجارة. وسأل وهو يبلل قصاصة ورق الجرائد:

– كيف تأتى لك ان تشبي هكذا يا فتاة؟ لم يكن بعيدا ذلك الوقت حينما كنت طفلة تلعبين بالرمل، والآن انظروا اليها...

ارتسمت الابتسامة في عيني نوركا. فاجابت:

– هذا ما يحدث للجميع يا فاسيلي تيموفييفيتش. وانت كنت حتى وقت قريب تعدو بلا سراويل عاري الساقين لالتقاط الزرازير من المصائد. والآن لابد وان راسك يرتطم باعلى الباب لدى دخول البيت.

– ولم لا تتزوجين؟ – اشعل فاسكا عود كبريت، ونفث دخان التبغ اللاذع النكهة في الهواء.

تنهدت نورا ولوحت بيديها ساخرة:

– لا يوجد خطباء لي!

– وانا، الست خطيبا؟ – اراد فاسكا الابتسام. ولكن ارتسمت على وجهه ابتسامة خرقاء باهتة. وتذكر مظهره

في المرآة. فالوجنتان ممتلئتان بآثار جدري قديمة العهد، وخصلات الناصية مجعدة منتصبة ومتدلية فوق جبهته.

– انت مجدر نوعا ما، ولكن عموما لا بأس بك.

وغمغم فاسكا وقد اصطبغ وجهه بالحمرة:

– ما عليك العيش مع وجهي...

ابتسمت نورا ابتسامة رقيقة ولوحت بالعصا وقالت:

– هذا حق... ان كنت أحظى باعجابك فابعث بالخاطبين.

استدارت وتوجهت نحو الدسكرة، بينما جلس فاسكا فترة طويلة تحت الكدس، وهو يفرك في راحتيه ورقة عشب الكاشم ذات الرائحة المفرطة الحلاوة، وفكر في دخيلة نفسه: «ياترى هل تهزأ مني «الكلبة» ام لا؟»

هبت نسمة طيبة من الغابة عبر النهر.

زحف الضباب ملتويا نحو الاسفل، وافترش الارض فوق العشب المقطوع، وتلمس باذرعه الرمادية المنتفخة السيقان الشائكة المنتصبة ولف كالمراة اكداس التبن بسحابات متبددة من البخار. ووراء اشجار الحور الثلاث حيث غابت الشمس بدت السماء مصبوغة بلون احمر قان كازهار النسرين، بينما تراءت السحب المتلبدة كالبتلات الذابلة.

* * *

تتالف عائلة فاسكا من امه وشقيقته. وينتصب بيتهم المتين الراسخ البنيان في طرف الدسكرة، الا انه لم يكن غنيا بالماشية، فثمة حصان وبقرة هما كل ممتلكاتهم. لقد كان والد فاسكا فقيرا.

لهذا ففي يوم الاحد حينما تلفعت والدة فاسكا بالشال المزخرف بالزهور قالت مخاطبة فاسكا:

– انا، يا ولدي، لا اعارض. ان نوركا فتاة محبة للعمل وحسناء، لكننا فقراء. ولن يزوجها ابوها لك... ألا تعرف طبع اوسيب؟

التزم فاسكا الصمت وهو ينتعل جزمتيه، سوى ان وجنتيه اصطبغتا بالحمرة... اما بسبب الجهد (فقد كانت الجزمة عصية على اللبس) واما لسبب آخر.

مسحت الام بطرف الشال الشفتين الشاحبتين الجافتين وقالت:

– انني سأذهب الى اوسيب، يا فاسيا، ولكنني سالقى المهانة حينما يطردني من بيته... وساغدو اضحوكة في الدسكرة.

صمتت وهمست دون ان تتطلع الى فاسكا:

– حسنا، انا ذاهبة.

– اذهبي، ماما.

ونهض فاسكا وعلى ثغره ابتسامة باهتة.

* * *

مسحت الام جبهتها المبللة بالعرق الدافيء بكم ردائها وقالت:

– لديكم يا اوسيب مكسيموفيتش سلعة، ونحن لدينا مشتر*... ولهذا جئت اليكم. ما رأيكم بالامر؟

برم اوسيب الجالس على المصطبة لحيته ونفخ الغبار عن المصطبة وقال:

– المسالة يا تيموفييفنا... انني لربما لا اعارض... ففاسيلي فتى مناسب لمزرعتنا... لكننا لن نزوج ابنتنا... لازال الوقت مبكرا لتزويجها. ان ولادة الاطفال ليست من الامور الصعبة!

– اذن أرجو المعذرة على الازعاج.. – زمت ام فاسكا شفتيها وانحنت لدى نهوضها من فوق الصندوق.

* العبارة الروسية التقليدية التي تقال الى أهل الفتاة لدى طلب يدها للزواج. **المترجم.**

– لا يستحق هذا الاعتذار.. ما لك في عجلة من امرك يا تيموفييفنا.. ماذا لو تناولت الغداء معنا؟

– كلا... لابد لي من الاسراع الى البيت. مع السلامة، اوسيب ماكسيموفيتش...

فتمتم صاحب البيت، على اثر غلقها الباب، دون ان ينهض من مكانه:

– في امان الله... انقلعي!

جاءت ام نورا من الفناء، وبعد ان رشت على المقلاة حبوب عباد الشمس سألت:

– ماذا تريد تيموفييفنا؟

شتم اوسيب وبصق:

– جاءت تخطب ابنتنا لولدها المجدور. يا للعجب، حشرة حقيرة وتريد ان تضع نفسها في مصاف بقية الناس. لتمد رجلها على قدر لحافها. يا لها من خاطبة! – ثم لوح بيده واردف: – مصيبة!..

* * *

انتهى موسم الحصاد. وامتلأت الاجران بحزم الجودار غير المدروسة، الحمراء والشعثاء، التي كانت تتطلع من وراء الاسيجة متربصة. كانت تنتظر اهل البيت بالدراسات والعمل وعمال تشغيل ماكينات الدرس الذين يصرخون باصوات متحشرجة متوترة: «هيا! هيا! هيا!».

جاء الخريف بامطاره وعتمة ضبابه.

في الصباح يتبقع السهب بالضباب مثل الحصان المصاب بالجرب.

كانت الشمس تبص بحياء من وراء السحب، وبدت بائسة وعاجزة. والغابات فقط، التي لم يلفحها لهيب القيظ، كانت توشوش قانعة بنفسها باوراق الاشجار الخضراء والمكتنزة الريانة كما في الربيع.

هطلت الامطار بكثرة يوما بعد يوم وصار الجو مفعما بالضباب اللزق. ولسبب ما صارت الاوزات البرية تحلق

من الشرق الى الغرب، وبدت اكداس التبن الهزيلة المغطاة بعفونة بنية وكأنها انسان اصابه السقم.

ساد السكون فوق الارض غير المحروثة الغافية في احضان الخريف الزاحف. ونمت في المروج الاعشاب بعد الحصاد الاول بلون اخضر متالق، ولكن بريقها خادع كالحمرة على وجنتي مسلول.

بينما كانت تغمر فاسكا رعشة ابتهاج عارمة فقط لرؤيته نورا في كل يوم، تارة عند النهر وتارة في الامسيات حيث يجتمع الشباب للتسلية. واصاب الفتى الهوس والهزال الشديد ولم تعد يداه قادرتان على العمل.

وحدث مرة في احد ايام الخريف، قبيل الغسق، ان صارت الارمونيكا، التي تنطلق منها عادة الحان حزينة وانين مثل جرو مشرد، تصدح عاليا وتنفجر ضاحكة...

دلف جريشكا سكرتير خلية كمسمول الدسكرة الى فناء بيت فاسكا، وحينما رآه لوح بيديه، وارتسمت على وجنتيه ابتسامة عريضة.

فساله فاسكا ساخرا:

– مالك تكشر فرحا، هل عثرت على كنز؟

– لا تكن احمق! اي كنز! – واستجمع انفاسه وهتف: – حان موعد تجنيد المواليد من عامنا... وينبغي علينا الالتحاق بالخدمة بعد ثلاثة ايام!..

صعق فاسكا وكان احدهم هوى على رأسه بعصا ركائز غليظة. وكان اول ما تبادر الى ذهنه: «وكيف الحال مع نورا؟». مسح جبهته بيده وسأل بصوت مبحوح خافت:

– ما الذي يدعوك الى الابتهاج؟

رفع جريشكا حاجبيه حتى بلغتا شعر رأسه:

– كيف؟ سنلتحق بالجيش، ونرى الدنيا، يا ابله. اما هنا فماذا تمتع به النظر سوى الروث؟ وهناك في الجيش، يا صاحبي، تدريبات...

استدار فاسكا على اعقابه وتوجه نحو الجرن مطرق الراس دون ان يلتفت وراءه...

* * *

حينما دمس الليل وقف فاسكا عند الفجوة في سياج بيت اوسيب منتظرا مجيء نورا. جاءت متاخرة، وقد تلفعت بزبون ابيها بعد ان اصابها القر. كانت ترتجف من رطوبة الليل.

تطلع فاسكا الى عينيها، ولم ير شيئا، وبدا له انها بلا عينين، وثمة خواء معتم في انساني العينين القاتمتين.

– ينبغي علي الالتحاق بالجيش يا نورا.

– لقد سمعت بالامر.

– وانت، ما رايك؟ هل ستنتظرينني، ولن تتزوجي شخصا آخر؟

اطلقت نورا ضحكة خافتة. وبدا لفاسكا الصوت والضحك غريبين لم يألفهما.

– قلت لك سابقا، انني لا ألق بالا الى امي وابي... قلت ساتزوجك وهذا ما سافعله... ولكنني الآن لن أتزوجك... الانتظار عامين ليس بمزحة! فانت قد تجد فتاة في المدينة، وعندئذ هل سأبقى عانسا؟ ان فتيات هذه الايام لسن بهذا الغباء!.. اطلب هذا من واحدة اخرى. فلربما تجد واحدة تنتظرك...

تحدث فاسكا طويلا بصوت متلعثم وهازا رأسه. توسل واكد لها واقسم، لكن نورا كانت تقطع عودا جافا بيدها، وتجيب فاسكا بعبارة مقتضبة جافة:

– كلا! كلا.. كلا!..

في نهاية المطاف حنق فاسكا وقال لاهثا:

– حسنا، يا كلبة! ان لم تتزوجيني فلن يتزوجك احد! وان تزوجت رجلا آخر، فستندمين على هذا!

انفجرت نورا قائلة:

– ستكون يدك قصيرة عندئذ... لن تطالني...

– ستطالك يدي في اي مكان!..

قفز فاسكا عبر السياج دون توديعها ومشى في الحديقة ملطخا بالوحل الاوراق الصفراء المتساقطة.

* * *

في الصباح دس في جيب الجاكتة قطعة من الخبز، وسكب دقيقا في الحقيبة، خفية ودون ان تراه امه، وتوجه الى بيت حارس الغابة.

كان رأسه يتدلى ثقيلا بسبب ارق الليل، وسحت الدموع من عينيه المتورمتين، وأحس في جسده كله بوجع حلو وبالم. التف بحذر حول برك الماء ودنا من المدخل. كان حارس الغابة يغترف الماء من البئر.

– اتريد شيئا يا فاسيلي؟

– نعم، سيميون ميخايلوفيتش... اريد الذهاب للصيد آخر مرة قبيل الالتحاق بالجيش.

انحنى حارس الغابة على جنبه الايسر واقترب حاملا الدلو وضيق عينيه:

– هل اصطدت شيئا يوم الاحد الفائت؟

– ارنبا واحدا.

دخلا الى البيت. وضع الحارس الدلو على المصطبة واخرج من الغرفة بندقية رش عتيقة. تطلع فاسكا الى الزاوية عابسا وقال:

– انا بحاجة الى بندقية... لقد شاهدت ثعلبا في منطقة «غور القش».

– بوسعي اعطاءك البندقية... لكن ليس لدي ذخيرة.

– لدي ذخيرتي.

– اذن، خذها. وفي طريق عودتك عرج علي، ارني صيدك.

وحينما انصرف فاسكا هتف الحارس في أثره مبتسما:

– حالفك الحظ!

* * *

في مكان يبعد اربعة فراسخ عن الدسكرة، في الغابة حيث تقوم وهدة ملتوية شديدة الانحدار احدثتها امطار الربيع، حفر فاسكا تحت جذع شجرة مجندلة وفي الطين

الاحمر الزيتي القوام كهفا صغيرا، لا يتسع الا لذئب. ومكث فيه ثلاثة ايام.

في النهار يكون الجو في قاع الغور دافئا طيبا، والروائح مسكرة ومنعشة، وتنبعث رائحة اوراق البلوط المتساقطة. اما في الليل فتبدو الوهدة بلا قاع تحت الاشعة الملتوية المتراقصة للقمر في المحاق. وتسمع في مكان ما اعلاه خشخشة وحفيف وتكسر اغصان، وصوت غامض يبعث على القلق. كما لو ان احدهم يتلصص فوق حافة الوهدة الملتوية ناظرا الى الاسفل. وفي بعض الاحيان كانت الذئاب الفتية تعوي متصايحة بعد منتصف الليل.

وفي النهار طلع فاسكا من الوهدة مجرجرا قدميه متراخيا، ماشيا عبر احراج شجيرات الزعرور الكثيفة وعبر حرج اشجار الجوز العارية وعبر اخاديد تغطيها اوراق برتقالية اللون بطبقة كثيفة. وحينما ومضت صفحة ماء النهر الساكنة عبر ستارة الاغصان التي لم تتساقط اوراقها بعد، ووراءها المكعبات البيضاء لبيوت الدسكرة، احس فاسكا بالم دفين في مكان ما قرب القلب. واضطجع فترة طويلة على الجرف المنحدر، تغطيه الاغصان النامية من اسفل الجذوع، ورأى كيف كانت النساء تسعين في طلب الماء، قادمات من الدسكرة. في اليوم التالي رأى أمه. واراد ان يناديها، ولكن ظهرت عربة من الزقاق. ولوح قوزاقي بسوطه وحدق في النهر.

في الليلة الاولى وحالما استلقى على كومة الاوراق الجافة ذات الخشخشة لم يغمض له جفن حتى طلوع الفجر، — كان فاسكا يفكر، وادرك بانه لم يسلك الدرب الصحيح... بل هو طريق أعوج. ويتعين عليه المضي فيه حتى النهاية سوية مع قطاع الطرق. كما وادرك فاسكا بان الجميع صاروا ضده الآن: نورا، والشباب اقرانه، الذين توجهوا للخدمة في الجيش بمصاحبة الحان الارمونيكا الصداحة، وسيخدمون، وفي اللحظة اللازمة، سيهبون للدفاع عن السوفيتات، اما هو، فاسكا، فعن من سيدافع؟

كان فاسكا يجوب الغابة، وسط الاشجار التي جندلتها العواصف، مثل ذئب طريد، ومثل كلب مسعور سيلقى حتفه برصاصة من ابن دسكرته، هو فاسكا ابن الراعي، والابن القح لسلطة الفقراء.

ما كاد ينبلج نور الفجر حتى القى فاسكا بالبندقية في الوهدة وسار نحو الدسكرة مستحثا خطاه اكثر فاكثر:

«سأذهب، وأسلم نفسي، ليعتقلونني، وليحاكمونني، لكنني سأكون مع الناس. سأتحمل واصبر على حكم أهل دسكرتي!..» — جالت في خاطره هذه الفكرة الساخنة وحتى المؤلمة. بلغ النهر وتوقف. فوراء الرمل واسيجة البيوت كان الدخان يتصاعد من المداخن وينبعث خوار الماشية. سرت قشعريرة الخوف على ظهر فاسكا، وتسللت حتى كعبي قدميه.

«سيصدرون الحكم علي بالسجن ثلاث سنوات.. كلا، لن اذهب».

انكفأ بحدة متراجعا، ومشى في الغابة مثل ثعلب عجوز محنك بخطوات متعرجة هربا من كلاب الصيد.

في اليوم السادس نفد الدقيق والخبز الذي أخذه من البيت. انتظر فاسكا حلول الظلام ووضع البندقية على كتفه، وبلغ النهر بهدوء ساعيا الى عدم الدوس على الاغصان الجافة. نزل الى المخاضة. وكانت هناك آثار عربات على الرمل الرطب والخشن. عبر المخاضة، ومشى في الازقة الجانبية حتى بلغ جرن أوسيب. وكان يبدو نور في النافذة عبر الاغصان العارية لشجرة التفاح.

توقف فاسكا، وغمرته رغبة عنيفة في ان يرى نورا، وان ينحي باللائمة عليها في ما ألمت به من مصيبة. اذ بسببها صار هاربا من الجيش، وبسببها يهلك في الغابة.

قفز فوق السياج، وعبر الحديقة ودنا من المدخل ورفع سقاطة الباب — فوجده مفتوحا. دخل الى غرفة المدخل، فاحاط به دفء البيت، واصابه بالدوار.

كانت ام نورا تعجن الفطائر. والتفتت لدى سماع

صريف الباب، فاطلقت آهة واسقطت لوحة صنع العجين. اما اوسيب الذي كان جالسا عند الطاولة فزمجر، بينما صرخت نورا وانطلقت الى الغرفة الامامية بسرعة خاطفة.

قال فاسكا بصوت مبحوح:

– مساء الخير، هل انتم بخير.

وتمتم اوسيب:

– الحمد لله!

دلف فاسكا الى الغرفة دون ان ينزع قبعته. كانت نورا جالسة على الصندوق وركبتاها ترتجفان بحركة خفيفة.

جلس فاسكا الى جانبها واضعا البندقية بقربه:

– الست مسرورة برؤيتي، نورا؟ لماذا انت صامتة؟

– ما هو الشيء السار؟ – همست نورا بصوت متقطع. ولوحت بيديها وقالت وهي تحبس دموعها: – اذهب من هنا لخاطر الله!.. الميليشيا جاءت من مركز المقاطعة بحثا عن صانعي الخمر بصورة غير قانونية... وسيجدونك... اذهب، فاسكا! رحمة بي!

– وانت هل رحمتيني، ها؟

* * *

ما كاد فاسكا يغلق الباب وراءه، حتى غمز اوسيب الى زوجته، ورمق الى الغرفة الامامية حيث يسمع همس نورا، وقال بصوت مبحوح:

– اسرعي الى سيميون!.. الميليشيا تبيت عنده! ادعيهم الينا فورا.

فتحت ام نورا الباب بهدوء وانسلت عبر الفناء كشبح اسود.

* * *

بلع فاسكا لعابه بجهد وقال متوسلا:

– اعطيني يا نورا قطعة من الفطيرة... انني لم اذق طعاما منذ يومين...

قامت نورا ولكن فتح باب المطبخ آنئذ بعنف ووقفت في المكان المضيء ام نورا حاملة المصباح، وقد انزلق منديلها جانبا وتدلت على جبينها خصلات الشعر المبللة بالعرق، وصرخت بزعيق:

– خذوه، ابن الكلب، ايها الرفاق، رجال الميليشيا!.. ها هو!..

تطلع من وراء كتفها رجل ميليشيا، واراد ان يخطو الى داخل الغرفة، لكن فاسكا اختطف البندقية بقوة، وبحركة جانبية خاطفة ضرب المصباح بعقب البندقية، وبقفزة اضحى عند النافذة، وانتزع الاطار بضربة من قدمه وقفز فسقط بكل ثقله في الحديقة الامامية.

لفح البرد وجهه للحظة. تعالى في البيت ضجيج وصراخ واغلق الباب في غرفة المدخل. قفز فاسكا بخفة فوق السياج، وقبض على البندقية من وسطها وهرول بقفزات الى الجرن. ووراءه وقع اقدام ما وصراخ.

– قف، فاسكا! قف، ساطلق النار!..

عرف فاسكا صوت رجل الميليشيا بروشين، ونزع البندقية من كتفه ماشيا والتفت واطلق النار دون تصويب نحو الهدف. صدرت خلفه اطلاقة الغدارة. و حين قفز فاسكا فوق سياج الجرن، أحس بألم حاد في كتفه اليسرى. وبدا كما لو ان احدهم ضربه ضربة خفيفة بعصا ساخنة. وتغلب على الالم وادار الترباس، وقفزت الخرطوشة برنين، وادخل طلقة وسدد نحو اول شخص لاح بين اغصان شجرة التفاح العارية، واطلق النار.

سمع في اعقاب الاطلاقة كيف صرخ بروشين بصوت ضعيف:

– ابن الكلبة... اصابني في بطني... أوه، يؤلمني...

جرى عبر المخاضة دون ان يشعر ببرودة الماء. وكان رجل الميليشيا الثاني يتعقبه ويدب بقدميه متمهلا. وحينما التفت فاسكا شاهد أطراف معطفه السوداء المتطايرة مع

الريح وفي قبضته المسدس. وانطلقت الرصاصات بصفير مارة به...

تسلق فاسكا الرابية واطلق آخر رصاصة على رجل الميليشيا الذي انكفأ راجعا، بعد ان كف عن المطاردة ومضى مبتعدا عن النهر. ثم فك ازرار ياقة قميصه وأخذ يمص الدم المالح والدافيء فترة طويلة، ثم مضغ كتلة من التراب الذي كان يخشخش في فمه، ووضعها على الجرح، وكز اسنانه لكي لا تنبعث من بلعومه صرخة غير مرغوب فيها.

* * *

في اليوم التالي وعند الغسق جاء الى النهر واستلقى في حرج. كانت كتفه قد تورمت وغدت حمراء مزرقة، وخف الالم، وجف القميص على الجرح، ولم يكن يشعر بالالم الا حينما يحرك يده اليسرى.

بقي راقدا فترة طويلة وهو يبصق اللعاب الذي يسيل باستمرار وشعر بخواء في رأسه، كما في اليوم التالي للسكر. وكان تواقا الى حد القرف لتناول شيئا من الطعام. وصار يلوك القشرة المنتزعة من الاغصان، ومن ثم يبصقها ويتطلع الى كتل اللعاب الاخضر.

هبطت من الجانب الآخر نساء الى النهر، وملأن الدلاء بالماء، وانصرفن بتأرجح. وقبيل ان يدلهم الظلام خرجت من الزقاق امرأة واتجهت الى النهر. نهض فاسكا متكئا على مرفقه، وتأوه من الالم الذي اصاب كتفه فجأة. وقبض بحنق على ماسورة البندقية الباردة.

كانت تمضي نحو النهر ام نورا. وكان منديلها الزغبي يتدلى حتى العينين، وبدا انها كانت في عجلة من أمرها. رفع فاسكا صمام الامان بيد مرتعشة. ومسح عينيه وامعن النظر. «نعم، انها هي». لا يرتدي اي أحد في الدسكرة مثل هذه البلوزة الصفراء البراقة سوى أم نورا.

صوب فاسكا على طريقة الصيادين نحو رأس ام نورا الملفع بالمنديل الزغبي.

– خذي يا كلبة لقاء اخباريتك!

دوى عيار ناري. اسقطت المرأة الدلو واندفعت نحو البيوت بلا صراخ.

– يا للعنة... لقد اخطأت الهدف!..

ومجددا تراقصت امام ابرة النيشان البلوزة الصفراء. وبعد الاطلاقة الثانية استلقت ام نورا على الرمل بتثاقل وتكومت.

عبر فاسكا الى الضفة الاخرى بلا عجلة ودنا من القتيلة ماسكا البندقية بكلتا يديه.

انحنى، وشعر بعرق المرأة الساخن، ورأى فاسكا البلوزة المفتوحة وياقتها الممزقة، ولاحت في الفتحة حلمة وردية ناتئة على الصدر الابيض، وتحتها جرح في الجلد الممزق وبقعة دم حمراء تنسكب على القميص مثل زهرة الخزامى البرية.

القى فاسكا نظرة على الجبين المخفي تحت المنديل فتطلعت اليه عينا نورا الخابيتين.

كانت نورا قد جاءت مرتدية بلوزة امها لجلب الماء.

بعد ان ادرك فاسكا ذلك صرخ، ورمى بنفسه على الجسد الصغير الهامد المتكوم على الارض وصار يعول عويلا مديدا كالذئب. وانذاك كان القوزاق قد جاءوا من الدسكرة ملوحين بالعصى الغليظة المدببة.

وهرول الى جانب اولهم كلب أشعث صغير وكان يقفز حوله ويحاول جاهدا ان يلعق لحيته.

١٩٢٥

اســاءة

كانت الريح الجافة الساخنة تهب من الشرق فتلوي سيقان الحنطة القصيرة التي لاتبهج الناظرين. وبدأت السماء بالاسوداد مثل الميت، واحرقت اشعة الشمس الاعشاب، وتصاعدت في الطرق سحب الغبار الرمادي، وتشققت قشرة الارض المحروقة، اما الشقوق العارية القاتمة العميقة، كالتي تبدو على شفتي انسان يحتضر عطشا، فتنبعث منها روائح مالحة من اعماق الارض.

زحف الجفاف من الجنوب، من جانب البحر الاسود، وداس على القمح بسنابكه الحديدية.

كان الناس في عزبة دوبروفنسكي يعانون شظف العيش آملين بحلول موسم الحصاد الجديد. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ويتطلعون الى السماء الزرقاء الزجاجية، والى الشمس المشعة الشبيهة بسنبلة حنطة حانية ذات شوارب، محاطة بهالة شائكة من الاشعة.

احترق الامل سوية مع الحنطة.

في آب بدأوا بنزع قشرة الدردار والبلوط، فيطحنونها ويأكلونها بخلط الكثير من عجينة البلوط مع حفنة من دقيق الدخن.

قبيل عيد الشفاعة اقتاد ستيبان ثوريه، وقد اضناه الجوع، الى قطعة ارضه. وربطهما الى المحراث، وكشر

عن نواجذه بعذاب، وعض اطراف شفتيه الزرقاوين الجافتين الخشنتين، وأمسك بذراعي المحراث صامتا بكرب.

حرث عشرة هكتارات خلال اسبوع. وبرزت في الارض خطوط ناتئة معوجة وقبيحة، ذات رقع صغيرة بنية اللون من الارض غير المحروثة بينها، كما لو انه لم تحرث سكاكين المحراث تلك الارض المغطاة بالعشب، بل اصابع متلوية ضعيفة لانسان ما...

لقد ذهب ستيبان الى الارض الغادرة لتقديم آيات الطاعة لانه كان لديه الى جانب امراته العجوز ثمانية افواه هم افراد عائلة ابنه الذي قتل في الحرب الاهلية. اما العمل فيؤديه وحده هو الذي ينوء كاهله بثقل خمسين عاما شاقة من عمره قضاها في العمل. وحينما انهى الحرث باع الزوج الثاني من الثيران ولم يبعها، بل قل وهبها الى مشتر «كريم» لقاء اربعين بودا من الحنطة غير النظيفة.

وبعد فترة قصيرة من عيد الشفاعة اعلن رئيس مجلس العزبة قائلا:

— ستقدم سلف من البذور. وبحلول الخريف سترد رخصة من مركز الاقليم، وعندئذ سنذهب الى المحطة لاستلام البذور. لذا يجب على كل من لم يحرث الارض بعد ان يفعل ذلك. وافعلوا هذا ولو باسنانكم، فلابد من حرث الارض.

فدمدم القوزاق قائلين:

— خداع... لن يعطونا شيئا!

— لقد تلقيت تبليغا بذلك، وكل شيء على مايرام وبدون اية احتيالات!

وقال ستيبان يتنازعه الشك والفرح:

— انهم يعرفون كيف يأخذون، اما العطاء...

كان فكره يتأرجح بين التصديق والتكذيب.

انصرم موسم الخريف. وغمر العزبة الثلج، وظهرت آثار الارانب في الحدائق المنزلية الخاوية.

ومانفك ستيبان يضايق رئيس المجلس سائلا:

– هل سيعطون البذور؟

بينما لوح هذا بيده غاضبا:

– دعني وشاني، ياستيبان بروكوفيتش! لم نستلم الرخصة بعد.

– ولن تاتي! ولا فائدة من الانتظار! ارادوا ابقاء الناس على قيد الحياة، فاعطوهم شيئا من الأمل. والقوه اليهم... كما يلقون العظم الى كلب. – وهز قبضته البارزة العظام بعنف. – ليذهبوا، اولاد الكلاب، الى جهنم! انهم في المدينة يملكون الطعام الوفير، اللعنة على امهاتهم!..

– لا تفحش في القول يا بروكوفيتش! ستعاقب على مثل هذا الكلام!

لوح ستيبان بيده وقال:

– ايه!.. – ودون ان يواصل الحديث حمل من مقر المجلس جسمه الهزيل البارز العظام. كان يشبه ثورا سقيما: ويبرز من تحت سترته القصيرة المرقعة عظما لوحي كتفيه الكبيرين، وتتدلى فوق ساقيه الطويلتين سرواله المهلهلة ذات الشريطين الجانبيين. وشابت لحيته الحمراء خيوط رمادية خضراء بينما يتطلع بعينين متوحشتين جانعتين جانبا، وكان يخجل من جسمه المفرط الضخامة والذي اصابه الهزال فغدا مثل عود الخشب. عاد الى البيت واستلقى على المصطبة.

ونخسته زوجته بقولها:

– هيا، نظف حظيرة الماشية. مالك ترقد هنا، يابليد!

– بوسع فاركا القيام بذلك.

– ليس لديها ما تنتعله للخروج.

– دعيها تلبس جزمتي.

سحبت الصبية اليافعة فاركا جزمتي جدها من قدميه وخرجت لتنظيف حظيرة الماشية، اما هو فرقد مستلقيا ناشرا قدميه العاريتين الطويلتين، وغالبا ما كان يرف جفني عينيه المغمضتين، ويتنهد، ويتنحنح، وتراوده افكار

ثقيلة غير بهيجة. وعند العشاء تصدر المائدة، مخيما فوقها بجسده الضخم البارز العظام، وتطلع متفحصا احفاده الذين ازدحمت بهم المصاطب. ولاحظ ان اصغرهم تيموشكا البالغ العام الثالث من العمر يتحايل، ويجاهد مبتسما في اصطياد قطعة بطاطس عائمة في الحساء تتملص منه في الوعاء. فضربه الجد بالملعقة على جبهته بحدة.

– كفى اصطيادا!

كان الناس في العزبة يموتون، وتخور قواهم لاقتصار طعامهم على الخبز المصنوع من لحاء شجر البلوط، مثلما تنخر الاشجار بالدود. وكانت توقظ ستيبان في الليالي الكآبة القاتمة: لن تكون هناك بذور للارض التي حرثها.

انخفضت قيمة الماشية. وصار يدفع ثمنا للبقرة من خمسة الى ثمانية بودات من الجودار غير المنقى. وفي موسم الميلاد صاروا يتحدثون مجددا عن سلف البذور الموعودة، ثم خمدت الاحاديث مرة اخرى. ولكن الاشاعات ولت مثل الدروب الصيفية التي تزول في اواخر الخريف. ولم تنبعث الا في مطلع الربيع. وفي احدى الامسيات اعلن الرئيس في اجتماع عقد في بيت حارس الكنيسة قائلا:

– لقد جاءت الرخصة. – ولمس باصابعه بلعومه واختتم الكلام بقوله: – بوسعنا الذهاب لاستلام الحبوب غدا ان رغبنا بذلك. يعني انهم لا ينسوننا ايضا... – وتوقف عن القول مغالبا انفعاله.

* * *

تبلغ المسافة من العزبة الى المحطة مائة وخمسين فرسخا. تقسموا الى مجموعات بعد ليلة المبيت الاولى. وسار في المقدمة ذوو المزلجات التي تجرها الخيل. اما العربات التي تجرها الثيران فقد امتدت في خط طويل. ومضى ستيبان مع جاره افونكا، وهو قوزاقي نحيف القوام. ويمر الطريق عبر القرى الاوكرانية. وقطعوا مسافة ثلاثين

او اربعين فرسخا من السهب الذي تخلله التلال فقط حينما أدلهم الليل. وكانت الثيران المنهكة لقلة العلف تسير بخطوات وئيدة وتتكيء بجوانبها التي تبرز منها الاضلاع على عرائش العربات.

قطع ستيبان الطريق كله مشيا على الاقدام، محافظا على قوة الثيران من اجل طريق العودة. وفي ليلة المبيت الاخيرة بمنطقة اولخوفي روغ شدوا الرحال لدى طلوع القمر وبلغوا محطة القطار عند الظهيرة.

عند مستودع الحبوب كانت الخيول المنزوعة العدة تتشاجر مطلقة صهيلا عنيفا. والثيران تخور، وتختلط الصرخات المتعددة الاصوات.

بحلول المساء خرج من بوابة فناء المستودع الوزان المعفر بالغبار وصرخ متطلعا الى المزلجات:

– اهل دوبروفينسكى، تعالوا بمزلجاتكم! اين الرئيس؟

فهتف الرئيس بنبرة عسكرية:

– نعم..

– هل الرخصة معك؟

– بالضبط والتمام.

وبينما كان القادمون سابقا يشدون الخيل الى المزلجات شق ستيبان وافونكا طريقهما الى البوابة. ولكن اعترضهما قوزاقي ضخم اسود الشعر يعتمر قبعة رجال «فرقة حرس الاتامان» وتدلت قلنسوة البرنس على قفطانه، وكان يحاول اقناع الثور الذي يؤرجح برأسه في وضع النير على عنقه.

– هيا.. هيا... يا شيطان! تروو... تروو... قف!..

رجاه ستيبان بقوله:

– افسح الطريق، يا اخي.

– بوسعك الالتفاف.

– اين التف هنا؟ ستتحطم المزلجة!

– ابعد المزلجة! – صاح أفونكا. – انك تسد الطريق، ملتصقا به كدملة في الحجر!.. ايه... يا عم!

لطم رجل الحرس بقبضة ضخمة الثور الحرون، فادخل هذا رقبته المتغضنة في النير جاحظا عينيه المتورمتين الحمراوين.

وصرخ الوزان وهو يلوح بالرخصة واقفا قرب سقيفة الميزان:

– هات المزلجة... هات المزلجة التالية...

وجه ستيبان الثورين خببا، وتوقف الاول عند الميزان. وصار ينسكب في الاكياس دفق الحنطة الذهبية نازلا من القمع الخشبي المطوق بالحديد. وكان ستيبان يمسك اطراف الكيس مختنقا برائحة الحنطة والبهجة ويتطلع بعجب الى وجه الوزان الخالي من التعبير والذي يدوس بخشخشة على الحبوب بلامبالاة بجزمتيه الثقيلتين.

– هذه حصتك... واحد وعشرون بودا.

حاول ستيبان، كالسابق وبتحريك كتفيه، ان يرفع الكيس الذي وزنه خمسة بودات على ظهره وبغتة شعر برجفة عنيفة في الركبتين. وتارجح وخطا متعثرا خطوتين غير واثقتين ثم اتكأ على الباب.

– اسرع!.. لا تقف في الطريق!..

وصار يستحثه القوزاقيون الذين تجمهروا عند البوابة.

– لقد اصابك الانهاك من الجوع يا عم!

– لقد اصاب باروده البلل!

– قف بثبات على الارض والا فستسقط!

– ها... ها... ها!..

– اترك الكيس، دعه لي، سينفعني!

قام رجل الحرس الذي كان يشد نير الثور بالقرب من البوابة بمساعدة ستيبان في نقل الاكياس الى المزلجة، و بعد مجيء افونكا خرج ستيبان الى الساحة. ادلهم الظلام.

واقترح افونكا الذي يرتعش من البرد:

– اسأل احدهم السماح لنا بالمبيت عنده.

– لم لا تفعل ذلك انت؟

– انت يا بروكوفيتش ذو لحية، ومظهرك اكثر وقارا.

مضى ستيبان في الشارع ولم يسمح له بالمبيت في اي بيت.

– ان عددكم كبير هنا في كل يوم!

– لا مكان لدينا. بيتنا مزدحم بساكنيه.

– بوسعكم المبيت الليلة في الشارع.

كان ستيبان يتوسل جاهدا في تحريك شفتيه الباردتين:

– اسمحوا بالمبيت يا اهل الخير، فلن نعمل حفرة في ارضية بيتكم. اين اخلاقكم المسيحية. تذكروا الصليب!

– في هذه الايام نعيش بدون صلبان، بل مع قطع حديد.

– اذهب، يا عم، في طريقك.

خرج ستيبان من فناء البيت الاخير وضرب بعنف الثور البريء بسوطه.

– يا لهم من اناس طيبون، يا افاناسي! يبدو انه يتعين علينا المبيت في العراء.

– حبذا لو اضرمنا النار في بيوتهم من كافة الجهات! هم ذئاب وليسوا بشرا. لا يمكنك ان تطلب منهم ثلجا في عز الشتاء!

فكا وثاق الثيران في ساحة مستودع الحبوب، ورقدا، بصحبة عويل القطارات، فوق المزلجتين الممتلئتين بالاكياس. وسرت همهمة في الساحة، وكان القوزاق الشباب الذين تجمعوا عند مزلجة تقف في الطرف ينشدون الاغاني بانسجام. ثم اخذ احدهم يغني بصوت قوي مشوب ببعض الحشرجة:

جاء القوزاقيون من الجيش
عائدين الى البيت.

بينما كانت الاصوات الاخرى المبحوحة بفعل الريح والبرد تردد وراءه الترجيعة:

على اكتافهم الشارات
وعلى صدورهم صلبان جيورجي!

كان ستيبان يصيخ السمع الى الاغنية ويتحسس بريبة نواصى اربطة الاكياس الممتلئة، وتراءت امام عينيه المغلقتين صورة قطعة الارض المحروثة الكائنة عند «رابية الاتامان»، بينما – هو ستيبان – يغدو ويروح ناثرا بقبضته الحبوب المكتنزة...

* * *

في منتصف الليل هبت من الشمال رياح هوجاء. ومض فوق سقوف عربات القطار القادمة من موسكو بريق الثلج البلوري، ولكن الارض بالقرب من خطوط السكك الحديدية كانت عارية سوداء بسبب الدف، وفاحت منها رائحة الخريف وبداية البرد والفحم الحجري المحترق.

كان مستودع الحبوب ينتصب فوق المدينة ككتلة مربعة وردية وسخة. وعند السياج المصنوع من الالواح الخشبية تزاحمت الثيران بكآبة، وتصاعد في الساحة الغبار الثلجي في دوامات الريح واخذت هذه تولول لدى مرورها على أسلاك التلغراف ولولة رفيعة ونافذة.

استيقظ ستيبان عند اقتراب الفجر حينما غاص برج الدب الاكبر وراء السقف المسطح لمستودع الحبوب. وحرك ساقيه الخدرتين ونهض من المزلجة. كانت الثيران ترقد على الارض بالقرب منها وهي تتنفس بتثاقل، ويغطيها الثلج، وبدت حمولات المزلجات كاكداس التبن السوداء، وتكوم مرتجفا من البرد مثل كلب سائب.

أيقظ ستيبان رفيقه افونكا، فشدا الثيران الى المزلجتين، وانطلقا في الظلام الدامس قبيل الفجر الى خارج المدينة.

صعدا الرابية. وصفرت قاطرة فوق المدينة. ولوح

افونكا، الذى كان يخطو الى جانب ستيبان، بالسوط مشيرا الى خلفه:

– يا له من صوت يصدر عن هذا «الحصان» اللعين! كم من الاف البودات يحمل دون ان تصدر عنه شكوى وتنهدة. بينما حملت أنا عشرين بودا، ويجب علي السير الطريق كله ماشيا على الاقدام. انت لديك على الاقل ثوران فامرك أيسر، اما لدى فانظر – عجل عمره ثلاث سنوات وبقرة! وان ضربتها بالسوط فانها، العاهرة، ترفع ذيلها لكي ينبجس عليك المزيد من النجاسة...

– هيا، امشي ايتها السيدة الانيقة!.. – وبحلق افونكا بعينيه المتورمتين اللتين اصفر بياضهما وضرب البقرة بالسوط بعنف وسقط فوق المزلجة رافعا ساقيه عاليا.

عند الظهر بلغا بلدة اولخوفي روغ. وحينما رأى ستيبان الناس بملابسهم الزاهية تذكر عندئذ فقط انه يوم الاحد. ووصلا الى الكنيسة ثم توقفا.

– يبدو اننا لن نعبر التل... انظر ان الطريق عارية بدون ثلج.

فوافقه افونكا:

– نعم، انها عارية تقريبا... رمال ولا اثر للثلج.

– يتعين علينا طلب مساعدة احدما من اجل ايصالنا الى قمة التل في عربة بعجلات.

– اخبرهم اننا نستطيع ان ندفع لهم حبوبا بالمقابل.

كان ثمانية اوكرانيين يجلسون على اعواد خشبية بالقرب من سياج احد البيوت يقزقزون اللب في شبه غفوة ويلفظون القشور.

اقترب ستيبان منهم ونزع قبعته الرثة:

– صحة طيبة يا اهل الخير.

فاجاب اكبرهم سنا، ذو اللحية التي وخطها الشيب:

– لك العافية.

– هلا تساعدوننا مقابل اجر لنقل الحمولة الى التل؟ هنا رمال عندكم والثلج قليل ومزلجتانا لاتسمران.

فاجاب الاوكراني باقتضاب وهو لا يزال ينثر القشور على لحيته:

– كلا...

– سندفع لكم، بحق المسيح، ساعدونا!

– ليس لدينا جياد.

وتوسل ستيبان اليهم ناشرا يديه:

– أينبغي علينا الهلاك اذن؟

فقال اوكراني آخر، يرتدى قبعة من فرو الارنب، بلا اكتراث:

– هذا ما لا نعلمه...

ران الصمت. ودنا افونكا وانحنى احتراما:

– تكرموا بمساعدتنا!

– اوه، كلا. معنى هذا ان تلقى الجياد أشد عذاب.

اقترب اوكراني شاب طويل القامة يرتدى معطف فرو قصيرا جديدا وذا ثنيات وربت على كتف ستيبان:

– حسنا، يا عم! دعنا نتصارع. فان غلبتني سانقل حمولتك الى التل، والا فلن افعل. ما رأيك بهذا؟

كانت عيناه الرماديتان المدورتان تتراقصان طربا وتغوصان في وجنتيه المكتنزتين الحمراوين.

تفحص ستيبان الاوكراني الضاحك بنظرة ووضع قبعته على رأسه:

– هكذا، يا اخوة. انتم اذن تهزأون بي... يبدو ان مصيبة الغير لا تهمكم!

وضحك الاوكراني الشاب وحاجباه يتراقصان تحت قبعة الفرو:

– دعنا نجرب!

نزع ستيبان قفازيه ورنا الى الكتفين العريضتين لخصمه البارزتين من معطفه:

– هيا، اذن.

– آها... هذه صفقة حقا!

تشبث احدهما بالاخر من الخزام. ودس الاوكراني

اصابعه تحت الطوق القماشي لستيبان وقال متنفسا بيسر وبمرح:

– شد بطنك.

استدارا ببطء وهما يختبران قوة بعضهما البعض. وضيق ستيبان عينيه وكتفه تضغط على صدر خصمه. بينما هذا مد ساقه الى الوراء بعيدا ساحبا نحوه ستيبان لكي يفقده توازنه. قاما بثلاث دورات. واحس ستيبان بان الاوكراني الشاب الشبعان اقوى منه وكان يتصارع بكآبة واثقا من النتيجة.

وفجأة، وبعد ان قر عزمه، سقط على ركبته اليسرى فاصطدم قذاله بشكل مؤلم فوق الارض المتجمدة. اما الاوكراني الذي ركلته قدم ستيبان فقد طار عبره وارتطم بعنف بالارض. واراد ستيبان ان يهب كما كان يفعل ايام شبابه لكن خانته ساقاه، فجثم عليه الاوكراني الذي نهض من رقدته، وضغط على كتفيه فوق الثلج الذى حفرته سنابك الخيل على الطريق.

كان قد احاط بهما الاوكرانيون مقهقهين ومصفقين بقفافيزهم. اما ستيبان الذى صار ينظف القبعة المتسخة فتنهد وقال:

– لو كنت اقل عمرا بعشرة اعوام لطرحتك ارضا...

وقال الاوكراني لاهثا وضاحكا بارتياح:

– حسنا، يا عم، ليكن ماتريد. سانقلك الى التل. فقد دفعت الثمن. اجلب حمولتك الى ذلك البيت.

وضعا اكياس الحبوب فوق عربة عريضة ولسع الاوكراني، الذى تصارع مع ستيبان، بسوطه المزخرف الانيق الجياد الثلاثة الشبعى.

– اتبعاني...

قاما بتحميل الحبوب في المزلجتين فوق قمة التل في مكان يبعد اربعة فراسخ عن البلدة. ظهر الثلج في الطريق، وذاب في بعض الاماكن.

* * *

انهكت الطريق الوعرة الثيران واستنزفت قواها. وكانت المزلجتان تترك خلفهما آثارا لامعة على الارض المتجمدة تشبه الاثار التي يتركها طرف ثوب المرأة الطويل في الطريق الموحل.

بقيت مسافة ثلاثين فرسخا من اجل بلوغ العزبة. واقترح ستيبان على افونكا قائلا:

– دعنا نواصل السير، وبالرغم من الليل فسنبلغ العزبة.

– لا ضرورة للمبيت، ولايوجد لدينا علف، وهذا سيضني الثيران فحسب.

حينما اكفهر الليل بلغوا اطراف الغابة الحكومية. وكانت النجوم المتالقة التي ترصع السماء السوداء الصافية تتلظى بدخان. اصبح الجو باردا. سار في المقدمة ستيبان، ثم نزلا في منخفض صغير. وفجأة برز امام الثورين ظل مائل، وظهر في اعقابه رجل.

– من القادم؟

فقال ستيبان باحتراس:

– نحن من عزبة دوبروفينسكي، قادمون من المحطة.

ثم التفت الى افونكا القادم بالمزلجة الثانية.

– قف!

– باى حق؟..

– قلت، قف!..

اقترب منهما رجل قصير القامة متلفع بقلنسوة برنس. ولمع في يده ذات القفاز مسدس أزرق.

– ماذا تحملون؟

– حنطة، بذور...

وخفق قلب ستيبان وتطلع جانبا فراى عربة كبيرة تجرها اربعة جياد متوجهة نحوهم. ودنا الرجل ذو القلنسوة

قريبا من ستيبان، وضغط بحديد المسدس البارد على صدغه.

– افرغ الحمولة.

– ما معنى هذا؟ – نطق ستيبان بهذه الكلمات لاهثا، واتكا بوهن على المزلجة.

– افرغ الحمولة!..

وهرع من العربة اثنان آخران وهما يصران بجزمهما. وصاح احدهما من بعيد:

– اقتله بالرصاص!..

فضربه هذا بقبضة مسدسه التي مزقت حافة قبعة ستيبان وانغرزت في صدغه. وهوى ساقطا على ركبتيه. وصرخ به الرجل ذو قلنسوة البرنس بجنون منحنيا فوقه:

– افرغ الحمولة!..

ووضع فوهة المسدس على اسنانه. وقال ستيبان منتحبا:

– انها بذور. يا اخوان... اعزائي... آه، – وزحف على ركبتيه مخدشا راحتي يديه على الارض المتجمدة حتى سالت منهما الدماء.

وسقط افونكا بضربة من عقب بندقية اول الرجلين القادمين من جهة العربة. وغطاه بالخيش من المزلجة وقال:

– انطرح هنا ولاتنظر!..

هدرت العربة ثم توقفت بالقرب من المزلجتين. واخذ الرجلان يرميان الاكياس فيها وينخران اجهادا. اما الثالث ذو قلنسوة البرنس فكان يقف فوق رأس ستيبان. وبدت تكشيرة في فمه القليل الاسنان تحت الشارب المتدلي والمغطى بالصقيع.

امر الرابع الجالس عند مقعد سائق العربة قائلا:

– خذ الخيش ايضا.

تململت الثيران ومشت بخفة في الطريق ساحبة

المزلجتين الفارغتين. دنا افونكا من ستيبان الراقد ووجهه الى الارض.

– قم... لقد انصرفوا...

كانت العربة تندفع في الارض العذراء بعيدا عن الطريق ولا يكاد يسمع صوت عجلاتها. نهض ستيبان وابتلع الدم المتدفق من فمه. ورأى شبح العربة بعيدا. وبعد هنيهة انطلق عيار نارى وحيد متردد للتخويف.

– هذا ما خباته لنا... الاقدار... – قال افونكا ذلك بصوت مبحوح وامسك بيده عصا السوط وكسرها وصرخ بصوت حاد: – يا لها من اساءة!..

نهض ستيبان من الارض اشعث الرأس بشع الهيئة، ودار في مكانه بتثاقل في ضوء الهلال الازرق البارد. بينما تطلع افونكا نحوه منحني الظهر، وتراءى امام ناظريه: في الشتاء الماضي اصطاد ذئبا في كمين. وصار الذئب الذى اصابته رصاصة الخردق في جبهته بين العينين المهشمتين يدور بهذه الصورة ايضا عند سياج الجرن ثم همد فوق الثلج الهش مجرجرا قائمتيه الخلفيتين ونازع الموت بصمت وسكوت...

* * *

في الاسبوع الرابع الذى اعقب بدء فترة الصوم خرج أهل العزبة للبذار.

وجلس ستيبان عند المدخل ورسم بالعود شيئا ما فوق الارض الندية اللزقة، ورنا اليها بحنان بعينين سوداوين غائرتين...

مشى طوال اسبوع شاحب الوجه وعازفا عن الكلام. اما عائلته التي كان افرادها يبكون في الايام الاولى لعودته فقد لزمت الهدوء. وكانت تتطلع الى رأس ستيبان المرتعش بفزع وكآبة، والى يديه الخائرتي القوى، وهي تتلمسان على غير هدى طيات شعر لحيته الحمراء. وفي الاسبوع

الذى سبق عيد الفصح ذهب لاول مرة الى «رابية الاتامان». كان الضباب يخيم فوق السهب الذى ينيره ضوء القمر الفضي. وكانت تصرخ في حرج من الاعشاب بقي من العام الماضي ارنبة منادية رفيقا لها. والاعشاب القديمة تنتصب بحفيف مباعدة بادرات العشب الفتي. وسبحت على ارتفاع منخفض الغيوم المتفرقة القليلة، وغطت غرة الهلال، وكانت الاشعة التي تشق طريقها عبر غربال السحب تتلمس الاعشاب الضعيفة النائمة. لم يصل ستيبان الى ارضه بمسافة عشرين خطوة، وتوقف عند «رابية الاتامان».

كانت تمتد على الجانب الآخر الارض المحروثة التي خدعها. وبين الاخاديد تنمو اعشاب الافسنتين القتية النامية، والتوت الاعشاب الزاحفة فوق الارض السوداء. كان ستيبان يخشى الذهاب الى ماوراء الرابية، لرؤية الارض المحروثة السوداء الراقدة كالجثة. فوقف متدلي الذراعين محركا اصابعه، وتنهد وقطعت الحشرجة تنهده...

منذ ذلك الحين صار يخرج في كل ليلة تقريبا من بيته دون ان يراه أحد. فيقترب من الرابية ويشد قميصه على صدره باختناق. بينما ترقد قطعة الارض المحروثة الميتة السوداء، المغطاة بالاعشاب الشعثاء، وتجفف الريح النتوءات البارزة من التراب وتهز اغصان العوسج.

* * *

قبيل عيد العنصرة بدأ حصاد العشب في السهب. واتفق ستيبان مع افونكا للذهاب الى الحصاد. خرجا الى السهب. وفي الليلة الاولى اختفى ثورا ستيبان حينما تركهما للرعي.

بحثا عنهما نهارا وليلة، في كل مكان من منطقة حصاد العشب التابعة للدسكرة، فلم يعثرا حتى على آثارهما. وبحلول المساء عاد ستيبان الى البيت. وارتدى الزبون ووقف عند الباب دون ان تبدر حركة من رأسه.

– سأذهب الى البلدات الاوكرانية. فلا يمكن ان يسرقهما احد، الا من هناك.

قالت العجوز بتململ:

– خذ شيئا من الكعك للطريق.

قطب ستيبان وجهه:

– انا ذاهب!

وخرج ملوحا بعصاه بحركة واسعة ضاربا بها تيجان اعشاب الافسنتين.

في خارج العزبة التقى افونكا:

– هل انت ذاهب الى الاوكرانيين يا بروكوفيتش؟

– نعم، اليهم.

– حسنا، الله معك.

– شكرا، لينقذنا الرب!

وصاح افونكا في اعقابه:

– لقد تركت الحصادة في السهب، وحينما تعود سنجلبها.

لوح ستيبان بيده دون ان يلتفت. عند الظهيرة بلغ عزبة نيجني يابلونوفسكي وعرج على رفيق سلاح خدم معه في الكتيبة فبثه همومه وشرب عنده الحليب. ثم واصل السفر وكان غالبا ما يلتقي باناس في طريقه.

وكان ستيبان يتوقف ويتساءل:

– ألم تروا ثورين احدهما مكسور القرن، وكلاهما احمر اللون.

فيأتيه الجواب بالنفي:

– لم نلاحظ...

– لم نر...

– لم نشاهد مثل هذين الثورين...

وواصل ستيبان يذرع الخطى في الطريق الرمادية الوعرة، ويدق الارض بعصاه. وساح من جسمه العرق وصار يلعق شفتيه، اللتين لفحتهما الرياح، بلسانه الخشن.

وقبيل المساء وعند مفترق طريقين لحق بعربة تنقل

التبن. وكان يجلس فوقه صبي بدون قبعة إشقر الشعر في الثالثة من عمره. وقاد الحصان رجل يرتدي سروالا من الخيش ملوث بزيت ماكينة الحصاد، وعلى رأسه قبعة عمل من القش. لحق به ستيبان وسار بمحاذاته.

– مرحبا!

ورفع هذا قبعة القش العريضة الاطراف بتثاقل باليد التي تحمل السوط.

– ألم يحدث ان ترى ثورين... – بدأ ستيبان الكلام ثم سكت بغتة. وتصاعد الدم الى صدغيه، ثم شحب وجهه عندما تدفق الدم الى قلبه: فقد بدا له تحت قبعة القش وجه مألوف جدا بالنسبة اليه. انه ذلك الوجه الذي غالبا ما يراوده في الليالي المسهدة بلهيب ابيض، ووميض هذا الوجه امامه دون ان يغيب عنه... ومن تحت اطراف القبعة الظليلة كانت ترنو اليه بلا مبالاة عينان متعبتان، دون ان تتعرفا عليه. وتدلى الشارب المتناثر الشعيرات فوق الشفتين المنفرجتين، وفي صف الاسنان الصفراء بسبب التدخين بدت ثغرة سوداء.

– آه... لقد التقينا...

في البداية شحب الجبين الذي لفحته الشمس تحت القبعة شحوبا شديدا، ثم انزلق الشحوب ببطء الى الوجنتين وبلغ الذقن وارتجفت الشفتان.

– هل عرفتني؟

– ماذا... ماذا تريد مني؟.. لم ارك ابدا في حياتي.

– لا؟ وفي الشتاء... من أخذ مني البذور؟..

– لا... لم افعل هذا... يبدو انك واهم...

سحب ستيبان بخفة المذراة البارزة من العربة، وامسك بها بالقرب من الاسنان. وفجأة ركع الاوكراني عند قوائم الحصان المعروق الذي توقف من السير. وتشبث بيديه في التربة وهو ينظر الى ستيبان من اخمص قدميه الى قمة رأسه.

– لقد ماتت زوجتي... بقي لدى هذا الصبي... –

قال هذا بصوت متهدج وبلامبالاة مشيرا الى العربة باصبع يتراقص.

قال ستيبان بصوت مبحوح وكيانه يرتجف باجمعه:

– لم اسأت الي؟

تطلع الاوكراني الى سرواله الخيش بنظرات بليدة واهتز جسده.

– يا عم... خذ الحصان... كنت محتاجا... ها... خذ حصاني... لخاطر الله. سنتفق فيما بيننا... لنتصالح...

كان يردد هذا بصوت متهدج و هو يحفر بقبضتيه تراب الطريق.

واخذ ستيبان يصرخ مقتربا منه رويدا رويدا:

– لقد اسأت الي... الارض ترقد ميتة... ها؟! تحملنا الجوع، وانتفخت بطوننا من اكل العشب فقط!

– دفنت زوجتي... المريضة... ها هو ابني... بلغ الثالثة من العمر في عيد الفصح الاخير... سامحني يا عم! لنتفق فيما بيننا بسلام. ساعيد اليك الحبوب...

كان الاوكراني يهز رأسه بكآبة شديدة شاعر باقتراب منيته، وصار يثرثر مهمهما بكلمات غير مترابطة بلسانه المتخشب ومرتجفا برعب حيواني...

وقال ستيبان بنفس واحد ورسم علامة الصليب:

– صلي للرب!

– قف!.. مهلا... اتوسل اليك باسم الرب!.. ماذا سيحدث للصبي؟

– سآخذه معي... لاتدع قلبك يقلق بشأنه...

– انني لم احمل العلف... وستهلك المزرعة... كيف تستطيع هذا...

رفع ستيبان المذراة فوق رأسه وامسك بها للحظة خاطفة فوق رأسه، وشعر بهدير متزايد في اذنيه، وانزلها بانين في الجسد الناعم المرتجف تحت وقع اسنانها..

وضع حفنة تبن على الوجه الشاحب الملتصق بالارض

ثم تسلق فوق الكدس وحمل على ذراعيه الطفل الغائص في التبن.

وابتعد عن العربة بخطوات ملتوية مترنحا، متوجها نحو البلدة القائمة فوق التل. كان يحتضن الى صدره الطفل المرتجف ويصرف باسنانه ويهمس: «اسكت يا بني... صه!.. صه والا فسيأكلك الذئب! اسكت!».

بيد ان الصبي بحلق بعينيه وصار ينتزع نفسه من يدي ستيبان ويصرخ في العتمة المزرقة التي تغمر السهب الهادىء الوادع: «بابا... بابا... بابا!».

١٩٢٥ او ١٩٢٦

عدو لدود

قبل ان تغيب الشمس البرتقالية غير الدافئة وراء خط الافق الواضح، طلع الهلال الذهبي بثقة في السماء المعتمة من الشرق، فاكسب الثلج الساقط لتوه زرقة خافتة.

كان الدخان يتعالى من المداخن باعمدة ملتوية تختفي في السماء. وغمرت العزبة رائحة العشب المحترق والرماد، ونعيب الغربان جاف مقتضب وواضح. وزحف الليل من السهب فاسبغ على العتمة الوانا قاتمة، وحالما غابت الشمس حتى لمعت فوق شادوف البئر نجمة صغيرة، خجولة ومرتبكة مثل عروس جاء اليها الخاطبون لاول مرة.

بعد ان تناول يفيم طعام العشاء خرج الى الفناء، وزرر معطفه العسكري البالي، ورفع الياقة، ومضى في الشارع بسرعة مرتجفا من القر. وقبل ان يصل الى المدرسة القديمة عرج على زقاق ودخل الى الفناء الاخير هناك. وفتح باب غرفة المدخل واصاخ السمع حيث كانت تصدر من الكوخ همهمة وضحكات. وما ان فتح الباب حتى توقفت الاحاديث. كانت سحب دخان التبغ تتصاعد عند الموقد، وثمة عجل صغير تدفق منه على الارضية الترابية في وسط الغرفة سيل رفيع من البول. وادار راسه ذو الاذنين المتدليتين نحو الباب لدى سماع صريفه وجار جؤارا متقطعا.

– كيف الصحة والاحوال؟

فاجابه صوتان متفرقان:
– الحمد لله!
عبر يفيم بحذر البركة الزاحفة من تحت العجل وجلس على المصطبة. واستدار نحو الموقد حيث جلس المدخنان القرفصاء وسأل:
– هل سيبدأ الاجتماع قريبا؟
– سيبدأ حالما يأتي الآخرون. العدد قليل! – أجابه صاحب الكوخ ولطم بيده العجل ذي القوائم المتباعدة وهو يغمر الارضية الرطبة بالرمل.
اطفأ ايغنات بورشيف سيجارته بالقرب من الموقد وبصق عبر اسنانه لعابا تشوبه الخضرة، وتقدم وجلس الى جانب يفيم.
– اظن يا يفيم انك خير من يشغل منصب الرئيس، وقد بحثنا الامر.
وابتسم ساخرا ممسدا لحيته.
– سانتظر قليلا.
– ولم؟
– أخشى الا نتفق.
– سنتفق بشكل ما... فانت شاب مناسب، وكنت في الجيش الاحمر، وتنحدر من الطبقة الفقيرة.
– انتم بحاجة الى رجل منكم.
– من منا؟
– من اولئك الذين يدين لكم بالطاعة والولاء. لكي يهتم بامر الاغنياء من امثالكم ويرقص على ايقاع انغامكم.
سعل ايغنات ورمق الجالس عند الموقد بنظرة من تحت قبعته الفرو وغمز له.
– انت على حق تقريبا... فنحن لا نحتاج الى امثالك، حتى مجانا!.. فمن يقف ضد اهل البلد؟ يفيم! ومن يقف مثل العظمة في البلعوم؟ يفيم! ومن يتملق الفقراء؟ يفيم، مرة اخرى.
– انني لن اتملق الكولاك!

– نحن لا نرجوك ذلك.
اطلق فلاس تيموفييفيتش سحابة دخان بالقرب من الموقد وتحدث بتحفظ:
– لا يوجد عندنا كولاك في العزبة... ولكن هناك بعض الصعاليك... وسننتخبك يفيم لاداء عمل هام – اما لرعي الماشية، واما لحراسة حقول البطيخ.
لوح ايغنات بقفازه واختنق مقهقها، ومنحنيا على قفاه. وتواصلت القهقهات عند الموقد سوية ولفترة طويلة. وحينما هدأ الضحك مسح ايغنات اللحية المبللة بلعابه وضرب يفيم الشاحب الوجه على كتفه وقال:
– آه، يفيم نحن الكولاك ابناء زنى وغير ذلك، ولكن حالما يحل الربيع يأتي الي جميع فقرائك، وكافة البروليتاريين، وقبعاتهم بايديهم متوسلين: «احرث لنا اكرين من الارض، يا ايغنات ميخايلوفيتش!» و «ايغنات ميخايلوفيتش، اعطنا بالدين مكيالا من الدخن حتى المحصول الجديد». فلم تاتون الي؟ هنا بيت القصيد. وانت تعمل له، لابن الكلب، خيرا، فيكافئك مقابل هذا بكتابة عريضة يقول فيها انك تتهرب من دفع الضرائب كاملة. ولماذا يجب علي ان ادفع الى دولتكم؟ ان كنتم لا تمتلكون شيئا فامضوا سائلين من بيت الى بيت، فلربما سيتصدق عليكم احد ما!
وسأل يفيم وقد التوى فمه متشنجا:
– هل اعطيت الى دونكا فوروبيوفا مكيالا من الدخن في الربيع الماضي؟
– اعطيتها!
– وكم عملت من اجلك مقابل هذا؟
فقاطعه ايغنات بحدة:
– هذا لا يعنيك!
وصرخ يفيم:
– لقد قصمت ظهرها طوال الصيف في حصد العلف لك، بينما عملت بناتها في تنظيف حقلك من الاعشاب الضارة!..

وزعق فلاس من الموقد:

– ومن الذي كتب عريضة ابلغ فيها بصدد اخفاء المساحة الحقيقية للاراضي المزروعة؟

– ان اخفيتم هذا في المستقبل فسابلغ مرة أخرى.

– ستكمم فمك! وعندئذ لن تنبح!

– تذكر، يا يفيم، عندما تقف ضد الناس، فانما تقف ضد الرب.

– ان المجتمع يرتكز على الاغنياء، مثلما تتعلق الاكمام بالمعطف.

لف يفيم سيجاره بيدين مرتعشتين، ورنا من تحت حاجبيه وضحك ساخرا:

– كلا، يا سادة يا كبار، لقد ولى عهدكم. وايامكم معدودة!.. اذ اقمنا السلطة السوفيتية، ولن نسمح بان يداس على الفقراء. ولن يحدث كما في العام الماضي، وآنذاك افلحتم في الاستحواذ على الاراضي الخصبة، بينما تركتم لنا الاراضي الرملية، لكن هذه اللعبة لن تتكرر الآن. والسلطة السوفيتية ليست زوجة ابونا!..

رفع ايغنات يده وقد علت وجهه وجبينه الحمرة وقطب حاجبيه عابسا.

– حذار، يفيم، من العثرة!.. ولا تقف في طريقنا!.. سنعيش كما عشنا دائما، وخير لك ان تنأى جانبا.

– لن انأى.

– ان لم تفعل هذا فسنبعدك، وسنجتثك من الجذور كالعشب الضار!.. انت لست بصديق لنا، ولست ابن بلدنا. انت عدو لدود، انت كلب مسعور!

فتح الباب على مصراعيه، ودلف الى الكوخ مع سحب البخار حوالي اثني عشر شخصا. ورسمت النساء علامة الصليب امام الايقونات، ثم ابتعدن جانبا، بينما نزع القوزاق قبعاتهم، متنحنحين ومزيلين عن شواربهم الدلاتات الجليدية. بعد مضي نصف ساعة، وحينما امتلأت الغرفة

والمطبخ بالناس وقف رئيس اللجنة الانتخابية وراء الطاولة وقال بصوت مالوف:

– اعلن بدء الاجتماع العام للمواطنين في عزبة بودغورنويه. ارجو انتخاب هيئة رئاسة من اجل ادارة هذا الاجتماع.

* * *

في منتصف الليل حينما اصبح الجو خانقا بدخان التبغ، وبدأ المصباح يومض ويخمد، والنساء يسعلن بين الفينة والفينة اختناقا، تطلع سكرتير الاجتماع الى الاوراق بعينين زائغتي النظرات، وصاح:

– ساعلن الآن قائمة الذين انتخبوا لعضوية السوفييت! انتخب باكثرية الاصوات كل من: الاول – بروخر رفاتشوف، والثاني – يفيم اوزيروف.

* * *

دلف يفيم الى الاسطبل ووضع حزمة علف امام الفرس، وحالما داست قدماه درجات الشرفة التي أخذت تصر بالزمهرير صاح الديك في العنبر. وبرقت فوق بساط السماء الاسود نقاط النجوم الصفراء المتراقصة. وومض فوق رأسه برج الثريا. «انه منتصف الليل!» – هذا ما جال في خاطر يفيم حينما وضع يده على المزلاج. ودنا احدهم من الباب مجرجرا قدميه في حذائين من اللباد.

– من هناك؟

– انا، ماشا. افتحي بسرعة!

اغلق يفيم الباب وراءه بقوة واشعل عود ثقاب. زفر الفتيل العائم في وعاء المسرجة ذات شحم الضأن، وانبعث منه الدخان. نزع يفيم المعطف عن كتفيه وانحنى فوق المهد المعلق بالقرب من السرير وانفرجت اساريره وبرزت بالقرب من فمه طية تنم عن الرقة والحنان. وبدرت من

شفتيه المزرقتين بفعل القر الكلمات الحنونة المالوفة. كان طفله البكر، البالغ شهره السادس، راقدا وردي اللون، وسط الخرق، محركا يديه المكتنزتين، وصدره عاريا الى الوسط، وعلى المخدة الى جانبه ثمة كيس رفيع محشو بالخبز الممضوغ.

دس يفيم يده بحذر تحت الظهر الساخن واستدعى زوجته بهمس:

– غيري القماط، شخ الملعون!

بينما كانت تنزع القماط الناشف من فوق الوجاق قال يفيم بصوت خافت:

– ماشا... انتخبت سكرتيرا!

– حقا، وايغنات والاخرون؟

– انهم عملوا المستحيل للحؤول دون انتخابي! لكن الفقراء اعطوني اصواتهم حتى آخر رجل.

– خذ بالك، يفيم، والا ستلاحقك المتاعب.

– المتاعب ليست لي، بل لهم. سيحاولون الآن ابعادي. اذ انتخب نسيب ايغنات رئيسا!

* * *

بعد الانتخابات انقسم اهل العزبة الى معسكرين متخاصمين كما لو قام احدهم بحفر خندق فاصل عبر ارضها. ويضم احدهما يفيم وفقراء العزبة، وفي الآخر ايغنات ونسيبه الرئيس، وفلاس صاحب الطاحونة المائية، وخمسة من الاغنياء وبعض الفلاحين القوزاق المتوسطين.

صرخ ايغنات في الزقاق بانفعال وبصوت مسعور:

– يريدون اذلالنا. انا اعرف مقصد يفيم. فهو يريد الهبوط بالجميع الى مستوى واحد. أو لم تسمعوا ما قاله لدى الاسكافي فيدكا؟ لقد قال: ستغدو الحقول عمومية، وسنفلح الارض سوية، ولربما سنشترى جرارا... اوه، كلا! اقتن، اولا، اربعة ازواج من الثيران، وبعد ذلك حاول ان

تتساوى معي. بينما ليس لديه اية ماشية سوى القمل في السراويل. انني ابصق على جرارهم! ان اجدادنا دبروا امورهم بدونه!

حدث مرة في مساء يوم الاحد ان اجتمع حشد من القوزاق بالقرب من فناء بيت ايغنات. ودار الحديث عن تقسيم الارض في الربيع. وكان ايغنات، الذي تناول جرعة خمر بمناسبة العيد، يهز رأسه، ويتجشأ بسبب الخمر المنزلية الصنع، ويلاحق ايفان دونسكوف.

– كلا، فانيا، احكم بنفسك كجار، ما حاجتك مثلا الى ارض بالقرب من بركة بيرينوسني؟ وحق الرب! ان الارض خصبة هناك جدا، وتحتاج الى الحراثة العميقة والعناية اللازمة! وانت كيف تستطيع حرثها بزوج من الثيران فحسب. انت الآن من وجهة النظر السوفيتية، فلاح متوسط، اي مكانك بين يفيم وبيني. حكم عقلك، من انفع لك، هو ام انا؟ اذن، فكر في الامر مليا وبانصاف كجار... فما حاجتكم الى الارض عند «بيرينوسني»؟

دس ايفان اصابعه تحت الحزام القماشي الحائل اللون وسأل بصراحة وبصرامة:

– ما الذي تعنيه وتقصده؟

– بشأن الارض، كما ترى... الارض هناك خصبة جدا.

– برأيك انه بوسعنا بذر البذور ولو على الطين الابيض؟

– ها انت تتحدث مرة أخرى عن الطين... ولم على الطين؟ بالمستطاع تدبير الامر...

– ان الارض عند «بيرينوسني» خصبة... واحذر يا ايغنات ان تغص بهذه اللقمة الدسمة!

استدار ايفان على عقبيه بحدة، وانصرف.

ران صمت حذر على الباقين فترة طويلة.

في ذلك المساء ذاته تحدث يفيم في بيت فيدكا الاسكافي

الواقع في طرف العزبة، نافضا خصلات شعره عن جبهته، وقد تصبب عرقا واحتقن وجهه، وهو يلوح بقبضته بحنق:

– هنا لا تنفع الكتابة، بل العمل. لقد اصبح عدد مراسلي الصحف الريفيين هؤلاء كثيرا كالذباب. ويكتبون في الجرائد الخزعبلات اكثر من الوقائع، فيصيبك القرف احيانا لدى قراءتها. واسأل اي واحد منهم عما انجزه عملا؟ وبدلا من الجأر بالشكوى، واللجوء الى السلطة السوفيتية، كالطفل الذي يلوذ بأمه، يجب اعطاء العين الحمرة الى الكولاك. ما هذا؟ الى جهنم! يجب على الفقراء الا يرضعوا الى الابد الحليب من السلطة السوفيتية، وحان الحين لكي يقفوا على اقدامهم... نعم، بدون مقود!.. لقد اصبحت عضوا في السوفيت والآن لنر الغلبة لمن...

* * *

اكفهر الليل ثقيلا في الازقة والحدائق والسهب، واندفعت الرياح بصفير حاد في الشوارع، وهزت الاشجار العارية المقيدة بالبرد، مسترقة النظر بوقاحة تحت الافاريز، رافعة ريش العصافير الهاجعة بظهور محدودبة، مرغمة اياها على ان تحلم بقيظ حزيران، وحبيبات الكرز الناضجة التي غسلتها قطرات الطل، وديدان الروث، وغيرها من الاشياء اللذيذة التي لا نحلم بها نحن البشر ابدا في ليالي الشتاء.

بصيص سجاير يومض في الظلام قرب حاجز المدرسة. وفي بعض الاحيان تنتزع الرياح الرماد مصحوبا بشرارة وتحملها الى الاعلى برعاية وحنان، حتى تخمد الشرارات، وحينئذ يخيم الظلام مجددا فوق الثلج البنفسجي القاتم. الظلام والهدوء، الهدوء والظلام.

ثمة رجل يرتدي معطفا قصيرا من الفرو غير مزرر ويتكيء على الحاجز، ويدخن صامتا. اما الآخر فيقف الى جانبه، داسا رأسه عميقا بين كتفيه.

لم يعكر اي احد منهما السكون فترة طويلة. بعد فترة قصيرة تبادلا اطراف الحديث. وتحادثا بهمس خافت:

– كيف الحال؟

– انه يقف حجر عثرة. ثمة فتاة تعمل لدى حموي وصار قبل ايام يحرضها ضده. ويسأل: «هل وقع عقدا معها؟» فقلت: «لا ادري». اما هو فيقول: «يجب على الرئيس ان يعرف ذلك، ولقاء مثل هذه الامور لن تحظى بالثناء...»

– لنتخلص منه؟

– سنضطر لذلك.

– واذا ما انكشف الامر؟

– يجب اخفاء الآثار.

– متى سنبدأ اذن؟

– تعال وسنتشاور.

– الشيطان يعلم... لربما في هذا مجازفة... قتل انسان ليس بالامر السهل كمضغ لقمة ولفظها.

– لا تكن أحمق! ليس هناك من طريق آخر! او تدري، انه سيدمر العزبة كلها. ولئن سجلنا المحصول كما هو فسيسلخون جلودنا بالضريبة. وهناك مسألة الارض... ايضا. هو وحده الذي يحرض الفقراء... وبدونه سنحكم قبضتنا على هؤلاء الرعاع!..

طقطقت في العتمة الاصابع المستجمعة في قبضة. وحملت الرياح كلمات شتائم بذيئة.

– هل ستأتي، ام لا؟

– لا ادري... لربما سآتي!

* * *

تناول يفيم طعام الفطور وهمّ بالتوجه الى مقر اللجنة التنفيذية حينما رأى ايغنات عبر النافذة.

– ايغنات قادم... ما معنى ذلك؟

قالت الزوجة:

– انه ليس لوحده، معه الطحان فلاس.
دخلا البيت. وبعد رفع قبعتيهما رسما علامة الصليب بهمة:
– صباح الخير...
فاجاب يفيم:
– مرحبا.
– الجو طيب يفيم ميكولائيتش. انه ليوم جميل، الثلج نضر، انه خير وقت لصيد الارانب.
فسال يفيم حائرا في سبب الزيارة:
– ما الذي يحول بينكم وبين الصيد؟
جلس ايغنات وقال:
– لست اصلح لهذا... انت تصلح له. انها رياضة الشباب، لتأت الي وتأخذ الكلاب، وتنطلق في السهب. في الامس اصطادت الكلاب نفسها ثعلبا بالقرب من الحدائق.
فتح فلاس معطفه الفرو وجلس على السرير وسعل وهو يؤرجح المهد.
– جئناك، يفيم، في قضية.
– تكلما!
– سمعنا انك تريد الانتقال من عزبتنا للعيش في الدسكرة، هل هذا صحيح؟
وسال يفيم متعجبا:
– انني لا اعتزم الانتقال الى اي مكان. من اخبركم بهذا؟
فرد فلاس متهربا:
– سمعنا من الناس.. وجئنا من اجل هذا الغرض. ما الذي تجنيه من الانتقال الى الدسكرة، بينما بوسعك شراء بيت صغير مع ملحقاته... وبسعر رخيص جدا.
– اين مكانه؟
– في كالينوفكا. يباع بثمن بخس. فان اردت الانتقال بوسعنا مساعدتك باقراضك النقود. كما سنساعدك في الانتقال الى هناك.

ابتسم يفيم:
– هل تودون التخلص مني؟
فهتف ايغنات ملوحا بيده استنكارا:
– هذه خيالات منك!
دنا يفيم مقتربا من ايغنات:
– اليكم ما اقول... انني لن اغادر العزبة الى اي مكان، وانصرفا مع اقتراحكما هذا. انني اعرف خبايا المسألة! ليس بوسعكم شرائي بالمال او الوعود! – واحتقن وجهه بحمرة قرمزية، وتلاحقت انفاسه بصورة متشنجة وصرخ كما لو انه يبصق في وجه ايغنات الخبيث الملتحي: – اخرج من بيتي ايها الكلب العجوز، وانت يا طحان. اذهبا، ايها الوغدان! وبسرعة، قبل ان اطردكما شر طردة!
وقف ايغنات في غرفة المدخل طويلا رافعا ياقة معطف الفرو، وقال موليا ظهره الى يفيم، بلهجة قاطعة وواضحة:
– ستذكر هذا، يفيم. ان لم ترحل عن طيب خاطر، فلا حاجة لذلك. ستحمل من هذا البيت جثة هامدة!
تشبث يفيم بياقته، بعد ان لم يعد يسيطر على اعصابه، ودفع ايغنات بعنف ملقيا به من شرفة المدخل. وتعثر ايغنات باطراف المعطف، وتكوم بعنف على الارض، لكنه نهض بنشاط وبحيوية الشباب، واندفع نحو يفيم وهو يمسح الدم من شفتيه اللتين جرحتا لدى سقوطه، فاوقفه فلاس ناشرا ذراعيه:
– دعه، ايغنات، ليس هذا اوانه... سيأتي الوقت...
حدق ايغنات في يفيم طويلا، بنظرات ثابتة مترعة بالحقد، وحرك شفتيه، ثم استدار وانصرف دون ان ينبس بكلمة. ومشى فلاس خلفه، مزيلا من معطفه ما علق به من ثلج وهو يلتفت ناظرا بين الفينة والاخرى الى يفيم الواقف على الشرفة.

* * *

قبيل عيد الميلاد هرعت باكية الى فناء بيت يفيم دونكا التي تعمل لدى ايغنات. فسألها يفيم:

– ماذا جرى يا دونياخا؟ من اساء اليك؟

وغرز المذراة في كومة التبن وخرج من الجرن بعجلة. واعاد السؤال مقتربا منها:

– من اساء اليك؟

اما الفتاة التي تبلل وجهها وتورم بسبب الدموع فقد تمخطت في المريلة، ومسحت عينيها بطرف منديل الرأس، وبكت بحشرجة قائلة:

– يفيم، أرحم حالي؟ اوه! اوه! اوه! ماذا سافعل الآن انا اليتيمة؟

وصرخ يفيم بحزم:

– هيا، كفى عويلا! اوضحي كما يجب، ماذا حدث؟

– طردني سيدي من البيت. وقال: اذهبي، لم اعد بحاجة اليك! ولكن الى اين أولي وجهي؟ ستحل في يوم عيد القديس فيليب السنة الثالثة التي اعيش فيها عنده... وسألته اعطائي ولو مبلغ روبل لقاء عملي لديه... فقال: لن اعطيك كوبيكا واحدا! ان النقود لا توجد مرمية على قارعة الطريق، والا لكنت التقطتها بنفسي منها...

قال يفيم باقتضاب:

– هيا بنا الى داخل البيت!

نزع يفيم المعطف بتؤدة وعلقه بمسمار، وجلس عند الطاولة، واجلس الفتاة الباكية أمامه.

– كيف كنت تعيشين عنده، هل بموجب عقد؟

– لا أدري... جئت للمعيشة عنده في سنة المجاعة...

– الم توقعي عقدا، وباختصار، اي ورقة ما؟

– لا... انا أمية، و اوقع اسمي بجهد.

صمت يفيم واخرج من رف الدولاب ربع ورقة للف السلع، وكتب عليها بخط متعرج يبرز فيه كل حرف:

الى المحكمة الشعبية للدائرة الثامنة

عريضة...

* * *

صار ايغنات الذي كان سابقا كبير وجهاء العزبة، يضمر الحقد على يفيم منذ ربيع العام الماضي حينما بعث هذا الى اللجنة التنفيذية للدسكرة بتبليغ ضد الكولاك الذين اخفوا مساحة الارض المزروعة للتهرب من دفع الضرائب. ولم يظهر هذا الحقد علانية باية صورة، بيد انه اخذ منذ ذلك الحين يفعل افعاله القذرة بهدوء وفي الخفاء. ففي اثناء فترة الحصاد سرق التبن من يفيم. وحينما انصرف هذا الى العزبة ليلا جاء ايغنات بعربتين وحمل ما يكاد يبلغ نصف ما حصد من حشائش. وصمت يفيم بالرغم من انه رأى ان آثار العجلات تقود من موقع حصاد حشيشه الى جرن ايغنات مباشرة.

بعد اسبوعين اكتشفت كلاب ايغنات السلوقية في وهدة «كروتوي» وجار ذئاب. وكانت الذئبة غائبة، فاستخرج ايغنات من الوجار دغفلين، ووضعهما في كيس، وبعد ان ربط الكيس في سرج حصانه مضى الى بيته على مهله.

شخر الحصان ورفع اذنيه بخوف واخذيشب في سيره كما لو كان يتأهب للقفز. اما الكلاب السلوقية فكانت تتواثب عند قوائم الحصان وتتشمم الهواء رافعة ابوازها الطويلة، وتوصوص بصوت خافت. بينما كان ايغنات يتأرجح في السرج، وهو يمسد رقبة الحصان، ويبتسم عبر لحيته بتكلف.

أدمس الليل ليحل محل أمسيات الصيف القصيرة حينما هبط ايغنات من الرابية الى العزبة. وتطايرت شظايا الحجارة

لامعة تحت حوافر الحصان. وتململ الدغفلان بصمت في داخل الكيس.

قبيل بلوغ بيت يفيم شد ايغنات العنان وترجل من حصانه فانبعث صرير من السرج، وبعد ان فك الكيس استخرج اول دغفل وقع في يده، وتحسس تحت الفرو الدافيء قصبة الحلق الرفيعة وضغط عليها بابهامه وسبابته، وسمعت طقطقة قصيرة، وتطاير الدغفل ذو الرقبة المحطمة عبر سياج بيت يفيم وسقط بلا صوت في الاشواك الكثيفة. وبعد لحظة سقط الآخر على مسافة خطوتين من الاول.

مسح ايغنات يديه باشمئزاز، واعتلى السرج وضرب بسوطه فاندفع الحصان، بشخير، في الزقاق، وجرت وراءه الكلاب السلوقية النحيلة مسرعة.

في الليل هبطت الذئبة الى العزبة من الرابية، ووقفت بظلها الاسود طويلا بالقرب من الطاحونة الهوائية. كانت الريح تهب من الجنوب، وحملت الى الطاحونة الروائح المعادية والاصوات الغريبة... اطرقت الذئبة برأسها وقربت بوزها من العشب وتسللت الى الزقاق، وتوقفت عند بيت يفيم وصارت تتشمم الآثار. عبرت السياج البالغ ارتفاعه سبعة اقدام وشقت طريقها عبر الاشواك.

ايقظ يفيم صراخ الماشية فاشعل المصباح وهرول الى الفناء. بلغ السقيفة فوجد البوابة مفتوحة جزئيا، وحينما وجه بصيص الضوء الاصفر رأى شاة متكأة على المذود وقد تدلت احشاؤها الزرقاء من بين قائمتيها، والبخار يتصاعد منها. والاخرى راقدة في وسط السقيفة ولم يعد الدم ينزف من بلعومها الممزق.

في الصباح اكتشف يفيم بالصدفة الدغفلين الميتين المرميين. وسط الاشواك وحدس فعلة من كانت هذه. حمل الدغفلين فوق كفة جاروف الى السهب ورماهما بعيدا عن الطريق. بيد ان الذئبة عاودت المجيء الى بيت يفيم، ففتحت ثقبا في سقف العنبر ونحرت البقرة بلا ضجيج واختفت.

حمل يفيم البقرة بعد سلخ جلدها الى الحفرة الطينية التي تلقى فيها الحيوانات النافقة، وتوجه من هناك الى ايغنات مباشرة. كان ايغنات منهمكا تحت سقيفة العنبر بنجر عوارض العربة الجديدة. وحينما رأى يفيم وضع البلطة جانبا وابتسم وجلس منتظرا على عريشة العربة الواقفة تحت السقيفة.

— تعال الى الظل، يفيم!

احتفظ يفيم برباطة جأشه فاقترب وجلس الى جانبه.

— كلابك جيدة، يا عم ايغنات!..

— حقا، يا صاح، ان كلابي غالية الثمن... هيه، «رازبوي»، تعال الى هنا.

قفز من الشرفة كلب عريض الصدر طويل السيقان، وهرول نحو سيده هازا ذيله المعقوف.

— لقد دفعت الى قوزاق عزبة ايلين لقاء هذا «الرازبوي» بقرة مع عجلها. — وابتسم ايغنات بطرف فمه، واردف يقول: — كلب جيد... يصطاد الذئاب...

مد يفيم يده الى البلطة، واخذ يحك رأس الكلب ما وراء اذنيه، ثم عاود السؤال:

— تقول بقرة؟

— بقرة مع عجلها. وهل هذا ثمن؟ انه اغلى ثمنا من ذلك.

وبحركة خاطفة لوح يفيم البلطة وشطر رأس الكلب الى نصفين. وتناثر على ايغنات الدم وقطع المخ الساخن.

نهض يفيم بتثاقل من العربة وقد ازرقت سحنته، ورمى البلطة ودمدم بهمس:

— أرأيت؟

بحلق ايغنات بعينيه وحدق وهو يلهث بسيقان الكلب الملتوية. وقال بصوت مبحوح:

— هل جننت؟

فهمس يفيم بارتعاشة خفيفة:

— نعم، جننت. كان الواجب ان احطم رأسك، يا وغد،

وليس رأس الكلب! من قتل الدغفلين عند بيتي؟ هذه فعلتك. لديك ثماني بقرات... فان خسرت واحدة لاتعتبر الخسارة كبيرة. بينما نحرت الذئبة آخر بقرة لدي. وبقي الطفل بدون حليب!..

خطا يفيم نحو البوابة بخطوات واسعة، ولحق به ايغنات عند بلوغه اياها، وصرخ قاطعا امامه الطريق:

– ستدفع ثمن الكلب يا ابن الكلبة!..

دنا يفيم منه وقال وهو يتنفس في لحية ايغنات الشعثاء:

– ايغنات، لا تمسني باذى. فانا لست من اقاربك المساكين، ولن اصبر على الاساءة. سارد على الشر بالشر! لقد ولى ذلك الزمان حينما كان الناس ينحنون اجلالا لك. ابتعد عن طريقي...

ابتعد ايغنات وصفق البوابة وواصل الشتائم طويلا، وهدد يفيم المنصرف بقبضته.

* * *

بعد حادثة الكلب توقف ايغنات عن مضايقة يفيم. وكان لدى الالتقاء به ينحني، ويزيح بصره جانبا. واستمرت هذه العلاقات حتى صدور الحكم على ايغنات بان يدفع مبلغ ستين روبلا الى العاملة الاجيرة دونكا. وبعد هذا شعر يفيم ان الخطر يتهدده من بيت ايغنات. كان يجرى تدبير مؤامرة. وعينا ايغنات الماكرتان تتطلعان نحو يفيم بابتسامة غامضة.

حدث مرة ان ساله الرئيس في اللجنة التنفيذية بصورة غير مباشرة:

– هل سمعت، يفيم، صدر الحكم على حموي بدفع ستين روبلا؟

– سمعت.

– من الذي علم هذه الغبية – دونكا؟

ابتسم يفيم، وحدق في عيني الرئيس مباشرة:

– الحاجة علمتها. ان حموك طردها من بيته. ولم يعطها قطعة خبز للطريق، بينما عملت دونكا لديه فترة عامين.

– لكننا اطعمناها!..

– وارغمتموها على العمل من الصباح حتى الليل؟

– انت تعرف ان العمل في المزرعة لا يحسب بالساعات.

– ارى انك محب للاستطلاع وتريد ان تعرف من كتب الى المحكمة.

– حقا، بالضبط... من كان بوسعه القيام بهذا؟

فاجابه يفيم:

– انا!

ادرك يفيم من تعبير وجه الرئيس بان هذا لم يكن مفاجأة له.

قبيل المساء أخذ يفيم معه من اللجنة التنفيذية اوراقا والقرار الالزامي للجنة التنفيذية في الدسكرة.

وفكر وهو يمضي الى البيت: «سأستنسخها بعد العشاء». تناول عشاءه، واغلق مصاريع النوافذ من جهة الفناء، وجلس الى المائدة وانهمك في الاستنساخ. ووقع بصره بالصدفة على الاطار العاري للنافذة فقال:

– ماشا، الم تشتري قماشا من اجل ستائر النوافذ؟

ابتسمت الزوجة المنهمكة بالغزل معتذرة:

– اشتريت مترين... لكنك، تعرف، ليس لدينا اقمطة... الطفل يرقد وسط الخرق، لذا صنعت له قماطين.

– لا بأس... مع ذلك اشتري بعضه غدا. فلا يجوز، اذ حينما تفتح المصاريع يرى كل شيء في الداخل.

كانت الرياح ترفع ندف الثلج وراء النافذة المزخرفة بنقوش الزمهرير. وغطت السماء غيوم لا شكل لها وثقيلة. نبحت الكلاب في طرف العزبة حيث تنساب الرابية العريضة نحو البيوت بمنحدرات مغطاة بالحشائش. ومالت اشجار

الصفصاف بانزعاج فوق الجدول شاكية الى الرياح ما تعانيه من برد ومن سوء الطقس، واختلط صريف اغصانها المتأرجحة بضجيج الرياح متحولا الى عويل متناسق واجش.

كان يفيم يغمس ريشته في المحبرة المصنوعة يدويا ذات الحبر المستحضر من ثمار البلوط وبين الفينة والفينة يتطلع الى النافذة التي بدا ان المربع الاسود الابكم لها ينطوي على خطر صامت. كان يحس بالسقم. بعد ساعتين صدر صريف عن مصراع النافذة من الخارج وفتح قليلا. ولم يسمع يفيم الصريف، ولكنه عندما نظر الى النافذة على غير هدى تجمد رعبا. فقد كانت تحملق فيه عينان رماديتان مألوفتان لديه من الفتحة الضيقة وسط زخارف الزمهرير. وبعد لحظة برزت فوهة بندقية في مستوى رأسه وراء الزجاج كما لو كانت تصوب نحو الهدف. جلس يفيم وقد اتكأ الى الجدار واصابه الشحوب. كان اطار النافذة غير مزدوج، وسمع بوضوح قرقعة الزناد. ارتفع الحاجبان فوق العينين الرماديتين باندهاش... فلم تنطلق الرصاصة. وفي لحظة اختفت الدائرة السوداء وراء الزجاج. وطقطق الترباس بوضوح – غير ان يفيم نفخ على اللهب بعد ان ثاب الى وعيه. وحالما لحق بانزال رأسه انطلق عيار ناري وراء النافذة. وتطاير الزجاج. واصطدمت الرصاصة برنين على الجدار ناثرة فوق يفيم شظايا الجص.

اندفعت الرياح عبر النافذة المحطمة، وغطت المصطبة بغبار ثلجي، وصرخ الطفل بقوة في المهد. واصطفقت مصاريع النافذة.

زحف يفيم على الارض بهدوء، وبلغ النافذة ماشيا على اربع.

– يفيموشكا! حبيبي! الهي!.. يفيموشكا!.. – اخذت الزوجة تعول في السرير، لكن يفيم صر على اسنانه ولم يرد عليها. واستحوذت على جسمه رجفة. نهض وتطلع في النافذة المحطمة. ورأى كيف هرول احدهم في الشارع خببا وقد لفه الغبار الثلجي. استند يفيم على المصطبة وانتصب

واقفا بكل قامته، ومن جديد هوى الى الارض بسرعة، فقد برزت من المصاريع نصف المغلقة ماسورة بندقية وهدرت اطلاقة... غمرت البيت رائحة البارود المحترق.

* * *

في الصباح بدا يفيم شاحبا هزيلا بعد تلك الليلة، وخرج الى الشرفة. كانت الشمس تضيء بنور ساطع، ويتصاعد الدخان من مداخن البيوت، وتعول الماشية عند النهر حيث اقتيدت لشرب الماء. وبرزت على الشارع آثار حديثة لمزلجات وزحافات. والثلج الجديد يبهر الابصار ببياضه الناصع. كان كل شيء اعتياديا مألوفا وعزيزا، وبدت ليلة امس الى يفيم مثل الكابوس. وعثر في الثلج بين الحطام امام النافذة المكسورة على خرطوشتين فارغتين ورصاصة ذات نتوء اسود فوق الكباس. قلب طويلا في يديه الرصاصة الصدئة وجال في فكره: «لولا كبو البندقية، ولو لم يكن شريط الرصاص رطبا، للقيت حتفك، يا يفيم».

كان الرئيس قد جلس في مكتبه. ولدى سماعه صرير الباب رمق يفيم بنظرة خاطفة، وانحنى مجددا فوق الجريدة.

خاطبه يفيم بقوله:

– رفاتشوف!

فرد عليه هذا دون ان يرفع رأسه:

– نعم؟

– رفاتشوف! انظر الي!..

رفع الرئيس رأسه كارها، وتطلعت نحو يفيم مباشرة عينان رماديتان متباعدتان عن بعضهما البعض تحت حاجبين ملتويين.

– هل انت، يا وغد، اطلقت علي النار ليلا؟

ضحك الرئيس بشكل مصطنع وقد علت وجهه الحمرة:

– ماذا؟ هل انت مجنون؟

تراءت امام ناظري يفيم ليلة امس. النظرة الثقيلة

الثابتة وراء النافذة، الفوهة السوداء للبندقية، صرخة زوجته... لوح يفيم يده متعبا وجلس على المصطبة وابتسم:

– لم تفلح الخطة. الذخيرة رطبة. اين اخفيتها؟ لابد وانها كانت في الارض؟

تملك الرئيس اعصابه كليا واجاب ببرود:

– انا لا اعرف عم تتحدث... لابد وانك شربت اكثر مما يجب...

اجتاح العزبة كلها بحلول الظهر نبأ اطلاق النار على يفيم ليلا. وتجمع الفضوليون بالقرب من بيته. واستدعى ايفان دونسكوف يفيم من اللجنة التنفيذية وسأله:

– هل ابلغت الميليشيا؟

– لدي متسع من الوقت...

– لا تخف، يا اخي، نحن لن نسمح بايذائك. لقد بقي مع ايغنات الآن خمسة اشخاص، وكشفنا امرهم. لن يذهب احد وراء الكولاك الآن، وانصرف الجميع عنهم... كفى!

حينما اجتمع الشباب عند الاسكافي فيدكا في المساء واحتدم الحديث كالعادة مصحوبا بدقات مطرقته جلس الى جانب يفيم احد اقرانه واسمه فاسكا اوبنيزوف وهمس وهو يحتضن يفيم من كتفه:

– تذكر يفيم، ان قتلوك فسيأخذ محلك عشرون يفيما آخر. افهمت؟ اقول لك الحق! كما في حكاية الجبابرة: حينما يقتلون احدهم يظهر اثنان محله... ولكن عندنا لن يكونوا اثنين، بل عشرين!

* * *

توجه يفيم الى الدسكرة في الصباح. وزار اللجنة التنفيذية ورابطة القروض وانتظر في الميليشيا بعض الوقت كبير رجال الميليشيا. وحينما انهى اعماله ادلهم الظلام.

غادر الدسكرة ومضى عائدا الى البيت في الطريق الجليدي الاملس فوق الجدول. وازدادت عتمة المساء. ووخز الزمهرير وجنتيه بصورة خفيفة. وفي الجهة الغربية بانت زرقة الليل معادية. ظهرت العزبة وراء المنعطف، صفوف قاتمة من المباني. فحث يفيم الخطى وحينما التفت وراءه شاهد ثلاثة اشخاص يسيرون متلازمين على مسافة مائتي خطوة تقريبا.

قاس يفيم بنظره المسافة حتى العزبة ومضى ماشيا بخطوات اسرع. بيد انه عندما التفت بعد لحظة رأى ان السائرين وراءه لم يتوقفوا بل بدا وكأنهم بدأوا يقتربون منه. فتملكه الخوف واخذ يعدو خببا. كان يركض كما في التدريبات العسكرية وقد ضم راحتي يديه على جانبيه بشدة وهو يستنشق الهواء البارد عبر انفه. اراد الصعود الى الضفة لكنه تذكر بان الثلج عميق هناك، وصار يعدو فوق الجدول مجددا.

حدث انه لم يسيطر على حركته فزلق وسقط دون ان يعدل قامته. وحينما نهض تطلع الى الخلف – كانوا قد لحقوا به... سار الاول بمرونة وخفة، ملوحا بيده بركيزة سياج.

تملك الرعب يفيم وكاد يصرخ طالبا النجدة. بيد ان المسافة الى العزبة كانت تربو على الفرسخ. ولن يسمع الصرخة احد بالرغم من كل شيء. وبعد ان ادرك يفيم هذا في لحظة خاطفة اندفع راكضا الى الامام صامتا محاولا كسب ما فقده من وقت ابان سقوطه. وخلال عدة لحظات بدا وكأن المسافة بينه وبين اول الثلاثة لم تتقلص. ثم التفت فرأى ان مطارديه يلحقون به. فاستجمع كل قواه واندفع بخطوات أسرع. وعندئذ بلغ سمعه صوت جديد، اذ كانت تنزلق بسرعة ركيزة السياج فوق الجليد، وسقط يفيم بتأثير الضربة. وحينما نهض هرول مجددا، وتذكر للحظة انه هرول بهذه الصورة ايضا بالقرب من مدينة

تساريتسين حينما طاردوا البيض في اثناء الهجوم. وكان صدره ساعتئذ يختنق هكذا ايضا...

اسقطت الركيزة يفيم ارضا مرة اخرى بعد ان رمتها يد قوية. ولم ينهض... وعاجله احدهم بضربة قوية من الخلف القته جانبا. واستجمع يفيم كل ارادته بقبضة حديدية وجثم على اربع لكنهم القوه على ظهره.

«يبدو ان الجليد ساخن...» – ومضت هذه الفكرة في رأسه. وحينما تطلع يفيم جانبا شاهد عند الضفة قصبة مكسورة. «كسروني انا أيضا...». وعلى الفور طافت في وعيه الخابي الكلمات النارية: «تذكر، يفيم، ان قتلوك فسياخذ محلك عشرون يفيما آخر... كما في حكاية الجبابرة...»

كان ينبعث من مكان ما في حرش القصب هدير مديد ومتواصل... ولم يتحسس يفيم كيف ادخلوا في فمه الركيزة كاسرين اسنانه وممزقين لثته... لم يتحسس كيف انغرزت المذراة في صدره والتوت لدى اصطدامها بالعمود الفقري...

* * *

توجه ثلاثة رجال مسرعين الى العزبة وهم يدخنون، وانطلقت كلاب سلوقية وراء احدهم. وتعالت عاصفة ثلجية، وتساقط الثلج على وجه يفيم و لم يعد يذوب فوق الوجنتين الباردتين حيث جمدت قطرتان من الدمع تعبران عن ألم لا يطاق ورعب.

١٩٢٦

المهر

خرج من رحم امه في وضح النهار، وقد اشرأب بعنقه ومد ساقيه الاماميتين، الى جانب كومة من الروث ازدحم فوقها حشد من الذباب الزمردي، فرأى فوقه مباشرة سحابة رمادية زرقاء ناعمة ومتبددة احدثها انفجار قنبلة شظايا، وطرح ارضا بالهدير الداوي وسقط بجسده المبلل عند قوائم امه. كان الذعر اول شعور احس به هنا، على الارض. تساقط سيل الشظايا الكريهة الرائحة فوق السقف القرميدي للاسطبل مولدا قرقعة. وتخدشت الارض هنا وهناك وارغمت ام المهر، فرس تروفيم الحمراء، على النهوض، مع صهيل مقتضب، لكي تهوى مجددا على جانبها المغطى بالعرق، فوق كومة الروث المنقذة.

كان طنين الذباب يسمع بوضوح اشد في السكون القائظ الذي اعقب الانفجار. ولم يجرأ الديك على صعود السياج خوفا من القصف المدفعي. وفي مكان ما في ظل اوراق الارقطيون صفق بجناحيه مرة او مرتين وصاح بطلاقة ولكن بصوت اجش. وتردد من الكوخ صوت انين وعويل رجل جريح من رجال المدافع الرشاشة. وبين الفينة والفينة كان الرجل يصرخ عاليا بصوت مبحوح وتختلط صرخاته بالشتائم البذيئة. كما سمع دوى النحل فوق ازهار الخشخاش المخملية الحمراء في الحديقة الصغيرة الامامية. وكان ثمة مدفع رشاش يلعلع بآخر الرصاصات

في الشريط في مكان ما وراء الدسكرة. بينما كانت الفرس الحمراء تلحس وليدها البكر بحب وسط طقطقة المدفع الرشاش المرحة المجلجلة وفي الفترات بين اطلاقتي المدافع الاولى والثانية. اما هو فكان بعد بلوغه ثدي امه المكتنز قد ارتشف لاول مرة رحيق الحياة وتذوق حلاوة حنان الامومة اللامتناهي.

حينما هدرت القذيفة في مكان ما وراء الجرن خرج تروفيم من الكوخ وصفق الباب، وتوجه نحو الاسطبل. استدار حول كومة الروث وغطى عينيه براحتيه من نور الشمس. وعندما رأى المهر يمتص بنهم ضرع فرسه الحمراء اخذ يبحث بارتباك عن شيء ما في جيوبه. وتحسس باصابع مرتجفة كيس التبغ، وبعد ان بلل طرف ورقة لف السجاير استعاد هبة الكلام:

– هكذا... اذن ولدت، لقد اخترت وقتا مناسبا حقا لهذا؟ – واتسمت العبارة الاخيرة بشعور من الاساءة المريرة.

كانت قد التصقت بجانبي الفرس الخشنين بسبب العرق الحشائش والبراز الجاف. بدت هزيلة جدا ومتعبة مكدودة. غير انه ارتسمت في عينيها فرحة غامرة فخورة، مشوبة بالكلال. وانفرجت شفتاها المخمليتان عن ابتسامة. هكذا تراءى لتروفيم على اقل تقدير. بعد ان شخرت الفرس في المخلاة المعلقة في عنقها داخل الاسطبل، اتكا تروفيم على اطار الباب، ورمق المهر بنظرة جانبية وخاطب الفرس سائلا:

– أهذه نتيجة انغماسك في الملذات؟

ثم اردف دون انتظار الجواب:

– على الاقل لو انجبت من جواد ايغنات، بدلا من هذا الذي لايعرف الشيطان أصله... وماذا تتوقعين ان اعمل به؟

كانت تسمع خشخشة الحبوب في هدوء الاسطبل القاتم، وانغمرت من فتحة الباب دفقات اشعة الشمس

الذهبية. تساقط الضوء المائل على الخد الايسر لتروفيم. وشابت الحمرة شواربه الصهباء وذقنه غير الحليقة. وبدت التجاعيد القاتمة حول فمه كأخاديد ملتوية. كان المهر يقف على قوائمه الرفيعة الناعمة الشعر مثل لعبة خشبية تمثل حصانا.

– هل أنحره؟

قال تروفيم هذا مشيرا الى المهر باصبعه الضخم المصطبغ بخضرة التبغ.

دحرجت الفرس حدقة عينها المحتقنة بالدم وغمزت ورنت الى صاحبها باستهزاء.

* * *

في ذلك المساء دار في الغرفة التي يشغلها قائد سرية الخيالة الحديث التالي:

– لاحظت ان فرسي تلتزم الحذر، فلا تعدو خببا، ولا تجرى بسرعة، وتلهث باختناق. ولدى الفحص تبين انها تنتظر مولودا... ما اكثر حرصها، وحذرها. والمهر – كميت... هذه القصة... – هذا مارواه تروفيم.

امسك القائد بقبضة يده قدح شاي نحاسي بقوة كما لوكان مقبض سيف قبيل الهجوم. وتطلع بعيون مسهدة الى المصباح. وكانت تحوم حول اللهيب الاصفر فراشات موبرة، بحركات مسعورة. وحينما تحلق عبر النافذة تحترق على زجاج المصباح، وتأتي اخرى لتحل محلها.

– ... لايهم. كميت او أسود، فالامر سيان. لتطلق عليه رصاصة. سنكون بمصاحبة المهر مثل الغجر.

– ماذا؟ اقول، مثل الغجر. واذا ما جاء القائد العام الينا، فماذا سنفعل آنذاك؟ فسيأتي لتفتيش الفوج بينما هذا المهر يتلاعب امام الصف، ويهز ذيله... ها؟ سيحل بنا العار امام الجيش الاحمر كله. انني حتى لا افهم يا تروفيم كيف سمحت بحدوث هذا الامر. ففي اوج الحرب

الاهلية يجري مثل هذا الانحلال... لابد وان تخجل من نفسك. هناك امر صارم الى سائسي الخيول بوضع الفحول على انفراد.

خرج تروفيم من الكوخ صباحا حاملا بندقيته. ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد. وبدت قطرات الطل على الاعشاب بلون وردي. كان المرج الذي دعكته جزم المشاة وحفرت فيه الخنادق يشبه وجه فتاة باكية تمزق فؤادها جائحة ما. انشغل الطباخون في العمل بالقرب من المطبخ الميداني، وجلس قائد سرية الخيالة على الشرفة في قميصه الداخلي المتيبس بالعرق القديم. واصابعه، التي اعتادت البرودة المنعشة لحديد مقبض المسدس، تستعيد امورا منسية وعزيزة، فانهمكت في حياكة مقشدة جميلة. وحينما مر تروفيم به تساءل:

– هل تحوك مقشدة؟

همهم القائد بين اسنانه، وهو يصنع المقبض من العود:

– ربة البيت هنا طلبت مني ذلك... والحت علي في الطلب... في ايام زمان كنت استاذا في الصنعة اما الآن فانني فقدت المهارة!

أثنى تروفيم عليه بقوله:

– لا... لا بأس!

نفض القائد عن ركبتيه قطع العيدان وسأل:

– هل انت ذاهب للاجهاز على المهر؟

لوح تروفيم بيده صامتا ودلف الى الاسطبل.

اطرق القائد برأسه منتظرا الاطلاقة. مرت لحظة... واخرى دون ان يسمع صوت الاطلاقة. وخرج تروفيم من الطرف الآخر للاسطبل وبدا عليه الارتباك لامر ما.

– ماذا جرى؟

– لابد وان ابرة اطلاق النار تالفة. اذ ما انفك مسمار الكباس يكبو!

– هات البندقية!

فمد تروفيم بندقيته عن كره. وحينما ادار القائد الترباس عبس، وقال:

– ولكنها غير معبأة!

هتف تروفيم بحماس:

– غير ممكن!

– اقول لك، انها فارغة!

– آه!.. انني تركت الرصاص هناك... وراء الاسطبل...

وضع القائد البندقية جانبا، وادار المقشدة الجديدة بيده فترة طويلة. كانت العيدان النضرة تعبق برائحة العسل ولزقة. وبلغ منخريه اريج الصفصاف المزهر، ورائحة الارض والعمل المنسيين في حريق الحرب الذي لا تخمد نيرانه...

– اسمع!.. دعه الى الشيطان! ليحيا مع أمه مؤقتا. وما الى ذلك. وحينما تنتهي الحرب ستمكن الاستفادة منه في الحراثة. اما القائد العام فسيفهم الوضع، الرضيع يجب ان يرضع الحليب... والقائد العام نفسه رضع الحلمة ونحن ايضا، وما دامت المسألة هكذا فلنحسم الموضوع. اما مسمار مكبس بندقيتك فليس عاطلا.

* * *

حدث بعد شهر ان خاضت سرية خيالة تروفيم معركة مع فصيلة من القوزاق بالقرب من دسكرة اوست – خوبيورسكايا. بدأت الاشتباكات قبيل المغيب. وحينما بدأوا الهجوم غشيت الكون العتمة. تخلف تروفيم عن وحدته بلا أمل بحوالي نصف الطريق. ولم يستطع ان يرغم الفرس على الجري بسرعة، لا بضربها بالسوط، ولا بشد الاعنة حتى سال الدم من فمها. كانت تشمخ برأسها عاليا وتصهل صهيلا مشوبا بحشرجة وتراوح في مكانها حتى يلحق بها المهر ناشرا ذيله. ترجل تروفيم من السرج،

ووضع السيف في غمده، وانتزع البندقية من كتفه وقد التوت سحنته غيظا. كان الجناح الايمن للسرية قد التحم بالبيض عند جرف عال. وصار حشد الفرسان يترجرج ذهابا وايابا، كما لو كانت تتقاذفه الرياح. ودار القتال بصمت لا تعكره سوى الدمدمة الخافتة لسنابك الخيل.

تطلع تروفيم الى هناك للحظة ثم صوب فوهة البندقية نحو رأس المهر. ولا يعرف هل ان يده ارتجفت انفعالا حينما ضغط على الزناد، ام ثمة سبب آخر جعله يخطىء الهدف، لكن حدث بعد انطلاق الرصاصة ان وثب المهر بغنج، وصهل بصوت رفيع، وصار يعدو في دائرة والغبار الرمادي يتصاعد وراءه، ثم وقف على مقربة منه. لقد اطلق تروفيم على الشيطان الاحمر الصغير ليس ذخيرة عادية بل الرصاص المضاد للدروع ذا الاطراف النحاسية الحمراء (وكانت قد وقعت تحت يديه بالصدفة، في حقيبة الذخيرة)، الذي لم يلحق اي اذى بسليل الفرس الحمراء. فركبها وتوجه بها باسرع ما يمكن نحو المكان الذي كان فيه القوزاقيون ذوو اللحى والوجوه الحمراء من المؤمنين بالعقيدة القديمة يضيقون الخناق على قائد السرية وثلاثة من رجال الجيش الاحمر عند حافة المنحدر.

في تلك الليلة توقفت السرية للمبيت في السهب بالقرب من وهدة غير عميقة. ولم يدخنوا كثيرا، ولم ينزعوا الاسرجة عن الخيل، وأبلغت مجموعة الاستكشاف لدى عودتها من الدون انه تحشدت عند موقع عبور النهر قوات كبيرة للعدو.

رقد تروفيم، وقد لف باطراف معطفه المطاطي قدميه العاريتين، وصار يستعيد في ذاكرته في شبه غفوة احداث اليوم المنصرم. سبحت امام ناظريه صورة قائد السرية الذي قفز الى المنحدر، ورجل اشرم، من المؤمنين بالعقيدة القديمة، يبارز المفوض السياسي بسيفه، وقوزاقي نحيف القوام قطع احدهم اوصاله، وسرج احدهم مخضب بالدم. نعم، والمهر...

قبيل حلول الفجر دنا قائد السرية من تروفيم. وجلس الى جانبه صامتا.

– هل انت نائم يا تروفيم؟

– في غفوة.

تطلع قائد السرية نحو النجوم المتلالئة وقال:

– اقتل مهرك هذا! انه يثير الفزع ابان المعركة، وحينما انظر اليه ترتجف يدي ولا استطيع الطعن بسيفي. كل ذلك لان منظره يذكر بالاهل والبيت، وهذا ما لايسمح به في الحرب... اذ يتحول القلب من صخر الى عصيدة. علما بان الخيول لم تدهسه في اثناء الهجوم، بالرغم من سيره في اللجة – وحينما صمت علت اساريره ابتسامة حالمة، لكن تروفيم لم ير هذه الابتسامة. – أو تعرف، تروفيم، ان ذيله.. اي، هو.. انه يرفع ذيله فوق ظهره ويرفس بقائمتيه الخلفيتين، وذنبه كذنب الثعلب. ذنب جميل!..

التزم تروفيم الصمت. غطى رأسه بالمعطف، وارتجف في رطوبة الندى، وغط في النوم بسرعة خارقة.

* * *

يجري الدون بسرعة جنونية مقابل الدير القديم حيث ينحصر النهر تجاه المرتفع. وفي المنعطف تدور المياه في دوامات وتدفع الموجات الخضراء ذات الاعراف بسرعة فائقة الكتل الطباشيرية المتناثرة بالقرب من الماء منذ حدوث الانهيال الربيعي. لو لم يسيطر القوزاق على عطفة النهر حيث التيار اضعف والدون اوسع واكثر وداعة، ولم يبدأوا من هناك بقصف التلال السفحية، لما اقدم القائد على توجيه السرية للعبور في المنطقة المقابلة للدير.

بدأ العبور عند الظهر، وحمل طوف صغير عربة مدفع رشاش واحدة مع الطاقم وثلاثة جياد. وفزع الحصان الطرفي الايسر، الذي لم ير الماء من قبل، حينما استدار الطوف

في وسط الدون بحركة حادة ضد التيار ومال قليلا على جانبه. وتحت المرتفع حيث ترجل أفراد السرية من جيادهم ونزعوا السروج كان يسمع بوضوح كيف يشخر ذلك الحصان بخوف ويدق بحوافره الارضية الخشبية للطوف.

همهم تروفيم بكآبة:

– سيغرق الطوف.

لكن لم تصل يده الى ظهر الفرس المتصبب عرقا... اذ شخر الحصان على الطوف شخيرا عنيفا وتراجع نحو عارضة العربة وانتصب على قائمتيه الخلفيتين.

فصاح قائد السرية وهو يدعك سوطه:

– اطلق عليه النار!

رأى تروفيم كيف قفز رجل المدفع الرشاش متعلقا بعنق الحصان ودس في اذنه فوهة المسدس، وانطلق عيار ناري بصوت مثل طقطقة لعبة طفل. التصق الحصانان الاوسط والايمن باحدهما الآخر. وخشي رجال المدفع الرشاش ان يغرق الطوف فدفعوا الحصان القتيل نحو مؤخرة العربة. التوت قوائمه شيئا فشيئا، وتدلى رأسه...

بعد حوالي عشر دقائق جاء قائد السرية من ناحية اللسان الرملي وكان اول النازلين بحصانه الكميت الى الماء، ومضت السرية في اعقابه بطرطشة هادرة – مائة وثمانية فرسان شبه عراة والعدد نفسه من الخيول من شتى الالوان. نقلوا الاسرجة في ثلاثة زوارق صغيرة. وقاد تروفيم احدها، تاركا الفرس في عهدة قائد الفصيلة نيتشيبورينكو. ورأى تروفيم في وسط الدون كيف كانت الجياد الامامية تبتلع الماء على مضض بعد ان غاصت في المياه حتى الركبة. كان الفرسان يحثونها باصوات خافتة. بعد لحظة غصت صفحة النهر على مسافة خمسين مترا من الضفة بكتلة سوداء من رؤوس الجياد التي تطلق الشخير. كان رجال الجيش الاحمر يسبحون الى جانب الخيول متشبثين باعرافها وقد ربطوا بالبنادق المرفوعة فوق رؤوسهم ملابسهم وحقائب الذخيرة.

رمى تروفيم المجذاف في الزورق وانتصب بكل قامته وضيق عينيه اتقاءا لضوء الشمس وبات يبحث بقلق عن الرأس الاحمر لفرسه وسط جمهرة السابحين. وبدت السرية مثل سرب من الاوزات البرية تناثرت في السماء لدى اطلاق الصيادين النار عليها: في المقدمة الحصان الكميت لقائد السرية وقد احدودب ظهره الشديد اللمعان. وعند ذيله تماما بدت كبقعتين مفضضتين بيضاوين اذنا الجواد الذي كان يمتطيه المفوض السياسي في وقت ما. وخلفهما سبح حشد قاتم اللون. وفي نهاية الجميع كان يتخلف اكثر فاكثر في كل لحظة رأس قائد الفصيل نيتشيبورينكو المجعد الشعر والى يساره الاذنان المدببتان لفرس تروفيموف. وعندما أمعن النظر رأى المهر ايضا. كان يعوم بصورة متقطعة فتارة يعلو فوق الماء وتارة يغوص فلا يكاد يرى منخاراه.

عندئذ حملت الرياح التي تهب فوق الدون الى سمع تروفيموف صوت صهيل رفيع مستغيثا: «اى... اوو... هووا»

كان الصراخ فوق الماء دقيق النبرة وحادا مثل نصل السيف، فانقبض قلب تروفيم، وجرى شيء غريب له. انه حارب طوال خمسة اعوام، وكم من مرة حدق الموت في عينيه كفتاة. لكن لم يفقد سيطرته على نفسه ابدا. الا انه ابيض وجهه ساعتئذ تحت لحيته الحمراء، وشحب حتى صار بزرقة الرماد. فتناول المجذاف ومضى بعكس التيار، حيث كان يدور وسط الدوامات المهر الذي خارت قواه. وعلى مسافة عدة امتار عنه سعى نيتشيبورينكو بلا طائل الى اعادة الام التي كانت تكافح الامواج بصهيل متحشرج. صرخ ستيشكا يفريموف صديق تروفيم الذي كان يجلس في الزورق فوق كومة السروج:

– لا ترتكب حماقة! عدل الزورق باتجاه الضفة، الا ترى القوزاقيون هناك!..

قال تروفيم ساحبا بندقيته من الحزام:

– سأقتله!

حملت الامواج المهر بعيدا عن المكان الذي تعبر فيه السرية. وكانت دوامة مياه صغيرة تديره بانسياب وهي تلحس قمم الامواج الخضراء. اما تروفيم فيلوح المجذاف بارتعاش، واندفع الزورق شمالا ويمينا. برز القوزاق على الضفة اليمنى من الوهدة، وهدرت بصوت اجش طلقات المدفع الرشاش «مكسيم». وازت الرصاصات بفحيح حينما كانت تصيب الماء. وصرخ ضابط يرتدي قميص خيش ممزقا باوامر ما ملوحا بمسدسه.

بات صهيل المهر يخفت رويدا رويدا، وصار يخمد ويضعف الصراخ القصير والحاد. كان ذلك الصراخ يشبه بصورة فظيعة للغاية صراخ طفل. اما نيتشيبورينكو فقد ترك الفرس وسبح الى الضفة اليسرى بسهولة. اختطف تروفيم البندقية بشكل محموم واطلق النار مصوبا الى اسفل الراس الذي يغوص في الدوامة وانتزع جزمتيه والقى بنفسه في الماء وهو يجار بصوت مبحوح.

زعق الضابط ذو قميص الخيش على الضفة اليمنى:

– اوقفوا اطلاق النار!

بعد خمس دقائق وصل تروفيم الى جانب المهر واختطفه بيده اليسرى من بطنه الباردة، وتوجه به الى الضفة اليسرى مختنق الانفاس مبقبقا بالماء. لم تنطلق رصاصة واحدة من الضفة اليمنى.

بدت السماء والغابة والرمال له جميعا شديدة الخضرة ومبهمة... بذل تروفيم آخر جهد يفوق طاقة البشر وبلغت قدماه ارض الضفة، وسحب الى الرمال جسد المهر اللزق، وتقيأ باختناق ماء اخضر، ويداه تتشبثان بالرمل بحركة متشنجة. وتناهت من الغابة همهمة اصوات رجال السرية الذين عبروا النهر. وفي مكان ما وراء اللسان الرملي دوت المدافع. وقفت الفرس الحمراء بالقرب من تروفيم وهي تنفض جسدها المبلل وتلحس المهر. وسالت من ذنبها

المتدلي قطرات الماء في دفق زاهي الالوان فوق الرمال لتغوص فيها...

نهض تروفيم مترنحا وخطا خطوتين على الرمال، ثم سقط على جانبه فجأة بقفزة. واحس كما لو وخزته ابرة ساخنة في صدره. وحينما سقط سمع صوت العيار الناري. جاءت من الضفة اليمنى طلقة واحدة اصابت ظهره. بينما ادار على الضفة اليمنى الضابط ذو قميص الخيش الممزق ترباس القربينة بلامبالاة فاسقط منها خرطوشه يتصاعد منها الدخان. رقد تروفيم ينازع سكرات الموت على مسافة خطوتين من المهر، وارتسمت ابتسامة على شفتيه المتصلبتين المزرقتين، اللتين لم تقبلا أطفاله خلال خمسة اعوام طويلة، وتدفقت منهما رغوة من الدم.

١٩٢٦

السهب اللازوردي

كنا نرقد، العم زاخار وانا، تحت شجيرة برقوق بري تنمو فوق رابية جرداء تطل على الدون، أحرقتها الشمس اللاهبة. وتحوم حداة بنية اللون الى جانب سلسلة غيوم متحرشفة. لم تكن شجيرة البرقوق البري ذات الاوراق المصطبغة ببراز الطيور لتمنحنا الفيء. وصارت أذناي تحسان بطنين من شدة القيظ. وكنت حين أتطلع الى الاسفل نحو صفحة مياه الدون المجعدة، او تحت قدمي نحو قشور البطيخ المتغضنة، يمتلىء فمي بلعاب غليظ القوام ولزق، وأجد عسرا في بصقه.

تجمعت الخراف متزاحمة في الغور الى جانب بركة آخذة في الجفاف. كانت تجرجر بتثاقل مؤخرات اجسادها فتتأرجح الياتها وتعطس بقوة بسبب الغبار. وبالقرب من السد ثمة حمل كبير الحجم يستند على ساقيه الخلفيتين ويرضع من شاة ذات لون اصفر فاقع وسخ. وبين حين وآخر يدفع ضرع أمه برأسه. فتأخذ الشاة بالانين وتحدودب لاعطائه المزيد من الحليب، وبدا لي ان عينيها كانتا تعبران عن الألم والعذاب.

جلس العم زاخار الى جانبي. وبعد ان نزع القميص الصوفي المحيوك حدق فيه ببصره الكليل، واخذ يبحث عن شيء ما في طياته ودرزاته. بعد عام سيبلغ الشيخ عامه

السبعين. وغطت التجاعيد المتشابكة ظهره العاري، وبرز من تحت الجلد لوحا الكتف بطرفيهما المدببين، بيد ان عينيه زرقاوان وتشعان فتوة. ونظرته من تحت الحاجبين الرماديين ثاقبة وسريعة وحادة.

امسك بالقملة التي التقطها بجهد بين اصبعين مرتعشين متصلبين. كان يمسك بها بحرص وحنان. ثم وضعها على الارض بعيدا عنه وهو يرسم في الهواء علامة صليب صغيرة ويغمغم بصوت أجش:

– ازحفي بعيدا، يا حقيرة! انت تريدين البقاء على قيد الحياة. أليس كذلك؟ هذا، ما ظننته... لقد افرطت في امتصاص الدم... يا اقطاعية!

ارتدى العم القميص، وهو يئن، ورفع رأسه وسحب من قارورة خشبية رشفات من الماء الدافيء. وكانت تفاحة آدم تنزلق الى الاعلى لدى كل رشفة، وتتدلى طيتان من الذقن الى البلعوم. وتنحدر قطرات الماء على لحيته. وتضرج بالحمرة جفناه المصفران تحت ضوء الشمس المتوهج.

سد القارورة الخشبية وألقى نحوى نظرة جانبية، وحينما التقط نظراتي حرك شفتيه الجافتين وتطلع الى السهب. في الجانب البعيد من الغور يلتهب السراب متأرجحا. وفاحت من الريح التي تهب فوق الارض المتلظية الرائحة الحلوة لنبات الزعتر. التزم العجوز الصمت ثم أبعد عنه عصا الراعي، واشار جانبا باصبع احترق بدخان التبغ.

– هل ترى قمم اشجار الحور وراء تلك الوهدة؟ انها توبولوفكا – ضيعة اسرة توميلين سابقا. وتقوم الى جانبها القرية الفلاحية توبولوفكا. وكان اهلها من الاقنان في الماضي. وعمل والدي حوذيا لدى سيد الضيعة حتى وفاته. وروى لي حينما كنت صبيا كيف بادله سيده مع جاره المالك العقاري مقابل طير كركي أنيس. بعد وفاة والدي حللت محله في منصب الحوذي. وكان السيد قد بلغ الستين

من العمر تقريبا. كان ضخم الجثة قوي البدن. وخدم في شبابه، ايام الحكم القيصري، في سلاح الفرسان. ثم انهى الخدمة واستقر به المقام في الدون. وقد تسلم القوزاق أرض عائلته في الدون، واعطت الدولة الى السيد ثلاثة آلاف هكتار في محافظة ساراتوف. وكان يؤجرها الى الفلاحين في ساراتوف، بينما عاش نفسه في توبولوفكا.

كان رجلا غريب الطبع. ويرتدي دوما بزة شركسية من الجوخ الخفيف، ويتدلى من وسطه خنجر. وكان يحدث ان نتوجه لزيارة احدهم وحينما نغادر توبولوفكا يأمرني قائلا:

– بسرعة، يا جلف!

واعمل سوطي في الجياد وننطلق بسرعة شديدة حتى ان الريح لاتلحق بتجفيف دموعنا. وعندما تصادفنا في الطريق ساقية – وعددها كبير أبان ذوبان الجليد في الربيع، لاتسمع العجلتان الاماميتان، اما الخلفيتان – طاخ! نقطع نصف فرسخ يصرخ السيد: «استدر!». فاعود راجعا الى الساقية ذاتها... ونعاود الكرة في عبورها ثلاث مرات، حتى تتحطم النوابض او تنتزع احدى العجلات. وساعتئذ يزعق السيد وينهض ويسير ماشيا بينما اقود الجياد في اعقابه. وكانت لديه وسيلة أخرى للهو: عندما نغادر اراضي الضيعة يأخذ مكانه الى جانبي على الصندوق وينتزع السوط من يدي. «استحث الحصان الاوسط!..». فآخذ في حث الحصان الاوسط بكل ما استطيع، مما يجعل القوس فوقه يبدو وكأنه ثابت بلا حركة. بينما ينهال هو بالسوط على الحصان الجانبي. كنا نسافر في عربة تجرها ثلاثة جياد. وتخصص عادة لمكان الحصانين الجانبيين جياد من سلالة الدون الاصيلة. وتنهب الارض ورؤوسها متدلية حتى الارض وكأنها الافاعي.

هكذا يضرب بالسوط احدهما فيغطي جسده الرغو... ثم يستل الخنجر وينحني ويقطع السيور دفعة واحدة، كما

يقطع الموسى شعرة، فيتدحرج الحصان منقلبا رأسا على عقب حوالي اربعة امتار، ويرتطم بالارض ويتدفق الدم من منخريه وينتهي!.. ويفعل الفعلة ذاتها مع الحصان الآخر... ويندفع الثالث بسرعة بالغة حتى يصيبه الاجهاد وينفق، بينما لايهتم السيد، فالامر لديه سيان، وجل مراده ان يسلي نفسه قليلا، وتعلو الحمرة وجنتيه.

وما كان ابدا يصل الى المكان الذي يقصده. فاما تكسر العربة او يهلك الحصان، وبعد هذا يسير ماشيا. كان سيدا مرحا!.. هذه قصة قديمة، وليحاسبنا الله على ما نفعل! لقد راقت في عينيه زوجتي التي كانت تعمل وصيفة في بيته. وكان يحدث ان تأتي الى غرفة الخدم ورداؤها ممزق وتعول باكية بصوت عال. وعندما اتطلع اليها ارى على نهديها آثار العض. وتتدلى قطع الجلد كالشرائط... ومرة ارسلني السيد بعد حلول الليل في طلب مساعد الطبيب. كنت اعلم انه ليس بحاجة الى هذا، وحدست جوهر المسألة، فتوقفت في السهب منتظرا، ثم قفلت راجعا. دخلت العزبة عبر الجرن، وتركت الجياد في الحديقة. وتناولت السوط وتوجهت الى غرفة الخدم حيث اعيش. تردد صريف الباب، ولم اشعل عود الثقاب عن قصد، بينما سمعت اصوات وحركة على السرير... وحالما نهض سيدي ضربته بالسوط، وكان سوطي مزودا بقطع رصاص في طرفه... وسمعته يشق طريقه نحو النافذة فلسعته بسوطي مرة اخرى في الظلمة على جبهته. قفز من النافذة. وضربت زوجتي قليلا، ورقدت نائما. بعد خمسة ايام توجهنا الى الدسكرة. وبينما كنت أشد غطاء العربة، تناول السيد السوط وصار يتفحص طرفه. اداره بيده متفحصا ثم تحسس قطع الرصاص وسأل:

– ما الذي جعلك، يا كلب، تضع الرصاص في السوط؟

فاجبته:

– انت أمرتني بهذا!

التزم الصمت وواصل طوال الطريق، وحتى اول ساقية،

اطلاق الصفير من بين اسنانه. وعندما التفت اليه رأيت بنظرة خاطفة ان خصلات الشعر تغطي جبهته وقبعته منكسة الى الاسفل...

اصابه الشلل بعد مرور عامين. ونقلناه الى «اوست ميدفيديتسا»، واستدعينا الاطباء. وحينما جاءوا وجدوه منطرحا على الارض وقد اسودت سحنته. وكل ما استطاع عمله هو ان اخرج من جيبه ورقات بنكنوت من فئة مائة روبل ورماها على الارض، وقال بصوت متحشرج: «عالجوني، يا انذال! ساعطيكم كل ما لدي!»

لكنه رحمه الله – مات مع نقوده. وورثه ابنه الضابط. فكان في طفولته يعمد الى سلخ جلود جراء الكلاب وهي حية، ثم يتركها وشأنها. كان ابن ابيه. وعندما شب كف عن ارتكاب الحماقات. كان طويل القامة نحيف البنية، وتحت عينيه دوائر سوداء دائما، كما لدى النساء... ويضع على ارنبة انفه عوينات ذهبية، وهي معلقة بخيط. وفي فترة الحرب الاولى كان مديرا لمعتقلات الاسرى في سيبيريا. وبعد الانقلاب جاء الى انحائنا. وآنذاك كان قد شب احفادي من ابني المرحوم.

وزوجت اكبرهم – سيميون، اما انيكوشكا فكان اعزب. وعشت معهم، لكي امضي آخر سنوات عمري... في الربيع حدث انقلاب آخر، وطرد فلاحونا السيد الشاب من الضيعة. وفي اليوم نفسه اقنع سيميون الفلاحين في الاجتماع بان يقسموا ارض السيد ويصادروا ممتلكاته. وهذا ما فعلوه. وأخذ كل واحد شيئا من ممتلكاته، اما الارض فقسموها وبدأوا بحرثها. وبعد مرور اسبوع سرت اشاعة مفادها ان السيد يزحف مع القوزاق من اجل قتل جميع اهالي الضيعة. وتقرر في الاجتماع العام ارسال عربتين الى المحطة لجلب السلاح. في فترة الاسبوع المقدس جلب السلاح من الحرس الاحمر. وحفرت الخنادق خارج توبولوفكا وامتدت حتى بركة السيد.

اترى هناك حيث ينمو الزعتر في حلقات، ووراء هذا الاخدود، كان الفلاحون يقبعون في الخنادق. وبينهم حفيداي – سيميون وانيكي. وفي الصباح حملت النساء الطعام لهم، وحينما بلغت الشمس السمت، ظهر فرسان فوق الرابية. بدأوا الهجوم وسيوفهم المشرعة زرقاء لماعة. ورأيت من الجرن كيف كان اولهم الذي يمتطي حصانا ابيض يلوح بسيفه الطويل والعريض. واندفع الفرسان متناثرين كالحمص من الرابية. وعرفت الجواد الابيض للسيد من حركته. وتعرفت على الفارس من الجواد...

ردهم الفلاحون على اعقابهم مرتين، وفي المرة الثالثة هاجم القوزاق من الخلف بحركة التفاف، أي عمدوا الى الحيلة. وجرى ساعتئذ الاشتباك بين الطرفين... وحينما ادلهم الظلام انتهت المعركة. خرجت من البيت الى الشارع. ورأيت القوزاق يقودون حشدا من الناس الى قصر رب الضيعة. فحملت عصاي وتوجهت الى هناك.

تجمع فلاحونا في الفناء، كما تجمعت هذه الخراف. واحاط بهم طوق من القوزاق... دنوت منهم وسألت:

– اخبروني، يا اخوان، اين حفيداي؟

فاجاب الاثنان من وسط حشد الاسرى. وتحدثنا قليلا. وخرج السيد الى الشرفة. رآني وصاح:

– اهذا انت، يا عم زاخار؟

– نعم، يا صاحب السعادة.

– لم جئت؟

دنوت من الشرفة وركعت على ركبتي:

– جئت انقذ حفيدي من المحنة. ارحمنا، يا سيدي! لقد خدمت ابيك، رحمه الله، حياتي كلها. تذكر يا سيدي ما أديت من خدمة، واشفق على شيخوختي.

فقال:

– اسمع، يا عم زاخار، انني احترم جدا خدماتك الى

أبي، ولكنني لا استطيع اخلاء سبيل حفيديك. انهما متمردان متأصلان. فتحل، يا عم، بالصبر!

عانقت قدميه وأخذت ازحف وراءه في الشرفة:

– ارحمنا، يا سيدي! عزيزي، تذكر خدمة العم زاخار لك. لا تقتلهم، فلدى حفيدي سيميون طفل رضيع.

نفث الملاك دخان سيجارة طيبة النكهة وتعالى سحابه الى الاعلى، وقال:

– اذهب، وقل للوغدين، ان يأتيا الى غرفتي. فان استرحماني طالبين العفو، وليكن هذا تكريما لذكرى والدي، فسأجلدهما والحقهما بفصيلتي. لربما سيعوضان عن عارهما بالاجتهاد في الخدمة.

فهرولت الى الفناء ورويت لحفيدي ماجرى، سحبتهما من الاكمام:

– اذهبا، يا احمقان، وقبلا الارض بين يديه حتى يعفو عنكما.

اما سيميون فحتى لم يرفع راسه، وواصل الجلوس القرفصاء وهو يخطط شيئا ما على الارض بعود. بينما حدق انيكوشكا وحدق في ثم زعق بغتة:

– اذهب الى مولاك وقل له: ان كان الجد زاخار قد امضى حياته كلها زاحفا على ركبتيه، وكذا فعل ابنه، فان الحفيدين لايريدان هذا. ابلغه بذلك!

– ألن تذهب يا ابن الكلبة؟

– لن أذهب!

– الامر سيان لك، يا سافل، الحياة او الموت! ولكن سيميون، لم تجره معك؟ لمن سيترك امراته وطفله؟

لاحظت ارتجاف يدي سيميون، وكان ينبش الارض بالعود، بحثا عما لم يخبئه هناك. والتزم نفسه الصمت، كالثور.

قال انيكي راجيا:

– اذهب، ياجدي، لا تكدرنا وتثبط همتنا!

– لن اذهب، يالئيم وقبيح الخلقة، ان حدث شيء فستنتحر انيسيا زوجة سيميون!..

انكسر العود في يد سيميون بطقطقة.

وقفت في الانتظار. ولزما الصمت مجددا.

– سيميون، عضيدي الوحيد و معيلي، عد الى رشدك. اذهب الى السيد.

– لقد عدنا الى رشدنا! لن نذهب! اذهب انت وازحف متوسلا امامه.

وقلت لهما:

– انت تلومني لكوني ركعت امام رب الضيعة. ما العمل، انني رجل عجوز، ورضعت سوط السيد بدلا من ثدي أمي. ولن أتورع عن الوقوف راكعا امام الاهل والاحفاد.

ثم ركعت امامهما وانحنيت الى الارض متوسلا. فاشاح الرجال بوجوههم كما لو لم يروا شيئا.

– اذهب يا جد... اذهب والا قتلتك!

صرخ بهذا انيكي وقد ارغى وازبد وعيناه متوحشتان مثل ذئب وقع في قبضة وهق.

رجعت الى رب الضيعة مجددا، فاحتضنت ساقيه الى صدري دون ان يستطيع مني فكاكا بعد ان تصلبت يداي كالحجر لم اتفوه بكلمة. وسألني:

– اين الحفيدان؟

– انهما خائفان، يا سيدي...

– آه... خائفان...

لم يزد على هذا شيئا. وركلني بجزمته في فمي مباشرة. ومضى نحو الشرفة.

أخذ العم زاخار يتنفس بصعوبة وبسرعة. وتغضن وجهه وشحب للحظة. وبذل جهدا كبيرا في حبس دموعه ونحيبه كشيخ ومسح شفتيه الجافتين براحة يده، وأدار ظهره واشاح بوجهه. والى جانبهما، ووراء البركة انقضت حداة، ناشرة جناحيها بصورة مائلة، على العشب ثم رفعت من

الارض طائر حباري ابيض الصدر. وتساقط الريش منه مثل نتف الثلج، وكان لمعانه فوق العشب يخطف الابصار وينخسها.

مخط العم زاخار، وبعد ان مسح اصابعه على اطراف ردائه المحيوك، تابع الحديث مجددا:

– صعدت الشرفة وراءه، فاذا بي أرى انيسكا زوجة سيميون تهرول حاملة طفلها. القت بنفسها فوق زوجها مثل هذه الحداة وجمدت بين ذراعيه...

استدعى رب الضيعة الرقيب الاول في سرية الخيالة واشار الى سيميون وانيكي. فقادهما الرقيب الاول وستة قوزاقيين آخرين الى غيضة رب الضيعة. وتبعتهم. اما انيسكا فالقت الطفل في وسط الفناء ولحقت برب الضيعة. كان سيميون يمشي بسرعة امام الجميع، وبلغ الاسطبل ثم جلس. وسأله رب الضيعة:

– ماذا جرى لك؟

– الجزمة ضيقة على رجلي ولم اعد أحتمل... – قال ذلك وابتسم.

نزع الجزمتين وأعطاهما الي:

– البسهما يا جدي، بالعافية! انهما بنعلين مزدوجين جيدين.

تناولت الجزمتين، ثم عاودنا المشي. بلغنا السياج، اوقفاهما امام اغصانه المجدولة. عمر القوزاقيون بنادقهم. ووقف رب الضيعة جانبا، وانهمك بتقليم اظافره بمقص صغير. كانت يداه ناصعتا البياض.

قلت مخاطبا اياه:

– اسمحوا يا سيدي بان يخلعا ملابسهما. انها جيدة، وستكون ذات منفعة لنا في املاقنا.

– لينزعا ملابسهما.

نزع انيكوشكا سرواله، وقلبه وجها لبطانة، وعلقه على السياج، واخرج من الجيب كيس التبغ، ودخن سيجارة،

ووقف منفرج الساقين وهو ينفث سحب الدخان، ويبصق عبر السياج... بينما خلع سيميون ملابسه كلها، وسرواله التحتي نزعه ايضا. لكنه نسي نزع قبعته، واظنه لم يكن يعرف ما يفعل... اما انا فكنت احس بالقر تارة وبالسخونة تارة أخرى. وحينما كنت اتحسس جبهتي اجد العرق باردا مثل ماء الينبوع. اراهما واقفين جنبا الى جنب... وقد نما الشعر الكثيف على صدر سيميون، بينما القبعة فوق راسه. ورأت انيسيا زوجها عاريا وبقبعة فاندفعت نحوه كما تفعل النساء وطوقته بذراعيها كنبات متسلق على جذع شجرة بلوط. صار سيميون يبعدها عنه:

– اذهبي، يا قليلة الحياء! عودي الى رشدك!.. انت امام الناس... افتحي عينيك، ألا تخجلي، فانا عار تماما...

اما هي فقد تشعث شعرها بينما تواصل العويل والنحيب مكررة العبارة نفسها:

– اقتلونا معا!..

وضع رب الضيعة المقص في جيبه وسأل:

– هل سنطلق النار؟

– اطلق النار، اللعنة عليك.

– اهكذا تخاطبين السيد!

وأمر قائلا:

– اربطوها مع زوجها.

ثابت أنيسا الى رشدها، فابتعدت، بيد انه كان قد فات الاوان. وشرع القوزاقيون ضاحكين بربطها الى سيميون بواسطة حزام الرسن... سقطت الحمقاء على الارض وهوى معها زوجها. دنا رب الضيعة، وسأل مكشرا عن انيابه:

– لربما ستطلب العفو من اجل الطفل الذي بقي؟

فأن سيميون قائلا:

– سأطلبه...

– اطلب العفو... لكن من الله... فقد فات الاوان لطلبه مني...

ثم اطلقوا عليهما النار وهما منطرحان على الارض... اما انيكوشكا فتارجح على قدميه بعد اطلاق النار، لكنه لم يسقط فورا. اذ هوى على ركبتيه اولا، ثم استدار بحدة وسقط ووجهه الى الاعلى.

دنا السيد منه وسأله بلطف بالغ:

– ان اردت البقاء على قيد الحياة؟ ان اردت، فاطلب العفو. وسأكتفي بجلدك خمسين جلدة وابعث بك الى الجبهة.

جمع انيكوشكا ملء فمه لعابا لكن قواه لم تسعفه لكي يبصق، فسال اللعاب على لحيته. واشتد شحوبه غيظا، ولكن عبثا حيث كانوا قد ثقبوا جسده بثلاث رصاصات.

امر رب الضيعة:

– اسحبوه الى الطريق!

سحبه القوزاقيون والقوا به عبر السياج في عرض الطريق. في ذلك الحين كانت تتوجه من توبولوفكا الى الدسكرة فصيلة قوزاق مجهزة بمدفعين. نط السيد على السياج المضفور، مثل الديك، وصاح بصوت عال:

– يا سائق العربة، تقدم بسرعة، بدون التفاف!

انتصب الشعر في رأسي، كنت امسك بيدي ملابس سيميون وجزمتيه، بينما لم تعد تحملني ساقاي والتوتا. ان الجياد تتمتع بهبة من الله، فلم يدس اي حصان على انيكوشكا، بل عبرته، واتكأت على السياج وانا عاجز عن اغلاق عيني. جف حلقي... وسحقت عجلات المدفعين ساقي انيكي... وتهشمتا اولا مثل البقسماط بين الاسنان، ثم اندعكتا كالقصب. كنت اظن ان انيكي سيموت من الألم الفظيع، الا انه لم تبدر منه حتى صرخة او أنين... رقد وقد التصق رأسه بالارض وهو يدس قبضات التراب في فمه...

ويلوك التراب وينظر الى السيد. ولم يرف له جفن. وعيناه صافيتان رائقتان مثل السماء...

في ذلك اليوم اعدم السيد تاميلين اثنين وثلاثين شخصا. ولم يبق على قيد الحياة سوى انيكي بفضل كبريائه...

احتسى العم زاخار الماء من قارورته الخشبية طويلا وبنهم ومسح شفتيه الشاحبتين واختتم روايته على مضض:

– وهكذا، لقد غدا هذا في طي النسيان. ولم تبق سوى الخنادق التي حارب فيها فلاحونا من أجل نيل الارض وتنمو فيها الاعشاب والحشائش البرية... اما انيكي فقد بترت ساقاه، والآن يمشي على يديه ساحبا جسده على الارض. ومظهره ينم عن الجذل، وفي كل يوم يقيس طوله مع صبي سيميون. وقد اصبح الصبي اطول قامة منه. وفي ايام الشتاء يحدث ان يخرج الى الشارع والناس يسوقون الماشية الى النهر، فيرفع يده ويجلس على قارعة الطريق... عندئذ تهرول الثيران فزعة فوق الجليد الزلق وتنفرج قوائمها جانبا، بينما يستغرق هو في الضحك. ولاحظت مرة واحدة فقط... كان جرار كومونتنا يحرث الارض وراء حدود القوزاقيين. فتعلق بنا انيكي الى هناك. وانشغلت انا برعي الضان في مكان قريب. وبغتة رأيت انيكي يزحف فوق الارض المحروثة. ودار في خلدي: ماذا تراه سيفعل؟ فوجدته يتطلع حواليه، وحينما تأكد من عدم وجود أحد قريبا منه، ضغط على الارض بوجهه، واحتضن كتلة من التراب حفرتها سكين المحراث وصار يمسدها بيديه ويقبلها... انه في الخامسة والعشرين من العمر. الا انه لن يقدر له ان يحرث الاراضي الى الابد. وهذا مبعث كآبته...

السهب اللازوردي قد أخلد الى النوم في العتمة الزرقاء الضبابية. وجاء النحل الى حلقات الزعتر الباهت اللون لينهل آخر، رحيق له في ذلك اليوم. وعشب الريش، الاصهب الوقور، يتمايل باعرافه المريشة. بينما زحف

قطيع ضأن من الرابية متوجها الى توبولوفكا. سار العم زاخار بصمت مستندا على عصاه. وبدا على الغطاء الترابي للطريق اثران نقشا بعناية: احدهما لذئب، خطوة مع خطوة، متباعد وواسع، والآخر – لجرار عزبة توبولوفكا الذي حفر التربة بخطوط مائلة.

ثم يفترق الأثران هناك حيث يصب الدرب الصيفي في طريق «هيتمان» المنسي الذي غطته الحشائش. وقد انحرف اثر الذئب جانبا نحو الوهدة التي نمت فيها الاحراش الكثيفة الشعثاء من حشائش وشجيرات البرقوق البري. بينما بقي في الدرب اثر واحد، تفوح منه رائحة الكيروسين المحترق، اثر منتظم وثقيل.

١٩٢٦

عمال زراعيون

١

عند سفح تل بني اللون شاهق الارتفاع، وسط اشجار الصفصاف التي تنمو بكثافة على ضفتي الجدول، بين البساتين ذات الاسيجة المضفورة المتداعية، تربض بيوت بلدة دانيلوفكا متكاكاة كما لو تود التخفي عن الانظار الفضولية للمسافرين والسابلة.

تضم البلدة مائة ونيفا من البيوت. وتناثرت بيوت الفلاحين الموسرين في الشارع الرئيسي بمحاذاة الجدول تفصلها عن بعضها البعض مسافات كبيرة. وحينما تمشي في الشارع تدرك بانه يعيش هناك سادة حقيقيون عيشة رغيدة ولأمد طويل، اذ تغطي البيوت سقوف من القرميد او الصفيح، والافاريز مزخرفة بنقوش مبتكرة، وتصر برضى مصاريع النوافذ ذات اللون الازرق لدى هبوب الريح كما لو تتحدث عن حياة ارباب هذه البيوت الهانئة الخالية من الهموم. والبوابات في هذا الشارع من الالواح الخشبية المتينة، وفيه الاسيجة المضفورة جديدة بينما تشمخ العنابر في الافنية، وتنبح كلاب ضخمة على المارة بحشرجة واختناق فتصلصل السلاسل المربوطة بها.

ثمة شارع آخر ملتو، ضيق، يمتد وراء التلة. ونمت على جانبيه اشجار الصفصاف، فبدا كما لو انه يندلح تحت سقف من الاشجار الخضراء. وتطارد الرياح فيه أمواج التراب، وتدير الرماد المتجمع في اكوام عند الاسيجة

في دوامات من السحب المخرمة. وفي الشارع الثاني لا تنتصب بيوت بل اكواخ، وتتراءى الفاقة السافرة من كل نافذة، ومن كل فناء محاط بسياج مهلهل من الاعواد المتباعدة.

قبل خمسة اعوام التهمت النيران المباني في الشارع الثاني عن بكرة أبيها. وبدلا من البيوت الخشبية المحترقة بنى الفلاحون اكواخا من الطين ودبروا أحوالهم بشكل ما. بيد انه منذ ذلك الحين استقر المقام بالفاقة لدى اصحاب البيوت المحترقة ومدت جذورها بصورة عميقة جدا...

ضاعت في الحريق كافة الادوات واللوازم الزراعية. وفي الربيع الاول فلحوا الارض بشكل ما، الا ان سوء المحصول قضى على الآمال، واناخ بثقله فوق ظهور الفلاحين، وتبددت مع الرياح الافكار بان يتسنى تحسين الوضع والافلات من المصيبة بصورة ما. منذ ذلك الحين ولى الفلاحون وجوههم الى كافة الانحاء حاملين مصيبتهم معهم في الذل والمسكنة. وصاروا يذرعون الدروب في طلب الاحسان والتسول. وتوجهوا الى اقليم كوبان حيث تجنى المحاصيل بيسر اكبر. لكن ارض الاباء والاجداد كانت تجذبهم اليها بقوة فعادوا الى دانيلوفكا. وتوجهوا مجددا الى الفلاحين الموسرين طالبين عونهم بمذلة:

– خذني للعمل اجيرا، يا رب البيت... سأعمل جهدي لخدمتك لقاء لقمة العيش فقط...

٢

في الفجر وحال انبلاج نور الصباح جاء عامل القس الكسندر الى ناؤوم بويتسوف. كان ناؤوم يشد العدة على الحصان الذي استعاره من جاره، ولم يسمع خطوات العامل الذي اقترب منه. ففزع لدى سماع التحية المباغتة، بعد ان كان غارقا في تأملاته:

– صباح الخير، يا عم ناؤوم!

التفت ناؤوم، ورفع يده اليسرى الى قبعته، وهو يشد سير النير بالاخرى.

– صباح الخير. اي ريح جاءت بك؟

اما العامل الذي سره التخلص من الاعمال في المزرعة، فقد جلس على المسلفة العتيقة المقلوبة، وبعد ان سحب الى راحة يده كم القميص مسح به عرق جبينه.

ثم أخذ يقول بتؤدة كما لو كان يريد التنويه بان الحديث ذو شجون:

– جئناك في أمر.

فسأل ناؤوم وقد انشغل في شد العنان بعد انقطاعه:

– اي أمر؟

– المسألة انني كنت أقول لسيدي القس منذ زمن طويل: «ان كنت تريد ان تخصي حصانك، فخير لو...»

قاطعه ناؤوم:

– اختصر في الكلام! هل تريدون اخصاء الحصان؟ فقل هذا! ان وقتي ضيق، وعلي الآن الذهاب الى الحقل...

اختتم العامل حديثه بعدم رضى:

– نعم، انه يريد ان يخصي الحصان.

– ابلغه بانني قادم الآن.

نهض العامل على مضض، ونفض عن سرواله نثارة الخشب الغضة الملتصقة به، وقال بلامبالاة مطرق الرأس:

– يكيلون لك المديح في هذه الانحاء... ويقولون انك بيطري جيد... وهذا صحيح، لكنك لست حلو المعشر... ولا يمكن اجراء محادثة لطيفة معك. انت خشن وثقيل الدم!

ارجو المعذرة، يا صاحبي، هكذا ولدتني أمي!

– الامر لدي سيان... طبعا، انه لمؤسف... وانا بوسعي مبادلة الحديث مع اي شخص.

– حسنا.. حسنا.. تحدث مع شخص آخر..

قال ناؤوم ذلك وفي عينيه بريق مسرة. ومضى بتؤدة وبخطوات واسعة بقدميه الكبيرتين الحافيتين ودخل البيت.

رفع العامل من الارض نثارة خشب ريانة حملتها الرياح من مكان ما، ولفها بهيئة انبوب، واطلق تنهدة، وسار في الشارع منحني الظهر يهز عجزه كامرأة. كان يسير كما لو ان الريح تحمله خلافا لارادته.

دخل ناؤوم البيت ونزع من مسمار حزمة حبال غليظة. ثم ادار وجهه نحو الموقد وهو يفك العقدة. وابتسم الى زوجته المشغولة بتهيئة الطعام.

– قلت لك، ان خلا وفاضنا، فسنحصل على شيء من مكان ما... يريد القس الكسندر ان يخصي الحصان. وقد بعث بعامله. لن اقبل باقل من نصف بود من الدقيق لقاء عملي!..

اعادت الزوجة السؤال بفرح:

– هل بعث يطلب هذا حقا؟

– انصرف العامل لتوه.

– سيكون لدينا خبز!.. اما انا فكنت قلقة بان تذهب لحراثة الارض بدون قطعة خبز.

ابتسم ناؤوم، فانزاح طرف لحيته المدبب جانبا بسبب الابتسامة، وبرزت اسنانه المتراصة المائلة للسواد. وجعلته الابتسامة يبدو اصغر سنا، وجعلت وجهه الصارم بشوشا.

وخاطب ابنه قائلا:

– تهيأ، فيودور، ايضا.. فستساعدني.. لتقف الفرس، ولا ترفع العدة عنها.

دب النشاط في فيودور، الفتى البالغ السادسة عشرة من العمر، الشبيه جدا بابيه في الوجه، الغليظ العظام والعريض المنكبين، وشد حول قميصه الممزق حزاما جديدا، وتبع ابيه وهو يخطو على الارض بثقة ايضا وبقدمين حافيتين، منحني الظهر ايضا لدى المشي، وملوحا بيديه بقوة لا تناسب عمره.

استقبلهما القس الكسندر عند فناء بيته. وتراءى الدم

على وجنتيه البارزتين النحيلتين ولف جبينه بمنشفة نظيفة. وتحت الضمادات تراقصت عيناه الرماديتان المراوغتان مثل فأرين.

فقال بعد الترحيب بهما:

– من المستحيل الاقتراب من الحصان! يا له من وحش مسعور!.. – كان صوته أجش وقويا، لا يتناسب مع جسده الصغير النحيف. – اردت ان الجمه، فعضني باسنانه كالكلب. وانتزع قطعة جلد من جبيني، والله شاهد على ما اقول!..

احمر وجه فيودور وانتفخ وهو يحاول حبس ضحكاته. لكن الاب القى نحوه بنظرة صارمة، ومضى الى البوابة.

– اين هو؟

– في الاسطبل.

– اجلب، يا أبي، حبلا آخر.

فقال القس بتردد:

– يجب التعامل معه بعناية...

– سنطوعه بشكل ما. انني روضت جيادا اسوأ من هذا... – أجاب ناؤوم بشيء من المباهاة، وصنع في طرف الحبل انشوطة غريبة.

وقف فيودور والقس والعامل بالقرب من الباب. اما ناؤوم فقد لف الحبل على يده اليسرى، وامسك في اليمنى وتدا رطبا مدبب الطرفين من غصن البلوط.

قال العامل ضاحكا:

– حذار يا عم ناؤوم، فقد يرفسك بشدة!

لم يجب ناؤوم، وازاح الرتاج، وضيق عينيه في الظلمة البادية من داخل الاسطبل وخطا عبر العتبة.

ترددت اصوات حركة خلال دقيقتين. وانتظر فيودور وقلبه ينبض بشدة سماع الدعوة: – «تعالوا وامسكوا! بسرعة...» – وفجأة تناهى الى سمعهم صوت ضربة، وشخر الحصان، وسمع صوت ضربات مكتوم وانين، ودبيب

جوافر قصير فوق الارضية الخشبية. وانفتح الباب بعنف كما لو اقتلعته عاصفة، وقفز الحصان من الظلام رافعا رأسه بقوة. وعبر بقفزتين اكوام الروث، وتوقف لحظة، وجانباه يتصاعدان ويهبطان بشدة، نفش ذنبه، وعبر السياج ثم اختفى في سحابة الغبار المتصاعد في الطريق.

خرج ناؤوم من الاسطبل مترنحا. كان يمسك فمه بيده، وما فتئت تتدلى من يده اليسرى قطعة الحبل المقطوع... وخطا في الفناء حوالى عشرين خطوة سريعة كالسكران. واصطدم بصدره بالسياج، وسقط على ظهره وقد ثنى ساقيه الى بطنه. رمى فيودور الحبل صارخا واندفع نحوه.

– بابا!.. ماذا جرى لك؟

صاح ناؤوم بهمس متحشرج وهو يضغط على الكلمات:

– ضربني.. في صدري.. في صدري.. حطم العظم.. انني أموت.. في صدري.. تحت القلب! – ثم اطلق زفرة مصحوبة بصفير، ودحرج كرتي عينيه الزائغتين من الألم المبرح، وبكى وصار يتجشأ ويختنق بالدم.

رفعوه وحملوه الى السقيفة. وتبعتهم في الفناء آثار دماء متصلة. كان ناؤوم يتلوى ويمزق قميصه متحشرجا، ولدى كل حركة تنفس كان صدره المتحطم ينبعج بشكل رهيب، ثم يتحدب ويهتز بصورة غير منتظمة.

بعد مرور عشر دقائق غدت حاله أفضل، وكف الدم عن التدفق عبر فمه، وغطى شفتيه لعاب وردي فقط. جلب القس المرتعب دورقا فيه خمرة بيتية، وارغم ناؤوم قسرا على احتساء ثلاثة اقداح، وهمس بفأفأة:

– سأدفع لك... سأدفع... والآن اذهب... انصرف... سيقودك ابنك. ان حدث بلاء، فساكون المسئول... اذهب ناؤوم، بحق المسيح! ستموت بين اهلك. ارجوك، انصرف. انني لا اعتزم تحمل مسئوليتك.

قال ناؤوم بصوت يشبه الصفير بين فترات الاختناق:

– ان مت.. فادفع الى زوجتي..

– ليهدأ بالك... ساغفر لك ذنوبك على التو، وسأذهب الى الكنيسة لجلب لوازم الطقوس المقدسة... فيودور، ساعد اباك على النهوض!..

انزل ناؤوم قدميه بسرعة، بدعم القس، صاح بصوت مكتوم: – لا.. لا استطيع!.. اوي... اوي... اوي!.. الموت! انني أموت!.. وفجأة صرخ باعلى صوته وبوحشية.

لوى فيودور سحنته وأخذ ينتحب. اما العامل فكان يحفر الرمل بقدمه وعلى فمه ابتسامة بلهاء.

نهض ناؤوم وكان يستنشق الهواء بعسر. والقى بكل ثقله على كتف فيودور وسار مجرجرا قدميه. قال باقتضاب:

– الى البيت... هذه رغبة القس.. لنذهب!

مضى متعثرا وقدماه لاتكادان تحملانه، لكنه عض على نواجذه بقوة ولم تبدر منه انة واحدة في الطريق، بل كان حاجباه يرتعشان على سحنته المبللة بالدموع. وقبل ان يبلغ البيت بمسافة ستين ذراعا انتزع نفسه بقوة من بين يدي فيودور، وصرخ وخطا نحو السياج المضفور. وامسك فيودور به من تحت ابطيه واحس على الفور بان جسد ابيه قد غدا ثقيلا جدا، وانه لم يعد قادرا على الامساك به. وحدقت به بصرامة الموت عينا ابيه نصف المغمضتين والجامدتان...

هرع الناس. وتلمس احدهم يد ناؤوم، وقال آخر بلهجة تنم عن الرعب او الدهشة:

– مات! هكذا، بلا انتظار... تصوروا!..

٣

بعد دفن الأب، وفي اليوم الثالث او الرابع، سالت الام فيودور قائلة:

– حسنا، فيودور، كيف سنعيش لاحقا؟

لم يكن فيودور نفسه يعرف كيف يجب العيش وما العمل بعد وفاة الاب.

كان ثمة رب للبيت، وسارت الحياة بصورة متسقة وبثبات، مثل عربة تحمل حمولة ثقيلة. وفي بعض الاحيان كانت تبرز صعوبات في تدبير شئون المعيشة، الا ان ناؤوم كان يجيد تدبير حياتهم بشكل بحيث ان العائلة لم تعان من الجوع كثيرا حتى في عام القحط. اما في الاوقات الاخرى فسارت الامور بهدوء وبصورة طيبة: وبالرغم من انه لم تكن لديهم الثروة كما لدى اصحاب بيوت الموسرين في الشارع الاول، فانهم ما كانوا يعانون من الفاقة التي يعاني منها جيران ناؤوم في الشارع الثاني. اما الآن، وبعد ان فقد البيت رب الاسرة اصابت الحيرة فيودور، وكذلك امه. وقاما بحرث مساحة اكر، وساعدهم في أعمال البذار جارهم بروخر. الا ان البادرات كانت رديئة، فهي قليلة وهزيلة.

وقالت له امه مرة:

– اذهب يا بني، اشتغل اجيرا، لدى اهل الخير، اما انا فساذهب في طلب الاحسان واستجدي. ولربما بعد عام او عامين سندبر امرنا وسنجمع مالا لشراء حصان، فما رأيك؟..

اجاب فيودور عابسا:

– لا حاجة للتفكير في الامر... ولابد من ايجاد عمل لدى الآخرين...

في مساء اليوم نفسه وقف فيودور عند مدخل بيت زاخار (اكبر الاغنياء في قرية خرينوفسكي المجاورة). كان يلوي في يديه قبعة ابيه الوسخة وتحدث منتزعا من بلعومه الكلمات المتلعثمة:

– سأعمل بكل جهد.. انا لا اخاف العمل. وادفع لي أي اجر تراه.

كان زاخار دينيسوفيتش، وهو رجل ضعيف البنية، وزاد من هزاله اصابته بمرض باطني ما، يجلس على درجات

الشرفة، ويتطلع الى فيودور بعينين زائغتين رماديتين، وبنظرات ثاقبة.

– انا بحاجة الى عامل أجير، وهذا حق. لكنك يا فتى مازلت يافعا، وتنقصك قوة الرجال. ولن تستطيع العمل كرجل، وهذا اكيد. وما هو الاجر الذي تطلبه مني؟

– أي اجر تعطيه.

– ومع ذلك، ما هو؟

اخذ فيودور يتصبب عرقا ونفض القبعة ورفع عينيه بارتباك:

– اعطني الأجر الذي يرضيك ويرضيني.

– خمسون كوبيكا في الشهر – هذا الأجر الذي اعطيه! وساطعمك، بينما توفر لنفسك الملابس والحذاء. ها؟ – وتفحص فيودور وجها لوجه: – هل توافق؟

ضيق فيودور عينيه، وحسب محركا بسرعة اصابع يده الطليقة: «في الشهر خمسون كوبيكا، في شهرين – روبل، وفي سنة – ستة روبلات...» وتذكر انه يطلب في السوق لقاء اسوا حصان مبلغ ثمانين روبلا. واصابه الرعب حينما حسب بانه يتعين عليه الكدح طوال ثلاثة عشر عاما من اجل توفير مثل هذا المبلغ!..

– ما بالك تحرك شفاهك، قل: هل انت موافق ام لا؟– قال زاخار دينيسوفيتش بصوت متحشرج وقد تغضنت سحنته لألم في احشائه.

– هذا يا عم.. عمل بلا مقابل تقريبا!

– كيف، بلا مقابل؟ والطعام كم يكلفني؟ احكم بنفسك... – وصار زاخار دينيسوفيتش يسعل ولوح بيده.

تذكر فيودور بثبات نصائح أمه، وقرر عدم القبول بالعمل اجيرا مقابل اقل من روبل شهريا. اما زاخار دينيسوفيتش الذي كانت تتدحرج عيناه بسبب السعال فكان يفكر بين حين وآخر: «لايجوز البتة تفويت نصف الابله هذا. كنز. انه قوى البنية وسيعمل لدي كالثور.

ومثل هذا الوحش الضخم يستطيع ان يكسر قرني الشيطان!.. ان العامل الذي يحترم نفسه لايقبل بالعمل في موسم الصيف مقابل حتى خمسة روبلات. اما هذا فيمكن تشغيله مقابل روبل...»

– حسنا... ماهو آخر أجر؟

– انا بحاجة الى روبل في الشهر على اقل تقدير.

– روبل؟ ما اسخف هذا الكلام!.. هل فقدت عقلك، يا فتى؟ كلا، يا صاح، هذا كثير.

استدار فيودور معتزما الانصراف. بيد ان زاخار دينيسوفيتش قفز من درجات الشرفة كالعصفور وتشبث بكمه.

– قف... مهلا... يالك من فتى حاد المزاج، الى اين ذاهب؟

– نحن لم نتفق... فلم البقاء؟

– ايه... حسنا!.. ليكن كما تريد! سادفع لك روبلا في الشهر. انت تنهبني، ولكن الصفقة هي الصفقة. عليك ان تتذكر ان الاتفاق أغلى من المال، ويجب ان تعمل بكل جهد.

وقال فيودور بابتهاج:

– سأعمل، وارعى الماشية كما لو كانت ماشيتي!

– اذهب حالا الى دانيلوفكا، مادام الجو باردا، وعد بملابسك وغدا عند الفجر توجه لحصد العشب. هكذا!

٤

صاح الديك في العنبر. وقبيل ان يبلغ الدنيا بحلول الفجر بصياحه صفق بجناحيه طويلا، وسمع فيودور الراقد تحت السقيفة كل صفقة له بوضوح ودقة. كان قد أصابه الارق، وحينما تطلع من تحت زبونه رأى أن السماء تغدو رمادية عكرة وراء قمة سقف العنبر، وتزحف الغيوم من ناحية الشرق، واطرافها قد اصطبغت بحمرة قانية. وتتدلى

قطرات طل كبيرة الحجم من اجنحة الحاصدة الجاثمة عند العنبر.

بعد لحظة خرج الى الشرفة زاخار دينيسوفيتش بسروال داخلي من الخيش. وحك جسده، رافعا قميصه عاليا فوق كرشه المتدلية الصفراء، وصرخ بصوت عال:

– فيدكا!..

القى فيودور الزبون الذي يتلفع به جانبا وخرج من تحت السقيفة:

– خذ الثيران الى النهر للسقي، وبسرعة! ستشد الى الحاصدة الثورين الارقطين.

هرع فيودور الى فتح بوابة الزريبة، ومسح بسرواله يديه المبللتين برطوبة قطرات الطل، وصرخ على الثيران:

– هيا... من الزريبة!

خرجت الثيران الى الفناء على مضض، وفتح الاول البوابة بقرنيه، وتوجه في الطريق نحو النهر. وتبعته الثيران الباقية.

حينما رجع من هناك رأى فيودور صاحب البيت منشغلا بالعمل قرب العربة، وكان يفك صمولة بالمفتاح، فدنا منه وساعده في نزع العجلة وتشحيمها. رمق زاخار دينيسوفيتش فيودور بنظرة جانبية وصار يراقب حركاته الخبيثة الحاذقة، ويتنشق بأنفه.

ولما اعدا العدة للرحيل و غادرا القرية لاحت تباشير الفجر، وعلى امتداد الطريق كانت المراميط الكسولة البنية المطروحة الشعر توصوص فوق المرتفعات بقلق، بينما تتراقص طيور الحباري وسط البادرات الخضراء للحنطة الربيعية، وطلعت الشمس من وراء الرابية واغرقت السهب باشعتها الساخنة، وتعالت قطرات الطل بضباب كثيف فوق الوهدة.

صرت عجلة الحاصدة، وهدرت العربة خلفها، وكان الماء يبقبق بجذل صاخب في الوعاء الخشبي الكبير المتدلي

في مؤخرتها. بعد ان اصاب ظهر زاخار دينيسوفيتش الدفء اضحى ميالا الى تبادل الاحاديث اللطيفة.

– ما عليك، فيودور، الآن، سوى ان تفعل ما اطلبه منك، وعندئذ لن ينالك الاذى مني. انت فتي قوي البنية، وسأطلب منك قدر ما اطلبه من العامل العادي.

– قلت انني سأعمل كما لو كنت في مزرعتي.

– بالضبط. ويجب، يا هذا، ان تدرك بانني المحسن اليك، وبانك خادمي. وعليك ابداء الطاعة التامة الى سيدك والمحسن اليك. ويمكن القول انني انقذتك من الموت جوعا، وعليك ان تتذكر احساني. فاهم؟

اطرق فيودور برأسه متأملا في احسان سيده وهو يعجب في دخيلة نفسه: أي فضل لهذا عليه؟

عمل فيودور وحيدا في الحصاد. وجلس سيده في مقعد حديدي مريح عند مقدمة الحاصدة ملوحا بسوطه مستحثا الثورين، بينما حمل فيودور مذراة قصيرة يلقي بواسطتها الاكوام الثقيلة للعشب الاخضر. وحالما يزيح جانبا بجهد الكدس المقطوع حتى تلقى اجنحة الحاصدة باصطكاك رتيب اكواما جديدة من العشب بين قدميه. في بعض الاحيان كان الثوران يتوقفان للراحة، فيتمطى سيد المزرعة ويستلقي تحت كدس من التبن، ويخلع قميصه، ويمسد بيده كرشه المنتفخة الصفراء ويتطلع بنظرات زائغة الى ندف السحب البيضاء السابحة فوق رأسه.

في الوقفة الاولى نفض فيودور عن قميصه الغبار الواخز وعيدان العشب وازمع ان يجلس أيضا تحت الحاصدة، لكن زاخار دينيسوفيتش تطلع اليه باندهاش من قمة رأسه الى اخمص قدميه وقال بلهجة متقطعة:

– ما هذا؟ لا تحذو، يا صاح، حذوي. انا المحسن اليك وسيدك، وافقه ذلك. وبوسعي ألا اعمل البتة بحكم مرضي الباطني، اما انت فخذ المذراة وكدس العشب. هناك وراء الوهدة قد جف العشب.

نظر فيودور الى حيث اشار أصبع سيده، ونهض

وتناول المذراة وتوجه لتكديس العشب. بعد نصف ساعة استيقظ السيد، بعد ان نال قسطا طيبا من النوم في ظل الكدس، بسبب تسلل جندب تحت قميصه. فاطلق شتائم مقذعة وسحق الجندب التعس، وغطى عينيه المتورمتين براحة يده وتطلع الى كيف انهمك فيودور في تكديس العشب.

– فيدكا!

دنا فيودور منه.

– كم نصبت من الاكداس؟

– تسعة.

– تسعة، فقط؟ هيا اذن اجلس على الحاصدة.

تململ الثوران وما انفكا يلوكان بقايا العشب في اثناء المشي. تحركت الحاصدة، وصرت الاجنحة دافعة العشب الى مؤخرة الحاصدة. وعمد زاخار دينيسوفيتش الذي تملكه الجشع البالغ الى انزال السكاكين الى قرب جذور الحشائش. وصارت السكاكين تخشخش بحدة لدى قطع الحشائش الكثيفة. مضى كل شيء على ما يرام، بيد ان الحاصدة اصطدمت عند المنعطف ابان حركتها السريعة بكومة من التراب، حفرها حيوان الخلد، فتوقفت وقد انغرزت اسنانها في الارض، واخذت ترتجف باهتزاز من الاجهاد. قفز فيودور من المقعد ليتبين فيما اذ انكسرت. غير ان كل شيء كان على ما يرام هذه المرة.

توقفا عن العمل قبيل ان يدمس الظلام. وجلب فيودور الى موقع الاستراحة روث ثيران جافا، واقتلع بعض الاعشاب الجافة للعام الماضي والحشائش واوقد النار. استخرج السيد من كيس حفنة صغيرة من الدخن بتقتير، وامر بتقشير ثلاث حبات بطاطس.

بعد الغداء طاب مزاجه. وحتى طبطب مرة واحدة على كتف فيودور. ولكن فيودور افسد الوضع كله قبيل العشاء عندما قطع شريحة شحم اكثر مما ينبغي ووضعها في العصيدة

عنفه زاخار دينيسوفيتش طويلا بسبب هذه الفعلة، وقد عبس وجهه ساخطا. وفي اثناء العشاء بدا منزعجا، ثم رقد وهو يتنهد ويتمتم كلمات ما.

٥

غالبا ما كان فيودور يتذكر أقوال سيده: «تذكر طيبتي». وامضى عنده فترة ثلاثة أسابيع ولم ير حتى ذلك الحين اية طيبة. وعرف امرا واحدا بشكل قاطع هو ان زاخار دينيسوفيتش رجل شحيح، ويعرف كيف يرغم الانسان على العمل حتى الانهاك. كان فيودور يكدح منذ الصباح وحتى وقت متأخر من الليل في ارجاء الفناء والبيت، اما رب البيت فكان يصرخ عليه ويلوى شفتيه وتبدو على محياه علائم الاستياء.

في أول يوم أحد فكر فيودور في الذهاب الى دانيلوفكا لزيارة أمه، الا ان زاخار دينيسوفيتش قال له في مساء السبت:

– اذهب غدا منذ الصباح الباكر لتنظيف حقل البطاطس من الحشائش. تقول النساء ان الحقل صارت تغطيه حشائش كثيرة. – وبعد فترة صمت قصيرة اضاف يقول: –لا تظن انه مادام اليوم يوم عيد فيمكن الجلوس عاطلا والتهام الطعام. الآن من اكثر أوقات الموسم ازدحاما بالعمل. ولكل يوم قيمته. وبوسعك في الشتاء ملء بطنك بدون عمل.

التزم فيودور الصمت. فالخوف الشديد من فقدان العمل جعله ذليلا وطائعا. وفي الصباح اخذ قطعة خبز وفأسا وتوجه لاجتثاث الاعشاب الضارة. عند حلول الظهيرة صار يلوح بالفأس بشكل جعل الدنيا ظلماء في عينه واحس بالغثيان في بلعومه. عدل قامته بعسر وجلس فوق الرابية وأخذ يمضغ الخبز ثم بصقه. امتدت امامه لمسافة قرابة مائة وستين مترا مساحة خضراء براقة مترجرجة من الاعشاب الواجب اجتثاثها.

حينما حل المساء جرجر قدميه بألم حتى بلغ البيت. واستقبله السيد عند البوابة وسأل دون ان ينهض من الافريز حيث يجلس:

– هل اجتثثت العشب كله؟

– بقيت قطعة من الحقل.

وغمغم قائلا:

– يالك من ولد شاطر! لابد وانك جلست عاطلا او نمت.

فاجاب فيودور عابسا:

– لم أنم. ليس من المعقول اجتثاث العشب كله في يوم واحد!

وصاح في اعقاب فيودور الذي كان يبتعد عنه:

– اذهب، وبلا كلام. المرة القادمة لن تحصل على طعام ان عملت هكذا. متبطل!

٦

انصرمت الايام والاسابيع في سلسلة رتيبة مضنية لا نهاية لها. كان فيودور يعمل من الصباح حتى آخر الليل دون توقف. وكان رب البيت يبحث عمدا عن عمل ما له في ايام الاعياد أيضا. وذلك فقط من أجل تمضية الوقت، ومن أجل الا يبقى عامله الأجير بلا عمل.

انقضى شهران. ولم يكن قميص فيودور يجف من العرق. وصار يسعى الى ارضاء سيده. كان يظن بان هذا سيدفع له في نهاية الشهر الثاني اجرة الشهرين. لكن السيد بقي صامتا، بينما حال الحياء بين فيودور والسؤال عن هذا الامر.

في نهاية الشهر الثاني جاء فيودور في احدى الامسيات الى زاخار دينيسوفيتش الذي كان يجلس على الشرفة وساله:

– اردت ان اطلب منك نقودا، لارسالها الى امي...

فهز ذاك يديه بفزع.

– اية نقود في هذا الوقت؟ ماذا، يا صاح، هل جننت؟.. دعنا ندرس الحنطة، وندفع الضريبة، وعندئذ لربما ستحصل على النقود! يجب عليك اولا العمل لكسبها!

– لقد تمزقت ملابسي. وانظر الى جزمتي – انهما رثتان.

رفع فيودور جزمته ذات البوز الممزق وبرزت منه الاصابع المتشققة.

حدق زاخار دينيسوفيتش طويلا الى قدم فيودور مبتسما بسخرية ثم أشاح بوجهه عنه.

– الجو دافيء... ويمكن السير حافي القدمين...

– لايمكن المشي حافيا فوق الاشواك والحقل المحصود.

– أوه، يالك من فتى رقيق! بالمناسبة، هل انت من نسل النبلاء؟ من السادة؟

التفت فيودور صامتا ومضى الى حيث يقيم في العنبر وقد تضرج وجهه بالحمرة من المذلة وتلاحقه قهقهات السيد.

لم يلتق بأمه ولو مرة واحدة خلال الشهرين، ولم يكن لديه الوقت للذهاب الى دانيلوفكا – فلم يسمح له رب البيت بالذهاب. كما انه لم يكن يعرف فيما اذا كانت في البيت ام خرجت للتسول في العزب والدساكر.

انتهى موسم الحصاد دون ان يشعر به. وجلبت الى فناء بيت زاخار دينيسوفيتش آلة دراسة بخارية من مركز الاقليم. وجاء العمال لتشغيلها. وصار رب البيت يتملقهم، ويتودد اليهم لكي ينهوا اعمال الدرس بسرعة.

– يا شباب، اعملوا جهدكم، بحق المسيح. اعملوا بهمة اكبر مادام الطقس جيدا. لا سامح الله ان يهطل المطر، ويتلف المحصول.

كان بين القادمين فتى يرتدي قمصلة جنود مبعجة من الظهر صار يتطلع باحتقار الى وجه رب البيت المنتفخ وقد وقف على رؤوس اصابعه مؤرجحا جسمه مقلدا اياه بسخرية:

– اعملوا جهدكم، بحق المسيح!.. لا حاجة للشكوى والانين هنا! هيء دلوا من الخمر البيتي من أجل الجماعة كلها، وعندئذ سيجري العمل على ما يرام. فانت تعرف... لابد من دهن الايدي!

– على عيني وراسي!.. انا نفسي فكرت في ان اشرب.

– هنا لا حاجة للتفكير. خذ بالك: فبينما انت منهمك بالتفكير نجمع حوائجنا ونذهب الى جرن جارك. انه يدعونا منذ زمن بعيد.

هرع زاخار دينيسوفيتش الى العزبة، وبعد نصف ساعة جلب دلو خمر وهو يتأرجح في مشيته. وكان الدلو مغطى بتنورة داخلية نسائية قذرة. واصلوا شرب الخمر في الجرن حتى منتصف الليل. فسكر عامل تشغيل الماكينة وهو اوكراني كهل جسده كله ملطخ بالزيت والدهون. ونام تحت كدس الحبوب مع امرأة خليعة ما. وردد العمال الموسميون الاغاني بزعيق وبلا انسجام، واطلقوا الشتائم. جلس فيودور جانبا وراقب كيف بكى زاخار دينيسوفيتش واللعاب يسيل من فمه وقد احتضن الشاب ذا قمصلة الجنود. أخذ وسط البكاء يصرخ بصوت نسائي فيه خنة:

– انا... يمكن القول... انفقت مالا عليكم. ان دلو الخمر تكلف مالا. وانت لا تريد ان تعمل...

اشراب الفتى بعنقه وصاح بصوت عال:

– الامر لدي سيان! ان اردت فلن اعمل!

– لكنني انفقت نقودي!

– الامر لدي سيان!

التفت زاخار دينيسوفيتش الى الرجال الذين جلسوا في الظلام مكونين نصف دائرة حول الدلو:

– يا اخوان... انكم تسيئون الي للعمر كله! ويمكن ان يكون هذا سببا في موتي...

وزعق الفتى ذو القمصلة:

– الامر لدي سيان!

اخذ زاخار دينيسوفيتش يئن شاكيا والدموع تترقرق من عينيه:

– انا رجل مريض! هنا يكمن مرضي...

وضرب بقبضته على بطنه المنتفخة.

بصق الفتى ذو القمصلة باحتقار على طرف القميص القطني لرب البيت، ونهض مترنحا. كان يسير متعثرا بساقيه مثل حصان متخم من تناول الحبوب. ومشى مباشرة نحو فيودور الجالس عند السياج المضفور.

٧

قبل ان يمشي الفتى خطوتين توقف ناشرا ساقيه منفرجتين باعتزاز، ودفع الى الوراء نحو القذال قبعة القش التي يرتديها العمال، بحركة من رأسه. وسأل كالسكارى قائلا بثبات:

– من انت؟

فاجاب فيودور عابسا:

– هذا لا يعنيك.

– غبي. انا أسألك: من انت؟

– عامل.

– انت تعيش هنا؟

– نعم.

– يالك من قملة! اراهن على انك تمتص دم سيدك مثل القملة الطفيلية. ام لا؟ ها؟

– ما بالك انت قد علقت بي؟ امض لشانك.

– امض لشانك! لنفرض انني لا اريد ذلك، بل لنفرض انني جلست هنا.

جلس الفتى الى جانب فيودور بحركة خرقاء. ونفخ في وجه فيودور انفاسه التي تفوح منها رائحة الفودكا والبصل.

– انا عامل التلقيم لدى تشغيل الماكينة. فرول كوتشيرينكو. خلاص! وانت من تكون؟

– انا من دانيلوفكا. ابن ناؤوم بويتسوف.

– هكذا... وما اجرتك الشهرية؟

– روبل في الشهر.

– روبل واحد؟– واطلق فرول صفيرا مديدا وتجشأ.– اما انا فاتقاضى روبلا في اليوم. مارأيك؟ هه؟

تدفق الدم الى قلب فيودور. وسأل بعد ان استعاد انفاسه:

– روبل؟

– وانت ماذا كنت تعتقد؟ زد على هذا انني احصل على الطعام. انت يا حبيبي من صنف الحمقى. من يعمل شهرا لقاء روبل؟ اترك مستغلك وانتقل الينا. وستكسب عندئذ.

نهض فيودور وتوجه الى سقيفة العنبر حيث يقيم منذ الربيع. استلقى على الالواح المغطاة بالتبن القديم وسحب على قدميه الزبون. وبعد ان وضع يديه تحت رأسه رقد طويلا بلا حركة غارقا في التأمل.

كانت النجوم ترسل عبر ثقوب السقيفة نورها الباهت الشاحب. صأت الحشرات بلطف وهدوء في أحراش القصب، وتململت العصافير شبه النائمة تحت السقف.

أخذ الليل الخالي من القمر، ولكن المضيء، يبلغ نهايته. وتردد من الجرن هدير القهقهات وصوت رب البيت الباكي. استلقى فيودور طويلا وماينى يطلق الحسرات ويتقلب، دون ان يغمض له جفن. وغفا قبيل الفجر.

عند الصباح انتظر سيده في المطبخ. وخرج هذا من الغرفة دون ان يغتسل وبدا متجهم الوجه غيظا. صرخ حينما رأى فيودور:

– متعطل، يا ابن الكلب! سأريك! انتم كبار لدى الاكل، وصبيان لدى العمل. لمن قلت ان يجلب الحنطة من المخزن الاخير الى الماكينة؟..

– انني لن استمر في البقاء عندك. ادفع لي لقاء شهرين.

– كيف؟.. – قفز زاخار دينيسوفيتش عاليا فوق

الارض واصابته رعشة: – أتتركني؟ هل اغروك؟.. آه، يالك من غر، لقيط!.. او تعرف بانني ساضعك في السجن لقاء هذا!.. اتتركني في موسم العمل، ها؟.. سيحكم عليك بالاشغال الشاقة لقاء مثل هذه الاعمال! اذهب! مع السلامة! لكنني لن اعطيك قرشا واحدا. ولن اسمح لك بأخذ اسمالك!.. – واختنق زاخار دينيسوفيتش لدى اطلاق الشتائم واخذ يسعل، وبحلق بعينيه السرطانيتين ومسد طويلا وبعج بطنه المرتجف بيديه. – هذا ما القاه من امتنان مقابل احساني لك. او نسيت بانني المحسن اليك، وانقذتك من الفاقة؟.. وكنت بمثابة اب لك، يا وغد...

حدق زاخار دينيسوفيتش في فيودور بعينين ضيقتين. ومنذ اللحظة الاولى، وحالما اعلن فيودور رغبته في ترك العمل، ادرك على التو وراعى بان هذا سيلحق بمزرعته خسائر كبيرة: فاولا سيفقد عاملا، يعمل لصالحه كالثور مقابل قطعة خبز فقط. وثانيا سيضطر الى استخدام آخر مقابل نقود كثيرة، وتوفير الحذاء والكساء له، كما (اذا جاء عامل محنك عارف بهذه الامور فسيطلب) توقيع عقد يتضمن مئة بند. اما ان لم يستخدم احدا، فيتعين عليه أداء الاعمال بنفسه، ويضع عنقه في النير الملعون، في الوقت الذي يكون من الافضل والامتع بكثير الرقاد تحت الشمس، دون عمل شيء وكسب البدانة.

في البداية حاول زاخار دينيسوفيتش تخويف فيودور، وبعد ان رأى بان هذا اعطى نتائج معينة، قرر مخاطبته اعتمادا على نوازع الضمير.

– الا تخجل؟ الا تستحي من التطلع الي وجها لوجه؟ لقد وفرت لك الطعام والشراب بينما انت... آه، فيودور... فيودور... المسيحيون لا يفعلون هذا. وانت، حاشا الله، هل من الكمسمول؟ فهم الكفرة والمشاغبون يستطيعون ارتكاب مثل هذه الافعال!..

هز زاخار دينيسوفيتش رأسه معاتبا مراقبا فيودور بطرف عينه.

وقف فيودور مطرق الرأس، ويلوي قبعته بيده. كان يدرك شيئا واحدا فقط: ان جميع خططه التي رسمها ليلا، حول كيفية كسب النقود لشراء حصان، قد انهارت. وتملكه شعور بانه انهالت عليه جائحة لا يمكن اصلاحها، وليس له منها خلاص.

استدار صامتا واتجه نحو الجرن، وكان العمل يجري هناك على قدم وساق: وتم جلب الحبوب من المخازن البعيدة، والماكينة هادرة. وكان فرول عامل التلقيم يصرخ داسا في فوهة ماكينة الدرس النهمة الحزم ذات الحبوب الكبيرة الحجم، بينما تزعق النساء اللواتي يجمعن التبن، وتصاعد الغبار الذهبي في عمود برتقالي متأرجح.

٨

في ذلك اليوم كان فيودور يمشي كالنائم ولم تعد يداه بقادرتين على عمل شيء.

كان السيد يصرخ عابسا:

– ايه... ايها المتبطل السكير، الى أين تقود العربة؟ الى اين... الى اين!..

ثاب فيودور الى نفسه وهز الحبل المربوط الى قرون الثورين، ورنا بعينين لا تريان شيئا الى كومة العصافة التي تعلقت بالقسم الخلفي للعربة.

تناولا طعام الغداء على عجل في الجرن. ثم أخذت الماكينة تطقطق مجددا ببطء وعلى مضض اولا ومن ثم بحركات جذلة اكثر فاكثر. وانهمك في مداراتها عامل التشغيل الملطخ بزيت التشحيم اللامع. وغالبا ما كان عامل التلقيم يطعم الدارسة النهمة بحزم القمح، وكان العمال المشدوهون الذين يعطسون بسبب الغبار الحريف يعبون الماء من الدلو بجشع كالكلاب، حينما تنتهي فترة نوبتهم، ثم يستلقون في مكان ما تحت اكداس حزم القمح لنيل قسط من الراحة. قبيل حلول المساء استدعوا فيودور الى الغناء.

وصاحت ربة البيت وهي تمشي في سبيلها:
– هناك متسولة تدعوك عند البوابة؟
مسح فيودور عن وجهه الوسخ المبلل بالعرق وتوجه الى البوابة. كانت امه واقفة عند السياج.
انتفض وانقبض قلب فيودور من الاسى. فخلال شهرين زاد عمر امه ما يعادل عشر سنوات. وتراءت شعرات بيضاء من تحت منديل الرأس الاصفر المهلهل. وتدلت اطراف شفتيها بعذاب نحو الاسفل. وسحت الدموع من عينيها اللتين كانت تتحركان بقلق وبذل. تعلق بكتفيها خرج هزيل ومرقع واخفت وراء ظهرها عصا طويلة عليها آثار عضات الكلاب.
خطت نحو فيودور والقت برأسها على كتفيه. وأخذت تنتحب نحيبا جافا قصيرا شبيها بنوبات السعال.
– هكذا.. بهذه الصورة التقينا.. يا ولدي!
كانت العصا تضايقها. فوضعتها على الارض ومسحت الدموع بكم ردائها. وارادت ان تبتسم واومأت بعينيها لفيودور باتجاه الخرج، لكن شفتيها التوتا بشكل قبيح بدلا من اظهار الابتسامة. وتدحرجت دموعها المنهمرة فوق وجنتيها المتجعدتين نحو الاطراف الوسخة للمنديل.
تجمع الخجل والشفقة والحب تجاه امه في عقدة اعاقت فيودور عن الكلام. وأخذ يفتح ويسد فاهه بتشنج ويهز كتفيه.
سالت الام معكرة حبل السكون الثقيل:
– هل تعمل؟
فقال فيودور بصعوبة:
– نعم...
– ورب البيت... هل هو طيب؟
– لنذهب الى الداخل، وسنتحدث في المساء.
ولكن الام تململت فزعة:
– كيف... انا... وبهذه الهيئة...
– لنذهب مهما كانت هيئتك.

استقبلتهما ربة البيت عند شرفة المدخل:
– الى اين تقودها؟ ليس لدينا ما نعطيه لك، يا عزيزتي! الله يعطيك!
قال فيودور بصوت خافت:
– انها أمي!
ضحكت ربة البيت بوقاحة وصارت تتفحص المرأة المرتبكة من اخمص القدمين وحتى قمة الرأس، ثم دخلت البيت بصمت.
قال فيودور راجيا وبتلعثم:
– ماريا فيودورفنا، اطعمي أمي. انها تعبة من الطريق...
ابرزت ربة البيت من الباب سحنة غاضبة:
– هل لي ان اعد الغداء عشرين مرة؟.. لتنتظر حتى حلول المساء فلن تهلك جوعا حتى ذلك الحين وستأكل مع العمال.
ثم صفقت الباب بشدة. وتردد من النافذة المفتوحة صوت غاضب:
– لقد جلس الابالسة على يافوخي... وسيملأ الفناء كله بالمتسولين. لتفطس، عليك اللعنة! ايها المتبطل!..
همس فيودور الذي تضرج وجهه بالحمرة قائلا:
– لنذهب الى السقيفة حيث أقطن.

٩

ادلهم الظلام. وخيم السكون على الجرن. ودخل العمال البيت لتناول العشاء. واعدت ثلاث موائد في المطبخ. وجلس وراء احداها رب البيت وزوجته وعامل تشغيل الماكينة وبعض العمال الآخرين وجلس في طرفه فيودور وامه.
كان زاخار دينيسوفيتش يأكل العصيدة السائلة ببطء، ولدى التطلع الى حواليه تجهم: فالعمال يلتهمون الكثير من

الطعام – ولن يمر يوم دون ان ياكلوا كومة من الخبز، كما لو كانوا في وليمة تأبين.

التزم عامل تشغيل الماكينة الصمت عابسا اذ شعر بتوعك. بينما كان فرول عامل التلقيم يمضغ الطعام بتلذذ، محركا اذنيه، مثرثرا بدون توقف:

– كيف الحال يارب البيت العزيز، هل انت راض عن العمل؟

فقال زاخار دينيسوفيتش بخنة من أنفه:

– راض... راض... وما الذي يرضيني؟ الدرس كثير اما العمال في هذه الايام فليس ما كانوا عليه قبل الحرب. الهمة معدومة، هذه المسالة. لناخذ ولو عاملي فيدكا، انه ياكل كرجل بينما يعمل كصبي. كل العمل يتكلف به رب البيت، بينما يطلب نقودا، والله اعلم مقابل أي شيء.

رمق فيودور امه بنظرة خاطفة، فابتسمت بارتباك وبمذلة. كانت ربة البيت قد وضعت قصعة العصيدة عن قصد بعيدا عنها، وابعدت الخبز الى طرف المائدة. ورأى فيودور أمه تاكل بدون خبز، وكانت تنهض في كل مرة من المائدة لكي تبلغ يدها القصعة.

وكرر رب البيت مقهقها:

– انهم يعملون كالصبيان... – (يبدو ان هذا التعبير قد اعجبه)، – بينما ياكلون كرجال!..

القى فرول نظرة سريعة الى وجه فيودور الشاحب، وارتعشت شفتاه. وسال بجفاف:

– عمن تتحدث؟

– عموما.

– كيف... عموما؟ – وضع فرول الملعقة واستند على المائدة وضيق عينيه وحدق باصرار في قصبة انف رب البيت، وصار يشد قبضتيه ويرخيهما.

فقال زاخار دينيسوفيتش بخيلاء دون ان يلاحظ المماحكة:

– عن العمال عموما...

احس العمال الجالسون وراء المائدتين المجاورتين بان المشاجرة قد نضجت فكفوا عن اللغط واصاخوا السمع.

قال فرول بصوت عال:

– ماذا لو لطمتك على بوزك، يا وغد، لقاء مثل هذا الكلام؟

وجف رب البيت. وجحظت عيناه وصار يتطلع صامتا الى وجه عامل التلقيم المتصبب عرقا والغاضب. واخيرا قال بصوت متحشرج:

– كيف؟

– هل تريد ان تجرب؟ بوسعي ذلك!..

– حذار، يا صاح، سياخذونك لقاء مثل هذا الكلام الى الميليشيا فورا.

– ما... ذا؟..

خطا فرول من وراء المائدة، لكن عامل التشغيل امسكه من يده، وأجلسه على المصطبة قسرا.

تمتم زاخار دينيسوفيتش وقد ثاب الى رشده:

– لا حاجة للشتائم هنا!..

فصرخ عامل التلقيم الذي اغتاظ:

– لا حاجة للشتائم هنا، اما بوزك الطيني فلابد من تهشيمه مثل قرص العسل... هذا كل ما في الامر... لا تنس يا ابن الزنا، انه لم تعد لديك سلطات أمس! انني ابصق عليك! ولا تجرأ على اذلال العمال. لو كنت مكان فيودور هذا لانتزعت روحك منذ وقت بعيد!.. لقد سررت ان وقع الصبي بين مخالبك، فتذله. نحن نعرف امثالك! ماذا جرى، هل لسانك عاجز عن الكلام؟.. صه!.. الآن لا تستطيع الشكوى الى مدير الشرطة. انني سفكت دمي في الجيش الاحمر، اما انت فتجرأ على اذلال العامل؟

قال عامل تشغيل الماكينة وهو يهز كم جاكتة فرول المغضنة:

– ارجوك فرول، اسكت، ارجوك!

– لا استطيع!.. انه اخرجني عن طوري!..

هدأ رب البيت، ونقل الكلام الى الحديث عن المحصول وعن الحراثة الخريفية. اما عامل تشغيل الماكينة الذي كان يلتزم الصمت قبل هذا فصار يبادله الحديث عن طيب خاطر بغية تسوية الانطباع الذي تركته المشاجرة. وبغتة اصبح زاخار دينيسوفيتش لطيفا وديعا وحذرا مترويا للغاية. وابدى السخاء في حث العمال على الاكل، وفي النهاية حتى خاطب فيودور قائلا:

– لم تأكل، يا فيودور، بدون خبز؟ اقطعي له يا امرأة قطعة كبيرة. الخبز عندنا كثير الآن والحمد لله.

ابعد فيودور قطعة الخبز اليابس، واجاب عن نظرة الاندهاش التي بدرت عن رب البيت بان برطم بشفته:

– ان خبزك مر!..

– هذا حق! – ضرب عامل التلقيم المائدة بقبضته وخرج في اعقاب فيودور.

وتبعهما العمال بارتياح وبالاتفاق معا.

اصطبغ وجه زاخار دينيسوفيتش بالحمرة وصارت عيناه تطرفان وينتقل من مائدة الى أخرى صارخا بصوت عال:

– ماذا جرى لكم يا اخوان؟.. ثمة عصيدة حليب ايضا!.. يا ربة البيت اجلبي كل شيء بسرعة الى الموائد.

وقال احدهم ساخرا:

– شكرا على الضيافة!

١٠

في صباح اليوم التالي تهيأت ام فيودور للانصراف دون انتظار الفطور.

وسأل فيودور على مضض:

– لم لا تبقين هذا اليوم؟

كان لسبب ما يشعر بخزي لا يمكن التغلب عليه من

نفسه ورب البيت وأمه وحياته كلها الخالية من البهجة والمزرية. لهذا كان الامر سيان له تماما ان بقيت امه ذلك اليوم ام لا، بالرغم من انه شعر يوم امس لدى لقائها بفرحة غامرة مشرقة.

وجب ان يبقى وحيدا بعد كل ما حدث مع افكاره، مع غيظه واستنكاره لهذا العالم، حيث لا يجد ملاذا لدى اي أحد، ولا يجد من يقدم له المشورة. ولايجد من يقول له كلمة تعاطف ودية.

ان الام كانت ايضا في عجلة من امرها للانصراف. فقد كانت تؤلمها رؤية ابنها، وآلمتها اكثر مقابلة عيون اصحاب البيت الحاقدة والنهمة كعيون الكلاب التي تتابع كل لقمة تأكلها.

– لا يا ولدي. انا ذاهبة. سنلتقي فيما بعد.

فتمتم فيودور بلا اهتمام:

– حسنا.

توادعا. وتذكر فيودور بان امه بلا طعام في الطريق.

– مهلا يا ماما. سأذهب لاطلب من ربة البيت. فلربما ستعطيني مكيالا من الحنطة. ان رب البيت لا يدفع لي النقود، وسأخذ الخبز من حساب الاجرة... ويمكنك بيعه...

أخذت ربة البيت مفاتيح العنبر تلبية لطلب فيودور وتوجهت دون قول كلمة واحدة. ولدى فتح القفل سألت:

– هل يوجد كيس؟

– نعم.

فتح فيودور الكيس وتطلع جانبا الى الجدار البني لمخزن الحبوب، الذي تغطيه خيوط العنكبوت. وسكبت ربة البيت من المكيال الناقص مقدارا ضئيلا من الحنطة المخلوطة بالعصافة.

تناهى الى سمعه صرير الباب، ودخل رب البيت وبطنه متدلية امامه. دفع زوجته جانبا:

– اذهبي الى البيت.

ثم دنا من فيودور بخطوات قصيرة. فانزل هذا الكيس بعناية واتكأ على جدار المخزن منتظرا.

– ما هذا؟.. – قال ذلك بصوت متحشرج وبتكلف – هل تتسلم الحنطة؟..

– نعم.

– تحرض على التمرد؟ والمشاغبة؟ بسببك كادوا يعتدون على سيدك وهو في بيته. وانت... تأخذ حنطتي... ها؟..

صمت فيودور. تبدلت سحنة رب البيت وصار يقترب منه اكثر فاكثر وفجأة تلعثم وزعق صارخا بصوت رفيع:

– اخرج من بيتي!.. اخرج يا ابن الكلبة!..

رفع فيودور الكيس بيده اليسرى وخطا نحو الباب، لكن السيد انقض عليه كالديك، وانتزع الكيس من يده، ولوح بيده عاليا ولطم فيودور على وجهه بعنف.

تراءت امام عيني فيودور شرارات صفراء، وسيطر عليه حنق شديد افقده صوابه وشعر بيديه ثقيلتين كالرصاص... مشى فيودور متأرجحا وامسك بيد واحدة العنق المكتنز لرب البيت، وضرب بقبضة يده الاخرى بشدة الرأس المنقلب الى الوراء.

في ثلاث ثوان كان زاخار دينيسوفيتش طريحا يتلوى تحت فيودور مثل افعى بدينة محاولا عض فيودور في وجهه. اما فيودور الذي عض شفتيه حتى سالت منهما الدماء فاخذ يضرب بقوة على العنق السميك والضخم والاسنان المصطكة بالقرب من وجهه. واستخدم زاخار دينيسوفيتش كافة اساليب النساء: التخديش والعض وجز فيودور من شعره، الا انه بعد دقيقة، وحينما اشبع ضربا وصار يلهث، انفجر في البكاء وبلل شفتيه بالدموع وبقي راقدا، وكان يتأوه عاجزا ويتجشأ ويرتج ببطنه...

نهض فيودور ومسح الدم من وجهه المخدش، متوقعا حدوث هجوم جديد، لكن رب البيت انكفىء على بطنه وجار وزحف كالسرطان نحو الباب.

وجال في خاطر فيودور: «هذا جزاء كل شيء! جزاء كل شيء!..» وعدل قميصه ورفع الكيس وحالما امسك بسقاطة الباب حتى سمع صرخة بعويل:

– النج... دة!.. قا... تل! النجدة–ة–ة! يا ناس!..

فجأة تملكت حنجرة فيودور نوبة من الضحك واتكأ على دعامة الباب وقهقه بشكل لم يعرفه منذ مصرع والده. خرج الى الفناء بعد الانتهاء من الضحك. وكان زاخار دينيسوفيتش يقف في وسط الفناء منفرج الساقين ويردد، متجاهلا اسئلة العمال المحيطين به، صائحا من فوهة فمه السوداء:

– النج – دة!..

١١

وقبل ان يخرج فيودور بعد توديع امه قرر ان يسأل رب البيت:

– اذن لن تدفع لي؟

– أد... فع!.. ينبغي طردك لا ان تدفع لك النقود... انتظر فستطالك يدي. سارفع دعوى في المحكمة الشعبية ضدك! انهم لن يسمعوا الترهات من صعلوك مثلك!

– اذن لتزداد ثروة بالعافية، زاخار دينيسوفيتش. اخالني لن اموت جوعا بدون نقودك.

– كفى لغوا. قلت لك اخرج من هنا.

وقف فيودور هنيهة متأملا ثم خطا نحو العتبة بدون كلمة وداع. انبعث صريف من البوابة. وقرقعت سلاسل كلب الحراسة بالقرب من العنبر.

توقف فيودور مجددا لدى الخروج من البوابة. وكانت قد انطفأت انوار المساء في القرية. وسمعت نقنقة آلة ارمونيكا من طرفها، ولغط كلمات اغنية. وبين حين وآخر كانت تغطي القهقهات على الغناء. كانت قهقهات مرحة وصاخبة جعلت فيودور يعزف عن التفكير في بليته، ووجود

المصائب عموما. توجه ماشيا في الشارع على غير هدى. وقطع مسافة حي واحد واراد الاستدارة نحو الزقاق من اجل بلوغ الجرن الاخير والمبيت في التبن. وفجأة صاح عليه احدهم:

– أهذا انت فيودور؟

– نعم.

– هيا... تعال هنا.

اقترب وامعن النظر. كان يجلس تحت السياج المضفور فرول عامل التلقيم وقد انزل طرف قبعة القش على قفاه مما يعني ان صاحبها لم يبلغ به السكر مداه بعد. وفرش بعناية امامه على العشب الذي لفحته الشمس منديل وسخ. ووضعت على المنديل قنينة طويلة العنق تنبعث منها الرائحة الكريهة للفودكا البيتية، ونصف خيارة، ورغيف خبز ابيض طازج.

– أجلس!

وجلس فيودور الى جانبه مبتهجا بهذا اللقاء.

– هل انت راحل؟

– نعم.

– هل اشبعت سيدك ضربا؟

– كلا، قليلا جدا.

– مع الاسف جدا. كان يجب اعطاءه المزيد. كم عشت لديه؟

– شهرين.

– تستحق لفترة شهرين خمسة عشر روبلا على اقل تقدير. لان الآن موسم العمل. وانا نفسي كنت اوافق على ان يضربني احدهم مقابل خمسة عشر روبلا. صدقني، انه ربح بذلك.

صمت فيودور. وطوى فرول ساقيه تحته والقى القبعة ورفع رأسه وادخل عنق القنينة في فمه. وبقبق شيء ما طويلا ثم طرطش، ثم قامت القنينة بنصف دورة واضحت في يد فيودور.

– اشرب...

– انا لا اشرب.

– لا تشرب؟ لا حاجة. مرحى لك.

ودخل نصف عنق القنينة مجددا في فم فرول، وتطلع فيودور صامتا الى السماء المزخرفة بلونين ازرق وذهبي.

أفرغ عامل التلقيم القنينة وصارت عيناه تبرقان بجذل. وأخذ يضحك بلا سبب، ويحرك قبعته فوق رأسه الى الامام والى الوراء.

– هل سترفع دعوى في المحكمة؟

– لأي سبب؟

– أنت احمق، السبب هو انك عملت فترة شهرين بلا مقابل! هل سترفع الدعوى؟

اجاب فيودور بتردد:

– لا أدري.

– استمع الى قولي... – بدا عامل التلقيم الحديث مقضقضا الخيارة، – اذهب مباشرة الى عزبة دوبروفسكوي. هناك خلية كمسمول، اذهب اليهم وسيدافعون عنك. انا يا أخي حاربت نفسي في الجيش الاحمر، وارحب بالحياة الجديدة. لكنني نفسي لا استطيع بسبب ضعفي الموروث. لقد ورثته عن ابي... فانا أحتسي الفودكا. وفي ظل الاشتراكية السوفيتية مثل هذا غير جائز. هكذا... والا فانني، – واتسعت عندئذ حدقتا عيني عامل التلقيم، – كنت قد حصلت على التعليم وانضممت الى الحزب بالاجماع. وآنذاك كنت قد ضيقت الخناق على الاصدقاء من امثال سيدك.

بعد لحظة فارقته حيويته وتطلع بوهن الى القنينة من العنق الى القاع ومسدها بلطف بيده. وكرر بلهجة لامبالية:

– اذهب الى الكمسموليين. هناك لن يسمحوا بايذاء أحد. هناك اهلك الاحباء. انهم فقراء مثلي ومثلك.

بعد هنيهة اخلد الى النوم تحت السياج المضفور. جلس فيودور غارقا في التأمل واضعا رأسه بين راحتي

يديه. ولم ير كيف اخذ كلب صغير، مر بهما، يتشمم عامل التلقيم السكران فبال عليه وواصل مشيته.

صاحت أولى الديكة، وبالقرب من البركة الكائنة خارج القرية بطبط وسط نبات القصب علجوم كبير الحجم. وطقطقت مذراة بصوت مكتوم في مكان ما في القرية وكانت تتوقف تارة وتشتغل تارة اخرى، فقد استغل احدهم الطقس الطيب وعمل طوال الليل بالمذراة. نهض فيودور. وحدق في عامل التلقيم الذي يشخر، واراد ايقاظه لكنه غير فكره، ولوح بيده، ومضى على مهل نحو الاجران.

١٢

في منتصف نهار اليوم التالي بلغ فيودور عزبة دوبروفسكي وسار في الصباح مسافة عشرين فرسخا ونيف. وفي نهاية المسيرة اصابه الانهاك، تعبت قدماه وآلمتاه، وبالاخص احس بالألم في راحتي قدميه وسمانة ساقيه.

بدت العزبة من الرابية كما لو كانت في راحة اليد: الساحة والكنيسة البيضاء المتقشرة الجدران، المربعات البيضاء للبيوت والعنابر، والدوامات الخضراء للبساتين، ومسارات الشوارع الرمادية المغبشة.

هبط الى اسفل الرابية، واستقبلته الكلاب في البيوت الطرفية بالنباح متكاسلة. وصل الى الساحة، وبدت الى جانب المدرسة الانيقة جدران البيت الشعبي المطلية بالجير اللامع. وسأل صبيا مر به مسرعا:

— اين مقر الكمسمول عندكم؟

— هنا... في البيت الشعبي.

اعتلى فيودور الشرفة بوجل، ودخل عبر الباب المفتوح على مصراعيه. وبلغته اصوات خافتة من مكان ما في اعماق الغرف. تردد صدى خطوات فيودور عاليا تحت السقف المطلي المرتفع. وسمع اصواتا في نهاية الطرقة وراء احد

الابواب. ودخل. ادار حوالي ستة من الفتيان والفتيات الجالسين على اطراف النوافذ رؤوسهم لدى سماع صرير الباب. وحينما راوا وجها غريبا اخذوا يتفحصونه بصمت.

— هل هنا الكمسمول؟

— هنا بالضبط.

— ومن الرئيس عندكم؟

فاجاب فتى يغطي النمش وجهه:

— انا السكرتير.

قال فيودور بوجل كالسابق:

— لدي عمل لكم.

— تفضل يا رفيق. تحدث.

اجلسوا فيودور بعناية على كرسي بلا مسند. واحاطوا به من كافة الانحاء. في البداية احس بالارتباك تحت النظرات المتقاطعة للشباب الغرباء عنه. غير انه لدى التطلع الى الوجوه البسيطة البشوشة تذكر اقوال فرول عامل التلقيم: «انهم مثل اهلك الاحباء». تذكر هذا، وانفكت عقدة لسانه. تحدث بتلعثم وبقلق عن حياته لدى زاخار دينيسوفيتش. وحينما روى كل ما لحقه من أذى كانت الدموع تنحبس بلا ارادته في بلعومه. وتهدج صوته، وبات من العسير عليه التنفس. وفي اللحظات القليلة التي كان يرمق فيها الشباب غلبه الخوف من ان يرى السخرية المذلة على وجوههم. الا انها كانت جميعا عابسة ومتجهمة. وكانوا يبدون تعاطفهم معه، بينما كانت ترتجف غضبا شفتا السكرتير ذي الوجه المغطى بالنمش. انهى فيودور كلامه كما بدأ فجاة. صار الشباب يحدق في بعضهم البعض صامتين.

وعكر احدهم السكون قائلا:

— الى المحكمة؟

صاح السكرتير بانفعال غاضب:

— طبعا، الى المحكمة! والا فالى من نتجه؟

ثم التفت الى فيودور وسأل:

— اين تعمل الآن؟

– لا اعمل في أي مكان.
– واين تعيش؟
– كنت قبل هذا اعيش في دانيلوفكا. وتوفي ابي، وامي تتسول. وليس لدي مكان اعيش فيه...
– ماذا تنوي ان تفعل؟
اجاب فيودور بتردد:
– انا نفسي.. لا ادري. آمل ان اجد عملا ما...
– لا تقلق بهذا الشأن. سنجد لك عملا.
– سنجده!
اقترح احدهم قائلا:
– لتبق عندي الآن.
وبعد ان استفسر منه عن بعض التفاصيل قال السكرتير ولقبه ريبنيكوف:
– اكتب يا رفيق عريضة الى المحكمة الشعبية، ونحن سندعمك باسم الخلية. وسيذهب احد الشباب معك الى سيدك السابق، وسيجلب حاجياتك. وستعيش مؤقتا عند يغور، عند هذا الشاب. – واشار باصبعه نحو احدهم.
– اما عن المحكمة فمسألتها منتهية. ان قروش العامل الزراعي لاتضيع. وسيقدم ايضا الى المحكمة بسبب استغلاله لك، دون ان يعقد اتفاقية مع لجنة العمال الزراعيين.
توجهوا متحشدين معا نحو المخرج. ومشى فيودور دون ان يشعر بالتعب. وبدا هؤلاء الشباب الخشنو المظهر الذين لفحت الشمس وجوههم من اعز الاهل والاحباب لديه. واراد ان يعبر بأي شكل عن امتنانه لهم، لكن فيودور سار صامتا خجلا من هذا الشعور. وكان يرمق فقط بابتسامة هادئة وجه يغور النحيل المعقوف الانف.
بينما كان يخطو في غرفة مدخل بيت يغور تذكر مجددا عبارة «الاهل الاحباء»، وابتسم متصورا في ذهنه عامل التلقيم السكران: لقد حدد بهذه التسمية كل شيء بدقة. انهم بالضبط «اهل واحباء» ليس غير.

كان يغور يعيش مع امه وشقيقته الصغيرة. واستقبلت والدة يغور فيودور و كأنه ابنها: وابان الغداء ابدت العناية في دعوته للاكل. وغسلت ملابسه، وكانت معاملتها له لاتختلف في شيء عن معاملتها لابنها.
في البداية ساعد فيودور يغور في أمور المزرعة. وعملا سوية في حراثة الارض استعدادا للخريف، والاحتطاب، والعناية بتنظيف الماشية، وفي اوقات الفراغ احاطا البيت من جديد بسياج مضفور من اغصان الصفصاف الغضة.
حل الخريف رويدا رويدا. كان الطقس جافا وبلا رياح. وفي سويعات الصباح كان النسيم باردا. وصارت اشجار الحور في الفناء تفقد اوراقها المصفرة يوما بعد يوم. وتعرت البساتين تماما. وبدت الغابة البعيدة الافق مثل ذقن غير حليق لرجل مريض.
كان فيودور ويغور يذهبان الى النادي في الامسيات. واصاخ فيودور الى أفكار وكلمات لم يعرفها من قبل. واستوعب كل شيء بعقل يتعطش الى ادراك ما يسمعه من دروس في السياسة ايام السبت، وفي المحادثات مع الخبير الزراعي حول مسألة تهمه للغاية كالزراعة. ومع هذا وجد صعوبة في اللحاق بالشباب الآخرين. فقد حفظ هؤلاء اوليات دروس السياسة عن ظهر قلب. وكانوا يطالعون الصحف، ويستمعون طوال العام الى محادثات الخبير الزراعي المحلي. وبوسعهم الاجابة عن أي سؤال بدقة ووضوح (كان السكرتير ريبنيكوف حتى يقرأ ماركس ضاغطا بقبضة يده على خده المنمش)، اما فيودور فما زالت تعوزه المعرفة كثيرا.
وعموما ان تمسك بيديك قبضتي المحراث الخشنتين وان تحس في اثناء العمل رجفته الحية الحارة تحت يديك هو امر، وان تمسك بشيء قصيف ورقيق كالقلم بيدك امر آخر: فاولا ان الاصابع ترتجف والساعد يخدر، وثانيا

ان هذا القلم الخبيث سهل الكسر. وقد اعتادت يدا فيودور على العمل الاول بقدر اكبر. ان والد فيودور حينما رزق به لم يكن ليتصور ان يصبح فتى متعلما. ولهذا منحه يدي زارع قمح، فهما عريضتان في الرسغ، وكثيفتا الشعر وقبيحتان، بيد انهما قويتان كالحديد الزهر. مع هذا صار فيودور شيئا فشيئا يستوعب ماحوته الكتب من حكم: اذ أخذ بشكل ما – مثل مزلجة عتيقة تسير في طريق متعرجة – يستطيع الحديث عن معنى «الطبقة» و «الحزب»، والمهام التي يتوخاها البلاشفة، والفرق بين البلاشفة والمناشفة.

وكانت كلماته مثل حركته – خرقاء ومقتضبة، لكن الشباب كانوا يستمعون لها بكل جد. وان حدث وضحكوا في احيان نادرة، فلم يكن في ضحكهم ما يبعث على الاساءة. وقد احس فيودور بهذا، ولم يستاء.

حدث في شهر ديسمبر وقبل يوم من انعقاد الاجتماع ان قال ريبنيكوف مخاطباً فيودور:

– اسمع، اكتب لنا طلبا. وسنقبلك. وستصادق لجنة كمسمول المنطقة على الطلب. وعندئذ، يمكنك الذهاب للعمل في الربيع. والآن تجري حملة لجذب اكبر عدد من العمال المزارعين الشباب الى الكمسمول. وكانت خليتنا سابقا غافية لان السكرتير كان ابن كولاك* .والكثير من الاعضاء غير صالحين... وتحللوا مثل الجثة النافقة في القيظ... وقمنا بتطهير الخلية منهم قبل شهر من قدومك. اما الآن فيجب العمل. وينبغي رفع مكانة خلية دوبروفسكي امام الناس. وسابقا لم يكن يعرف اعضاء كمسمولنا سوى شرب الخمر، والتحرش بالبنات في اثناء اللعب. اما الآن فقد انتهى ذلك! وهكذا نسير بالعمل بحيث يجتاح كل مقاطعة الدون. وحالما تجد مكانا للعمل نكلفك بمهمة. وعليك ان تجذب الى الخلية كافة العمال الزراعيين. فهمت؟ سنتوزع جميعا في القرى.

* كولاك – فلاح غني يستغل عمل الغير. **الناشر.**

– ماذا تعتقد، هل استطيع اداء المهام؟ فانني لا أجيد التبحر في الكتب.

– دع عنك هذا الكلام! ستعرف أي شيء لا تعرفه قبل انتهاء موسم الشتاء، ونحن ايضا غير متضلعين جدا في الامور.. ان لجنة المنطقة لاتهتم بامرنا: فلا تزودنا بأية كتب دراسية او أية نصيحة عملية، بل توجه لنا الاوامر فقط. ونحن يا اخي سنبلغ كل شيء بقوانا الذاتية. هكذا!

تركت اثرا عميقا في عقل فيودور كلمات ريبنيكوف بصدد جذب العمال الزراعيين الشباب في العزب والقرى المجاورة للانضمام الى الاتحاد، وكانت مثل بذور الحنطة الطيبة التي وقعت في ارض خصبة. وتذكر حياته لدى زاخار دينيسوفيتش، وثار حماسه للعمل. وفي مساء اليوم نفسه خربش بطريقة ما طلب الانضمام. بيد انه اورد سبب الانضمام الى الكمسمول بغير الصورة التي علمه بها يغور. فقد كان هذا يقول: «اود الحصول على التربية السياسية». لكن فيودور امعن الفكر قليلا وكتب بالاسود والابيض وبدون نقاط وفوارز:

«من حيث انا عامل، لذا ارغب في الانضمام، بغية ان اكون عارفا في شئون السياسة بقدر كبير وان اجذب كافة العمال الزراعيين الى الكمسمول لان الكمسمول بالنسبة الى العمال الزراعيين بمثابة الاهل والاحباب».

طالع ريبنيكوف الطلب وتجهم عابسا.

– هذا صحيح... لكنك بالغت جدا في الكتابة. على أية حال، لا بأس به. ستمر!..

بدأ الاجتماع في وقت متأخر مساء. وتردد في النادي لغط متعدد الاصوات. وتم انتخاب هيئة رئاسة الاجتماع. والقى ريبنيكوف تقريرا عن الوضع الدولي. ثم انتقلوا الى الشئون اليومية.

انتظر فيودور بقلب واجف الوقت الذي سيتلون فيه طلبه.

في نهاية المطاف قال ريبنيكوف بصوت عال وهو يسعل ويلقي على المجتمعين نظرة فاحصة.

– ورد طلب من فيودور بويتسوف المعروف لديكم.

تلا الطلب ببطء وبعد ان وضع الورقة على الطاولة سأل:

– من «يؤيد» ومن «يعارض»؟

نهض يغور من المصطبة الاخيرة وتحدث مادا انفه المعقوف فقال:

– ما الحاجة الى الكلام؟ ان الفتى من العمال الزراعيين وابن فلاح فقير من دانيلوفكا. والآن صار متعلما من الناحية السياسية، ويمكن ان يليق... وما الكلام، فيجب قبوله!

– من يعارض؟

لم يوجد معارض. وشرعوا بالتصويت. ورفعت الايدى الكثيرة العدد مثل نبوتات الاسيجة. كان عدد «المؤيدين» ستة وعشرين شخصا، اي اعضاء الخلية جميعا. وحينما احصى ريبنيكوف الاصوات نظر الى وجه فيودور السعيد:

– تم قبوله بالاجماع!

جلس فيودور حتى انتهاء الاجتماع بجهد جهيد. ولم يكن يدرك جيدا مادار حوله من احاديث. وهاجم ريبنيكوف بحماس بروفي تشيرنوف وادانه لمشاركته في الالعاب بين الشباب في الامسيات. وبرر هذا موقفه مشيرا الى الشباب الآخرين. وبلغت اصواتهم مسامع فيودور وكأنها آتية عبر جدار سميك. بينما كانت تمضي الافكار في عقله ملتوية: «الآن اصبحت احد افراد اسرتهم... والا فانني كنت مثل ابن الضرة. هؤلاء اهلي واحبائي. الحياة معهم هنيئة ونقف كتفا الى كتف كالجدار المنيع...»

زعق صوت ما:

– صه!.. سكوت... انتهى الاجتماع. فانيا، هل تستنسخ المحضر؟..

ترددت قرقعة القفل المعلق وتوجهوا نحو المخرج، كانوا يدخنون عند المدخل وير تجفون من البرد المتسلل

من الفناء الى الطرقة. وسار فيودور مع يغور وريبنيكوف. ونزلوا من الشرفة فوق الدرجات المتجمدة، وتعثروا فورا بكومة من الثلج، ولدتها الرياح خلال فترة الاجتماع. وكان يغور اول من عبر الكومة متنحنحا، وتبعه فيودور. وعند مفترق الطرق ودع ريبنيكوف فيودور وضغط بشدة على يده الباردة. وقال متطلعا في عينه عن قرب:

– خذ بالك، فيديا. لا تخيب الآمال التي نعقدها عليك. انت الآن عضو في الكمسمول. وانت تتحمل مسئولية عن افعالك اكثر من الفتى غير الحزبي. فانت تعرف. وداعا ياصديقي!

هز فيودور يده بصمت. واراد ان يجيب، لكن تشنجت حنجرته. ومضى صامتا للحاق بيغور. همس لنفسه متحسسا بذلك الانحباس السار للدموع في حنجرته:

– اصبحت كامرأة، رقيقا... يجب ان اكون اكثر خشونة، فلست صغيرا، ومع هذا لا استطيع!.. انهالت علي السعادة... ومنذ فترة قريبة فقط كنت اظن انه لاتوجد على الارض سوى المصائب... وجميع الناس غرباء؟..

١٤

في صباح اليوم التالي جرى استدعاء فيودور الى اللجنة التنفيذية للمنطقة.

– تبليغ بالحضور الى المحكمة. وقع هنا.

وقع فيودور، واقترب من النافذة وقرا التبليغ. وسينظر في الدعوى يوم الحادي والعشرين من الشهر. ورنا فيودور الى التقويم الجداري واصابته الحيرة: فقد بدا تحت صورة لينين الرقم «٢٠».

توجه الى البيت بسرعة واخذ يستعد للسفر.

– الى اين انت ذاهب؟

– الى الدسكرة لحضور محاكمة السيد. تلقيت تبليغا

بهذا الآن. ستبدأ المحاكمة غدا. تلكم هي الامور! هل سالحق في الوصول مشيا على الاقدام؟

نظر يغور عبر النافذة المغطاة بالزمهرير وكانه عجينة. ووجد في السماء المزرقة قرص الشمس الاصفر. وقال بتأمل:

– هكذا... امامك خمسة عشر فرسخا، بمعدل فرسخين في الساعة. وهذه مسيرة طويلة تبلغ سبع ساعات... وسترى انك ستصل الى هناك بحلول الليل.

– حسنا... انا ذاهب.

– هل اخذت شيئا من الطعام؟

– نعم.

خرج يغور الى ما وراء البوابة مودعا. وصاح في اعقابه:

– امش بسرعة، والا فسيدلهم الظلام! ذئاب!

عدل فيودور وضع الحقيبة، وشد الحزام فوق معطف الفرو القصير، وسار بخطوات واسعة في وسط الدرب، في الطريق التي امتدت فيها آثار المزلجات. واعتلى الرابية وتطلع الى الخلف نحو العزبة الملفعة بالثلج الابيض. ثم حرك كتفيه واحس بالعرق على ظهره، ومضى بسرعة باتجاه الدسكرة.

هبط من الرابية ثم صعد أخرى. وهبط من الرابية ومرة ثانية صعد أخرى. وسبحت امامه في الافق بانسياب شرائط الغابات والاحراش المغطاة بالثلج. وكان الثلج يلمع ببريق من الشرارات الزرقاء يخطف الابصار. واشعة الشمس التي تنغرز في الكثبان الثلجية تطوق الدرب باقواس قزح.

خطا فيودور بسرعة داقا الارض بعصاه، مطلقا دخان التبغ الحلو في الزمهرير. مشى حوالي ثمانية فراسخ. وتطلع الى الشمس المنحدرة نحو خط الافق المتموج الرفيع مثل خيط العنكبوت. واخرج من الحقيبة قطعة خبز وقطعا صغيرة من شحم الخنزير. وجلس القرفصاء على جانب الطريق، وبعد تناول وجبته، عاود السير مجددا، ساعيا الى تدفئة جسمه بالمشي الحثيث.

اسبغ المساء على الثلج بقعا بنفسجية، ولمع الدرب ببريق ازرق فولاذي. وفي الغرب مسح الظلام الحد الذي يفصل الارض عن السماء. وتراءت في السماء الصافية انوار النجوم التائهة. وآنذاك دخل فيودور الدسكرة. وترجى ان يسمح له بالمبيت في بيت يقع في طرف الدسكرة تبدو عليه مظاهر القدم والفقر. وسمح له صاحب البيت وهو قوزاقي ملتح وبشوش بان يبيت الليلة عنده.

– بوسعك المبيت، فلن أخسر من هذا شيئا!

وبعد ان مضغ فيودور قبيل النوم شحم الخنزير المتجمد فرش معطفه الفرو عند الموقد ووضع القبعة تحت رأسه واخلد الى النوم.

استيقظ في الفجر كعادته. فاغتسل، وعرضت ربة البيت تقلية شحم الخنزير، فاكل طعامه، ثم توجه الى الساحة بوسط الدسكرة. وقرأ بالقرب من مبنى مجلس الدسكرة رقعة كتب عليها: «المحكمة الشعبية للقاطع الخامس في دائرة الدون الاعلى».

دلف الى البوابة وكان زاخار دينيسوفيتش اول من رأى في الفناء، وهو يرتدي معطف فرو ازرق ثمينا ويضع البرنص، وينهمك في فك عدة حصانه المتصبب عرقا. وعندما وضع فوق الحصان الغطاء وقع نظره على فيودور بالصدفة، ولوى شفتيه واشاح بوجهه عنه دون القاء التحية.

انصرم الوقت بطيئا للغاية، وفي حوالي الساعة التاسعة جاء سكرتير المحكمة. وبدون ان ينزع معطفه تنحنح والقى على الطاولة حزمة من الاضابير. رمق بعيون متورمة لايزال يعلق بها النعاس حشد الناس المتجمع في المدخل. بعد ساعة جاء القاضي. ودس جسده في الباب شاقا طريقه بصورة جانبية ثم صفقه بعنف.

صاح السكرتير لدى فتحه الباب:

– فيودور بويتسوف وزاخار بلاغورودوف!

دلف زاخار دينيسوفيتش مولدا صريرا بحذائي اللباد ذوي الكعبين المجلدين.

– ايه... اية رائحة شديدة من الخمر تنبعث من هذا المواطن... ان المرء حتى ليصيبه الاغماء منها! انه مشبع بالخمر! – قال هذا قوزاقي هرم يرتدي معطفا رثا وهو يتابع زاخار دينيسوفيتش بانظاره.

نزع فيودور القبعة وعبر العتبة بنشاط. استمرت فترة حوالي عشرة دقائق الاسئلة التي وجهها الى هذا وذاك المحلفان الشعبيان والقاضي. وصار زاخار دينيسوفيتش يتلعثم، وبدا انه غلبه الخوف.

سال القاضي ضاربا الطاولة بالقلم:

– هل دفعت له؟

– بالضبط... دفعنا له.

– كيف دفعتم، عينا ام نقدا؟

– نقدا.

– كم؟

– ثمانية روبلات بالاضافة الى تسليمه الحبوب.

– كيف هذا... لقد قلت بانك شغلت بويتسوف مقابل خمسين كوبيكا في الشهر.

وقال زاخار دينيسوفيتش بصوت أجش:

– كنت طيبا معه... لانه يتيم... فعلت الخير له... كنت له مثل أبيه.

– هكذا... – ابتسم القاضي بشيء من السخرية.

بعد ان وجهت المحكمة عدة اسئلة اخرى، طلب منهما الخروج من القاعة. ثم جرى الاستماع الى خمس أو ست قضايا أخرى. وكان فيودور واقفا في الطرقة ورأى زاخار دينيسوفيتش قد جمع حوله قرابة ثمانية اشخاص وبدأ يلوح بيده بعنف.

– يسالونني: لماذا بدون عقد؟ بعد هذا شغل احدا من الناس للعمل لديك... جاء يطلب الصدقات، بينما ظهر انه كمسمولي واخذ يقول: انا لن أعمل!

– محكمة!

اندفع الحشد الى داخل الغرفة. وتلا القاضي بسرعة

بداية القرار، واحس فيودور تحت معطف الفرو القصير كيف ان نبضات قلبه قد اشتدت. كان الدم تارة يتدفق الى رأسه وتارة يعود الى القلب. ولم يفقه تقريبا كلمات قرار المحكمة. وعلا صوت القاضي:

– استرشادا بالمادة... صدر الحكم بان يدفع زاخار بلاغورودوف مبلغ اثني عشر روبلا الى فيودور بويتسوف لقاء العمل لديه فترة شهرين... بدون عقد... وكذلك بان يدفع غرامة قدرها ثلاثين روبلا لاستغلاله احد القاصرين، أو بان يمارس العمل الاجباري لفترة... اما نفقات المحكمة فهي... والحكم قاطع، ونهائي... – بلغت مسامع فيودور عبارات القاضي هذه.

خرج فيودور مسرعا من الشرفة وترك الدسكرة جذلا ومبتسما لنفسه، ودون ان يزرر ازرار معطفه القصير. قطع عدة فراسخ دون ان يحس. وبينما كان يخطو اخذ يبني خططه وكيف سيكسب حتى خريف العام القادم ما يلزم من نقود لشراء حصان. وسيعيش من مردود مزرعته الصغيرة وينقذ امه من الاملاق.

عاودته الافكار عن عمله المرتقب صيفا مع العمال الزراعيين، واصاب قلبه الدفء فرحا. كانت الرياح تهب على وجهه تحمل اليه نتف الثلج. وغطت عينيه حبيبات الغبار الثلجي الدقيق. وبغتة تناهى الى سمع فيودور صريف ضعيف لعارضتي زحافة فوق الثلج وقعقعة سنابك خيل وراءه. وفجأة أحس بضربة عنيفة من عريشة الزحافة ألقت به ارضا. وحينما سقط رأى فوقه بوز حصان يغطيه الرغو، وبدا خلفه وجه زاخار دينيسوفيتش الاحمر المزرق وسط سحابة الغبار الثلجي.

وفي لحظة خاطفة بعد الضربة تعالت فوق رأسه خضعة سوط. فاسقط حزام السوط قبعته من فوق رأسه ولسعه في وجهه بصورة مائلة.

هب فيودور واقفا على قدميه دون ان يحس بالالم لانفعاله، واندفع وراء الزحافة بدون قبعة. وشد زاخار

دينيسوفيتش الاعنة بيده اليسرى لاجما الحصان المنطلق بسرعة، بينما رفع باليسرى السوط عاليا والتفت نحو فيودور وصرخ:

– ساريك!.. سأبلغ عنك، يا ابن الـ... سترى نجوم الظهر!

كانت الريح تمزق اقواله واختنقت انفاس فيودور الراكض في اعقابه. وبعد ان خارت قواه توقف على جانب الطريق – وعندئذ فقط شعر بألم حاد في صدره. واحس بحرقة الدم المالح النازف على وجهه.

١٥

لاحت تباشير الربيع من جهة الرابية حيث بدت وسط الثلوج هنا وهناك الارض المحروثة السوداء. وهبت الرياح ليلا، وكانت دافئة ورطبة. وخيمت السحب فوق العزبة. بحلول الفجر هطل المطر، وذاب في سيول الماء الثلج الذي بدا بالذوبان قبل هذا. تعرت الارض في السهب. ولم يكن هناك سوى الجليد المتبقى في الطريق والمنخفضات متشبثا بقوة بعشب العام الفائت وكتل التراب، كما لوانه يطلب الحماية منها.

توادع فيودور مع الشباب قبيل بداية الاعمال الحقلية ودحس في خرجه المطبوعات التى زوده بها ريبنيكوف، وانطلق باحثا عن رزقه.

قال ريبنيكوف مودعا:

– اجهد نفسك، فيديا، اعمل التنظيم هناك!

فابتسم فيودور وقال:

– حسنا، سافعل ذلك. سأجمع الكل فى حشد واحد!

ودعه حوالي خمسة من الشباب الى خارج العزبة، وانتظروا حتى بلغ الطريق العام. وحينما عبر فيودور اول تلة التفت الى خلفه: كان المودعون واقفين في كتلة واحدة، على درب رعي الماشية. ولوح ريبنيكوف ويغور بقبعتيهما.

غمرت فيودور الكآبة حينما غابت العزبة عن ناظريه. انه الآن وحيد مرة أخرى، مثل غصن عشب العام الفائت المتشقلب البائس هذا الملقى على قارعة الطريق...

صار فيودور يجهد نفسه في التفكير عن الجهة التي سيوليها وجهه. فقد كانت العزب المجاورة فقيرة. ولم يكن اهلها بحاجه الى ايدي العمال الزراعيين. ولم تكن بلدة خرينوفسكي الغنية تقع ضمن نطاق منطقة الدسكرة. وبعد ان أمعن فيودور الفكر عرج على الطريق الجانبي نحو خرينوفسكي. واشتغل لدى جار زاخار دينيسوفيتش واسمه بانتيلي ميروشنيكوف. كان العم بانتيلي شيخا عابسا نحيف القوم حتى بانت عظامه. وفقد ابناؤه الثلاثة في زمن الحرب. وكان يدير مزرعته مع زوجته العجوز وكنتين.

سأل مخاطبا فيودور وهو يحرك حاجبيه الأشيبين:

– لماذا، يا ابن الحلال، تركت العمل لدى زاخار، يا فتى؟

– انه لم يرغب في ابقائي.

– وما هي شروطك للعمل؟

– حسب الاتفاق.

– وما هو الاتفاق؟ ان الاجرة التي ادفعها ثلاثة روبلات خلال موسم الصيف، اما في الشتاء فلا حاجة بي اليك. لربما تنوى العمل طوال العام، لكن هذا لا ينفعني.

– أستطيع العمل حتى الخريف.

– باختصار، حتى نهاية الاعمال. وحالما ننهي الحراثة الخريفية، لتكن وجهتك الى حيث تريد. هل توافق، يا ابن الحلال، على ثلاثة روبلات في الشهر؟

– موافق. لكن يجب توقيع اتفاق، فالآن لا يجوز العمل بدونه.

– الامر لدي سيان... لكنني لا احسن القراءة والكتابة، وهناك، يا ابن الحلال، يجب ان أوقع على الاتفاق، فدع كنتي ستيبانيدا توقع هناك.

تم توقيع اتفاق في لجنة العمال الزراعيين. وبدأ فيودور

العمل بابتهاج. كان العم بانتيلي يراقب العامل الجديد خفية. وغالبا ما كان يتحسس فيودور نظراته الثاقبة المتفحصة. واخيرا وفي نهاية الاسبوع الثاني دنا الشيخ مساء من فيودور، الذي حرث خلال يوم واحد مزرعة البطيخ وساق الثورين التعبين والمتصببين عرقا الى البيت، وقال له:

– هل حرثت مزرعة البطيخ؟

– نعم.

– بدون عيوب؟

– نعم.

– كيف امررت المحراث في التربة؟

– كما امرت بذلك، يا عم.

– هل اسقيت الثورين في البركة؟

– نعم.

– كم لك من العمر يا فتى؟

– سبعة عشر عاما.

خطا الشيخ نحو فيودور، وشده من شعره بصورة مؤلمة، وسحب راسه الى صدره الاعجف البارز العظام وضمه اليه ومسد طويلا ظهر فيودور القوي المفتول العضل:

– انت عامل ممتاز جدا، يا ابن الحلال!.. ويداك ماهرتان في العمل... ان اردت ابق لفترة الشتاء، وهذا وعد!

ابعد فيودور عنه، وحدق فيه طويلا وارتسمت على ثغره ابتسامة واسعة ومشرقة. تاثر فيودور للملاطفة، وعناية الشيخ به وكانه من ابنائه. كان صاحب المزرعة الجديد لا يشبه زاخار البتة. وحينما جاء فيودور لطلب العمل سأله:

– هل انت من هؤلاء... الكمسمول؟

وحينما تلقى الجواب بالايجاب لوح بيده وقال:

– هذا لا يعنيني. ستاكل على حدة، فلا استطيع الجلوس معك على مائدة واحدة. لابد وانك لاتؤمن بالرب!

– كلا.

– ارايت؟.. انا شيخ، ولاتنزعج منى لكوني اجعلك تاكل لوحدك. نحن من صنفين متباينين.

كان يعامل فيودور معاملة طيبة: فكان يطعمه لحد الشبع، واعطاه ملابس مصنوعة من قبل اهل بيته، ولم يرهقه بالعمل فوق طاقته. في البداية اعتقد فيودور، بانه سيتعين عليه العمل لوحده كما لدى زاخار دينيسوفيتش، ولكن عندما توجهوا الى حرث الارض قبيل عيد الفصح راى بان الشيخ بانتيلي يتفوق على اي شاب في العمل بالرغم من كونه هزيلا اعجف. كان يمضي وراء المحراث بلا كلل، ويحرث الارض باتقان وبعناية. وفي الليل كان يتناوب مع فيودور في حراسة الثيران. كان الشيخ تقيا ورعا، ولا يتفوه «بكلام فاحش»، ويدير شئون الاسرة بحزم. واعجب فيودور قوله المأثور الذي يردده باستمرار: «يا ابن الحلال!». وكان القول هذا يعجب الشيخ نفسه الصارم المظهر والطيب المخبر.

في مساء يوم عيد الفصح التقى فيودور في زقاق بيتهم بفتى مجدور الوجه وقصير القامة في حوالي العشرين من عمره. ورأى كيف خرج الفتى من فناء بيت زاخار، وحدس من اقوال العم بانتيلي بانه عامل اجير لدى زاخار. اقترب الفتى في مسيرته من فيودور، وبدأه بالحديث:

– مرحبا يا رفيق!

فاجاب الفتى على مضض:

– مرحبا.

– هل تعمل اجيرا لدى زاخار دينيسوفيتش؟

– نعم.

دنا فيودور اكثر مواصلا استفساراته:

– هل تعمل منذ وقت طويل؟

– اربعة اشهر... منذ الشتاء.

– وكم يدفع لك؟

– روبلا وطعامي.
غمر الفتى الاهتمام وبرقت عيناه:
– يقال ان الشيخ يدفع لك ثلاثة روبلات ويعطيك الملابس ايضا. هل هذا حق ام كذب؟
– حق!
وقال الفتى متكدرا:
– لقد خدعني زاخار... انه وعدني بزيادة الاجر، بينما يلتزم الصمت. ويرغمني على العمل كما لو حلت بي اللعنة! – واردف محتدما وقد اصابه الغيظ: – وفي ايام الاعياد يرغمني على العمل ايضا. لقد بليت ملابسي، بينما لا يعطيني ملبسا او نقودا. أترى ما ارتديه احتفاءا بعيد الفصح!
استدار الفتى فشاهد فيودور مثلثا اسود من جسده على ظهره عبر القميص الممزق طوليا.
– ما اسمك؟
– دميتري. وانت؟
– فيودور.
انطلق من فناء بيت زاخار صوت صاحب البيت الممزوج بخنة:
– ميتكا، لم يا وغد لم تغلق باب الحظيرة؟ هيا، اعد الثيران الى الحظيرة!..
اندفع ميتكا عبر السياج المضفور بقفزة فزعة، وصار يتطلع من وسط اعشاب القراص الكثيفة واستدعى فيودور بحركة من اصبعه. عبر فيودور السياج، واختار في الحديقة مكانا قصيا خفيا واجلس ميتكا الى جانبه وشرع في تحريضه.

١٦

في مساء كل يوم احد كان فيودور يتوجه الى لقاءات الشباب، في طرف العزبة. وهناك تعرف على شبان آخرين يعملون كاجراء زراعيين لدى الاغنياء في خرينوفسكي. كان

مجموعهم في البلدة ثمانية عشر عاملا زراعيا. ومنهم خمسة عشر شابا. وقد جذب فيودور الخمسة عشر شابا هؤلاء الى التجمع وتكوين نواة اتحاد العمال الزراعيين.
وحينما كان الشبان ينصرفون من اللقاءات، حيث يعمد الفتيان ابناء الاغنياء الى التحرش بوقاحة بالفتيات اللواتي يطلقن الصراخ، يأخذ فيودور في التحدث الى العمال الزراعيين مقنعا اياهم بالانضمام الى الكمسمول، وارغام اصحاب المزارع على عقد اتفاقيات عمل معهم.
في البداية كان الشباب يهزأون من اقوال فيودور بعدم ثقة. وقال كولكا المحدودب الظهر محتدا:
– من السهل عليك الكلام، فسيد مزرعتك مثل القديس. اما سيد مزرعتي فانه سيلوى رقبتي ان تحدثت عن الاتفاق والكمسمول!..
وعارضه آخر:
– لا تخف، فلن يلوى رقبتك!..
وقال فيودور وسط ضحك الجميع:
– لا بد انه سيلوى رقبتك ان كنت وحيدا. وماذا تظن؟ بوسعك كسر احد اصابعي بكل بساطة، اما ان جمعت اصابعي سوية في قبضة فهل ستكسرها عندئذ؟ لا يا اخي انني بهذه القبضة سأحطم فكك. ويجب ان نتوحد نحن في مثل هذه القبضة، كفى العمل مجانا في خدمة اصحاب المزارع. انتم جميعا تتقاضون روبلا او خمسين كوبيكا، بينما اتقاضى انا ثلاثة روبلات، وانجز اعمالا اكثر يسرا واقل اجهادا من اعمالكم.
وتعالت الاصوات في لغط:
– صحيح!..
كانوا يجتمعون ليلا في العادة وراء الاجران، ويمضون الليلة حتى صياح الديكة.
في يوم الاحد الخامس طرح فيودور الاقتراح التالي:
– بالامس جرى تقسيم مروج العشب، واليوم او غدا سيبدأ الحصاد. دعنا نبلغ اصحاب المزارع بان يزيدوا

اجور العمل ويوقعوا الاتفاقات. وان لم يفعلوا هذا سنترك العمل.

– لا يجوز القيام بهذا! انه اسلوب شديد جدا!

– انهم سيطردوننا!..

– سنبقى بلا مورد رزق!..

فصرخ فيودور وقد تضرج وجهه بالحمرة:

– لن يطردونكم! انهم لن يطردونكم لان موسم الحصاد على الابواب. انهم لن يجازفوا بفقدان العمال!.. لا يجوز العيش على هذه الصورة! ان لجنة العمال الزراعيين تسأل: كيف جرى تشغيلكم؟ فيقول احدهم انني قريب لصاحب المزرعة، وآخر – «انني اعيش لدى معارفي»، بينما لن يدافع عن مصلحتكم غيركم.

بعد نقاشات طويلة تم الاتفاق على هذا الامر.

في الصباح سادت البلبلة والصخب والطنين في القرية وكانها وكر زنابير. فالحصاد على الابواب بينما اضرب العمال الزراعيون عن العمل في اغنى البيوت...

في ذلك الصباح سمع فيودور صراخا فخرج الى الشارع مهرولا.

كان زاخار دينيسوفيتش يرمي حاجيات ديمترى الى الشارع وهو يصرخ متوعدا. بينما عمد هذا الى جمعها في كومة بحزم وهو يتمتم بشيء ما.

– مهلا، مهلا! ستتوسل الي، لكنني لن اعيدك الى العمل.

– اغرب عن وجهي، ولتحل بي اللعنة ان طلبت العودة اليك!..

حينما وقع بصر زاخار دينيسوفيتش على فيودور التفت الى حشد من المزارعين الاغنياء الذين كانوا يتحدثون في مفترق الطرق عن شيء بحماسة، وزعق بشكل جعلت العروق تنتفخ فوق جبينه:

– يا مسيحيون! هذا هو صانع الشغب وزعيم حلقتهم اجهزوا عليه، ابن الكلب هذا!..

استجمع فيودور قبضتيه واندفع مسرعا نحوه، الا ان زاخار دينيسوفيتش اختفى وراء بوابة الفناء وصاح بفزع:

– لا تقترب ان كانت حياتك عزيزة عليك، ساقتلك!..

١٧

– ... مهما اردتم فهذا شيء يعنيكم وحدكم، الا انني لن اطرد عاملي. لا يهمني ان يكون حزبيا، المهم ان ينجز عمله، والاتفاق ايضا خطره قليل! انني اعطيه ثلاثة روبلات في الشهر، ليكن، الا انه ستصيبني خسارة بمئات الروبلات ان ترك العمل عندي!..

– هذا صحيح، يا نسيبي، فزوجتي مريضة. مع من اذن سانجز العمل؟..

– هذا ما اراه انا ايضا.

– اليكم ما اقترحه يا اخوان! لنوقع معهم اتفاقات، ولنزد اجور عملهم وفق القانون، ولينالوا يوما في الاسبوع كاجازة... وانت، يا زاخار، اسكت!.. لقد حكمت المحكمة عليك بغرامة ثلاثين روبلا! هذا هو الواقع... وسيأتي الوقت حينما سنحاسب على المخالفات ايضا!

– لم الثرثرة بلا فائدة؟ مادامت الامور قد تحولت بهذه الصورة فلا بد من الامتثال لحكم القانون... وان وفرنا ثلاثة روبلات سنفقد مئات الروبلات... اية حماقة!..

– حاول الآن ايجاد من يقبل بالعمل عاملا اجيرا!..

– لن يحالفك الحظ في هذا!

– ليكن الامر كذلك.

– اما هذا الوغد الذى افسد عقولهم فلابد من اعطائه درسا. يا له من فتى حاذق! اللعنة عليه...

– فيدكا – انه كمسمولي!.. وحينما عمل عندى ذقت منه الامرين. وحدث مرة ان طاردني بسكين في ارجاء الفناء، ولم يخلصني منه سوى العمال، اقسم بالله! ولكن ان وقع بين يدي الآن...

– يقول ابني انهم يجتمعون وراء الاجران بعد انتهاء لقاءات الشباب للتسلية في المساء. ويتولى هناك تعليمهم...
– ماذا لو استقبله اثنان او ثلاثة بالاوتاد...
– لابد من تلقينه درسا، بغية الا تفوح رائحة العفونة هذه.
– زاخار دينيسوفيتش، هل ستذهب انت؟
– يا الهي... انني سافعل هذا من كل قلبي، واعطوني فحسب وتدا ثقيلا...
– لن نضربه حتى الموت...
– سنرى الوضع ونتصرف... فحينما أحتدم غيظا يصعب ايقافي...
– كم عددنا، ثلاثة؟ هيا بنا...

١٨

في المساء رأى الشيخ بانتيلي ان فيودور يزمع الذهاب الى مكان ما فقال مبتسما:
– الافضل لك، يا ابن الحلال، ان تجلس في البيت. لقد خلقت المشاكل، فاجلس بهدوء.
– ماذا؟
– يمكن ان يلحقوا الاذى بك.
– لا تخف!.. – ضحك فيودور ثم انطلق عبر الفناء الخلفي نحو الاجران. في هذه المرة لم يلتم شمل الشباب بسرعة. مضت فترة ساعتين تجاذبوا خلالها اطراف الحديث. وكانت امزجة الجميع رائقة ومرحة. وبعد مناقشة الوضع تبادلوا الاخبار واعتزموا الانصراف. وحذرهم فيودور:
– اذهبوا متفرقين، لكي لا نغدوا مضغة في افواه الناس...

كان الليل مكفهرا دامسا في السهب. وتلبدت السحب متلاقية ومتراكمة احداها فوق الاخرى. وهدر الرعد، ومرق البرق في السماء وراء الغابة. انفصل فيودور عن بقية الشباب

ومضى في الطريق المعهودة. في البداية أراد السير من وراء البيوت الا انه عدل عن رأيه ودلف الى زقاق بيتهم. وجلس عند السياج المضفور واراد تدخين سيجارة. بيد ان هبة ريح ساخنة اطفأت عود الكبريت. فدس السيجارة في جيبه ودنا من البوابة. ولم يكن يتوقع شيئا ولم ير كيف كان يتلصص شخصان من خلفه. اما الثالث فكان يقف في مفترق الطريق مراقبا...

وحالما امسك برزة البوابة حتى صرخ احدهم من خلفه ولوح بوتد ووقعت الضربة على قذال فيودور، فأن بصوت ضعيف ونشر ذراعيه وسقط فاقد الوعي عند البوابة.

* * *

كانت البراغيث تلدغ الشيخ بانتيلي بلا هوادة: وتقلب في الفراش طويلا وتنحنح. ثم القى جانبا معطف فرو الضأن، واعتزم الاخلاد الى النوم نهائيا حينما سمع انينا من الفناء وطبطبة اقدام وصفيرا خافتا. جلس في سريره وقدماه متدليتان منه واصاخ السمع. تكرر الصفير وجالت في خاطر الشيخ فكرة: «انهم ظفروا بفيدكا!» قفز من الفراش واختطف من الجدار بندقية صيد عتيقة كان يستخدمها في اصطياد غربان القيظ في حقل البطيخ، وهرول الى شرفة البيت. كان هناك من يطلق انينا متواصلا بالقرب من البوابة وثمة طبطبة اقدام... ووقع ضربات عنيفة بخفقات. رفع الشيخ الزناد واندفع خارجا من البوابة وصاح:
– من أنتم؟!

انطلقت ثلاثة هياكل سوداء مبتعدة. ووجه الشيخ الماسورة نحو اقربهم وضغط على الزناد ودوى صوت عيار ناري. نفث لهيب النار الساخن من الماسورة. وصفرت الحمصات التي عمرت بها البندقية، فصرخ احدهم في الشارع وهوى ساقطا على الارض... رمى الشيخ البندقية لاهثا وانحنى فوق الهيكل الاسود للجسد الراقد بالقرب

من البوابة. وتلطخت يداه التي كانت تتلمس الراس بسائل ما غليظ القوام ولزق. وحينما ادار الراس اخذ يتفحصه بامعان، فاصابت الظلمة عينيه بغشاوة. وخطف البرق في السماء كالسحلية. وتعرف الشيخ على وجه فيودور المخضب بالدماء. وامسك بالجسد الواهن وسحبه عبر الفناء، وهو يرتجف ويتعثر، نحو الشرفة. جرى الى ما وراء البوابة لأخذ البندقية. واضاء البرق السماء مجددا فرأى الشيخ على مسافة اربعين خطوة رجلا يجلس القرفصاء على قارعة الطريق اختطف الشيخ بانتيلى البندقية من ماسورتها واندفع مسرعا بقفزات نحو الجالس القرفصاء والقاه ارضا في الظلام. وجثم فوقه وصاح به:

— من انت؟..

— دعني، بحق المسيح... ان جحرى وظهرى كليهما منخوبان بالاطلاقات... الا تخشى الله يا جار، فتطلق خرطوشة شظايا على الناس... آه، يا للآلم!

تعرف الشيخ على صوت زاخار، وضربه على رأسه بكعب البندقية، وامسك بشعر رأسه وسحبه الى شرفة البيت.

١٩

«... عزيزنا الرفيق فيديا! لابد وانك لا تعرف نهاية المحكمة. لقد حكم على زاخار دينيسوفيتش بالسجن فترة سبعة اعوام مع حرمانه من حقوقه المدنية لفترة ثلاثة اعوام. اما على الاثنين الاخرين، وهما: ميخائيل ديرغاتشيوف وكوسكا، المضارب الحقير، فقد صدر الحكم عليهما بالسجن لفترة خمسة اعوام. كما ونعلمك بانه تكونت في بلدة خرينوفسكي خلية لاتحاد الشبيبة الشيوعي. وجميع رفاقك من العمال الزراعيين وعددهم خمسة عشر عاملا وكذلك ستة من الشبان الفقراء صاروا جميعا يتمتعون بعضوية الاتحاد. وقد ارسلتني لجنة المنطقة للعمل هناك، ونحن جميعا ننتظر على أحر من الجمر الوقت الذي تستعيد فيه

عافيتك وترجع الينا. شكل يغور فى قرية دانيلوفسكي خلية من احد عشر شخصا. ان جميع الشباب يعملون متفرقين في شتى الاماكن. وابلغك ايضا بانني رأيت يوم امس الشيخ بانتيلي. وهو يعتزم السفر اليك الى المستشفى لرؤيتك وجلب الطعام اليك. فتماثل للشفاء بسرعة، وتعال الينا بسرعة. ثمة عمل كثير ينتظرنا. بينما الوقت يمضي كالحصان الذي انفلت من وثاقه.

تحية كمسمولية اليك، من خلية اتحاد الشبيبة الشيوعي اللينيني فى روسيا، التوقيع عن جميع الشباب — ريبنيكوف».

١٩٢٦

دم غريب

تساقط اول ثلج في اليوم الاول من عيد «رجوع المسيح». وهبت من وراء الدون ليلا ريح حركت الافسنتين الاحمر بحفيف في السهب، وراكمت الكثبان الثلجية المتموجة، وعرت نتوءات الارض في الطريق المتجلدة.

لف الليل الدسكرة بسكون قاتم مشوب بالاخضرار. وفي خارج البيوت غالب النوم السهب غير المحروث، المتلفع بالاعشاب البرية.

في منتصف الليل عوى ذئب في الوهاد بصوت مكتوم، وردت عليه كلاب الدسكرة، فاستيقظ الشيخ غافريلا من نومه. وانزل ساقيه من اعلى الوجاق، وتشبث بالمدخنة، سعل طويلا، ثم بصق وتلمس كيس التبغ.

يستيقظ الشيخ في كل ليلة بعد صياح أولى الديكة. فيجلس ويدخن ويسعل وينظف رئتيه من البلغم بصوت متحشرج. وفي الفترات بين انحباس الانفاس كانت تراوده افكار تمر في رأسه كما في الدرب المطروق المالوف. ويشغل فكره شيء واحد: ابنه الذي فقدت آثاره في الحرب.

كان ابنه الوحيد – الاول والاخير. وعمل من اجله دون ان يكل. ثم حان الوقت لتوديعه الى الجبهة لقتال الحمر – فقاد الى السوق زوجا من الثيران، واشترى بثمنها جوادا اصيلا من احد الكالميكيين. ولم يكن جوادا – بل كعاصفة هوجاء تجتاح البراري. واستخرج من الصندوق سرجا،

ولجاما ورثه عن جده، مزخرفا بالفضة، ولدى توديع ابنه قال:

– حسنا، يا بترو... انني جهزت العدة لك، ولا يخجل حتى الضابط من امتطاء مثل هذا الجواد... حارب مثلما حارب ابوك، ولا تجلب الخزي الى قوات القوزاق والدون الهادىء. اجدادك واجداد اجدادك خدموا في قوات القياصرة، ويجب ان تفعل انت الشيء ذاته!..

تطلع الشيخ من النافذة المصطبغة باشعة القمر المتناثرة الخضراء. واصاخ السمع الى الرياح التي كانت تهب في الفناء باحثة عما لا وجود له. واستعاد في ذاكرته تلك الايام التي لن تنكفىء ولن تعود...

حينما ودع القوزاقيون ابنه الذاهب الى الخدمة العسكرية صاروا ينشدون اغنية قوزاقية قديمة بصخب تحت السقف القصبي لبيت غافريلا:

نصول و نجول، ونبقي الصف موصولا،
ونعطي آذانا صاغية للامر الصادر عجولا،
ان جاء امر قادتنا – الشيوخ الكرام جليلا،
نمضي بالرمح مشرعا والسيف مسلولا.

جلس بترو وراء المائدة، ثملا، بوجه شاحب – مزرق، ثم احتسى آخر قدح «قبيل امتطاء الجواد»، وقد ضيق عينيه من التعب بيد انه جلس على ظهر جواده بثبات. عدل وضع سيفه، وانحنى من سرجه واخذ قبضة تراب من فناء بيته. اين يرقد هو الآن واية تربة تدفىء صدره في بلاد الغربة؟

بدأ الشيخ يسعل سعالا مديدا وجافا، ورئتاه تشخران وتصفران في صدره كالمنفاخين بشتى الاشكال، وحينما يتوقف عن السعال، وفي الفترات بين نوباته، يتكىء محدودب الظهر على مدخنة الوجاق، وتجول في رأسه الافكار المالوفة نفسها.

• • •

ودع ابنه، وبعد شهر جاء الحمر. فاقتحموا حياة القوزاق الراسخة الجذور بصفتهم اعداءا، وقلبوا بالمقلوب حياة الشيخ الاعتيادية كالجيب الخاوي. كان بترو على الجانب الآخر للجبهة، بالقرب من نهر دونيتس. ومنح لاجتهاده في المعارك رتبة رقيب. اما في الدسكرة فكان الشيخ غافريلا يرعى ويداعب ويربي حقده على الغرباء القادمين «من جهة موسكو»، على الحمر، مثلما كان يرعى ابنه بترو الاشقر الشعر في زمان – انه الحقد الدفين لرجل هرم.

كان يرتدي امامهم عمدا السراويل ذات الشريطين الجانبيين الاحمرين، اللذين يرمزان الى حرية القوزاق، والمخيطين بخيوط سوداء الى سراويل الجوخ الفضفاضة. كما ويلبس القمصلة القوزاقية المطرزة بالزخارف البرتقالية اللون المميزة لرجال فرسان الخيالة الممتازة، وعليها آثار كتافيات الرقيب الاول، وهي رتبته في زمان ما. بينما يحمل على صدره الميداليات والصلبان التي منحت اليه لخدمته الامبراطور خدمة مخلصة. وفي ايام الآحاد كان يرتاد الكنيسة فاتحا ازرار معطفه لكي يراها الجميع.

حدث مرة ان قال له رئيس سوفيت الدسكرة عندما التقى به:

– انزع يا عم هذه المعلقات. فلا يجوز حملها في هذه الايام!

فاستشاط الشيخ غضبا:

– هل انت الذي منحتها لي لكي تامرني بنزعها؟

– ان الذي منحك اياها لابد وانه يطعم الدود في الارض منذ وقت بعيد.

– هب انه كذلك. الا انني لن انزعها، ولربما ستنزعها عند موتي؟

– يا له من قول!.. انني أشفق عليك، ولهذا انصحك. اما بالنسبة لي فالامر سيان، ويمكنك ان تنام معها. وماذا

بشأن الكلاب... فالكلاب يمكن ان تمزق سروالك!.. انها المسكينة قد نسيت هذه الهيئة، ولن تعتبرك من اهل البلدة...

أصابته من هذا الكلام اساءة بالغة ومرة مثل مرارة ازهار الافسنتين. نزع الاوسمة، لكن الاساءة تنامت في روحه وتضخمت وصارت تقارب الحنق والغيظ.

لقد فقد ابنه، ولم يعد هناك من يجمع المال من اجله. وانهارت العنابر وحطمت الماشية الزرائب، وتعفنت عوارض السقيفة التي اطاحت بها العاصفة. وفي الاسطبل سيطرت الفئران على طريقتها في صوامع الخيل، واصاب الحاصدة الصدأ تحت السقيفة.

اخذ القوزاق الجياد قبيل رحيلهم، واخذ الحمر ما تبقى منها. اما الحصان الاخير الاشعث القوائم والكبير الاذنين، الذي بادله الحمر معه مقابل حصان آخر، فقد اشتراه رجال ماخنو دون القاء نظرة عليه في الخريف الماضي. واعطوا الشيخ مقابله زوجا من لفائف الساق الانجليزية الصنع.

قال له رجل المدفع الرشاش من عصابات ماخنو غامزا له:

– لتذهب خيراتنا اليك، وستغدو يا شيخ ثريا بما نفرغه من جعبتنا!

تبدد مع الريح كل ما جمعه خلال عشرات السنين. ولم تعد يداه تقبلان على العمل. لكن في الربيع حينما امتدت تحت قدميه ارض السهب الخاوية، باذغان وتراخ، صارت تغرى الشيخ في الليالي بدعوة طاغية وصامتة. وقد عجز عن المقاومة، فشد الثورين الى المحراث وتوجه وحرث السهب بفولاذ المحراث. وبذر في بطن التربة السوداء النهمة الحنطة الممتازة.

عاد القوزاق من البحر ومما وراءه، لكن لم يشاهد احد منهم ابنه بيوتر. كانوا يؤدون الخدمة في كتائب أخرى، وجابوا شتى الاصقاع – افليست روسيا شاسعة الانحاء؟ – اما رجال كتيبته من ابناء دسكرته فقد قتلوا جميعا في معركة مع فصيلة جلوبا في مكان ما من اقليم كوبان.

لم يتحدث غافريلا تقريبا مع زوجته بشأن الابن.
في الليالي كان يسمع كيف تذرف الدموع في وسادتها وتتنشق بصوت مسموع.
ويسألها متاوها:
– ماذا جرى لك يا عجوز؟
كانت ترد عليه بعد ان تصمت قليلا:
– يبدو ان الدخان يتصاعد من الموقد. اذ اصابني صداع.
وينصحها دون ان يظهر لها بانه حدس سبب بكائها:
– خير لك ان تشربي ماء الخيار المملح. هل اذهب الآن الى القبو لجلبه؟
– نم... سيزول الصداع لوحده!..
خيم السكون على البيت مجددا مثل نسيج عنكبوت لا تراه العين. وحدق الهلال من النافذة بوقاحة، متطلعا الى مصيبة الغير، وكآبة الأم.
مع ذلك كانا ينتظران ويأملان في عودة الابن. وسلم غافريلا فرو الضأن لدباغته. وقالت العجوز:
– يمكننا انا وانت الاستغناء عن كل شيء... اما عند ما سيأتي بترو فماذا سيرتدي؟ سيحل الشتاء، فلا بد له من معطف فرو.
صنعوا معطف فرو يناسب بترو وحفظوه في الصندوق. كما صنعوا له جزمتين للعمل اليومي – من أجل العناية بالماشية. واحتفظ الشيخ ببزته المصنوعة من الجوخ الازرق، ورش فوقها التبغ لكيلا يتلفها العث. وذبحوا حملا، وصنع الشيخ من فروته قبعة علقها على المسمار. وحينما يدخل البيت من الفناء وينظر فيتراءى كما لو ان بترو سيخرج الآن من الغرفة، ويبتسم ويسأل: «كيف الجو، يا ابتاه، في الفناء هل هو بارد؟»
بعد مرور يومين على ذلك توجه قبيل المغيب لتنظيف حظيرة الماشية. ووضع العلف في المعلف، واراد ان يستخرج

الماء من البئر، وعندئذ تذكر انه نسي القفافيز في البيت. عاد وفتح الباب فرأى العجوز راكعة عند المصطبة وقد ضمت الى صدرها قبعة بترو التي لم يلبسها، وهي تهدهدها كالطفل...
اظلمت الدنيا في عينيه فاندفع نحوها كالوحش والقاها ارضا، وقال بصوت متحشرج وهو يبتلع الرغوة من شفتيه:
– اتركيها، يا لئيمة! ماذا تفعلين؟
انتزع القبعة من يديها، والقاها في الصندوق، وعلق به القفل. الا انه صار يلاحظ منذ ذلك الوقت ان العين اليسرى للعجوز صارت ترمش، والتوى فمها.
انصرمت الايام والاسابيع، وجرت في الدون المياه الخضراء والمسرعة دوما في الخريف.
في ذلك اليوم تجمدت المياه عند ضفاف الدون، وانطلق عبر الدسكرة سرب من الاوزات البرية المتأخرة في الهجرة. وعند حلول المساء جاء صبي الجيران الى غافريلا، ورسم شارة الصليب بسرعة امام الايقونات.
– مرحبا. هل يومكم طيب؟
– مرحبا، الحمد الله!
– هل سمعت، يا عم، لقد جاء بروخر ليخوفيدوف قادما من تركيا. انه خدم مع ابنكم بيوتر في فوج واحد...
هرول غافريلا مسرعا في الزقاق وانفاسه تختنق من السعال والمشية السريعة. لم يجد بروخر في بيته، فقد ذهب الى العزبة لزيارة شقيقه. ووعد بالرجوع في يوم غد.
فارق النوم غافريلا الليلة باكملها. واضناه الارق في رقدته على الوجاق.
قبيل طلوع الفجر اشعل السراج، واخذ يخيط كعبي جزمتي اللباد.
الصباح شاحب هزيل، ونور الفجر يجهد في تبديد العتمة. في وسط السماء التقى الهلال مع الفجر، ولم تكن لديه القوة لكي يخطو نحو السحب ويختفي ابان النهار.

* * *

تطلع غافريلا من النافذة قبل ان يفطر، وقال بصوت هامس لسبب ما:

– بروخر قادم!

دخل وكانت هيئته لا تشبه القوزاقيين، ومظهره غريب. كانت في قدميه جزمتان انجليزيتان مزودتان بمسامير غليظة في الكعبين، ويرتدي معطفا غريب التفصيل، كان واضحا انه لم يصنع من اجله.

– كيف الحال يا غافريلا فاسيليتش!

– الحمد لله، ايها الجندي! تفضل، اجلس.

نزع بروخر قبعته، وحيا العجوز، ثم جلس على المصطبة الكائنة في الركن الامامي.

– يا له من طقس! تساقطت الثلوج، وسدت الطرق!..

– نعم. لقد سقطت الثلوج مبكرا هذا الموسم... في الايام الخوالي كانت الماشية ترعى في السهب في مثل هذا الوقت.

التزما الصمت هنيهة. ثم تحدث غافريلا الذي كان مظهره ينم عن اللامبالاة قائلا بحزم:

– اصابك الهرم، يا فتى، في بلاد الغربة.

ابتسم بروخر:

– لم يكن هناك مايدعو الى رجوع الصبا، غافريلا فاسيليتش!

ارادت العجوز التفوه بأمر ما:

– وبيوتر ابننا... هل...

صاح غافريلا بصرامة:

– صه، يا امراة، دعي الرجل يستريح بعد الزمهرير! ستلحقين... في معرفة ما تريدين!..

التفت الى الضيف وساله:

– كيف، بروخر ايغناتيش، مرت الايام في حياتك؟

– ليس هناك ما يدعو الى الفخر. وصلت الى البيت كالكلب المقصوف الظهر، واحمد الله على هذا ايضا.

– هكذا، اذن كانت معيشك شاقة لدى الاتراك؟

– كنا ندبر أمر العيش بشق الانفس!

اخذ بروخر يدق المائدة باصابعه:

– لكنك انت ايضا، غافريلا فاسيليتش، هرمت جدا. لقد اشتعل رأسك شيبا... كيف تعيشون هنا في ظل السلطة السوفيتية؟

ارتسمت ابتسامة ملتوية على شفتي غافريلا وقال:

– انني انتظر رجوع ابني، لكي يطعمنا نحن العجوزين!

ابعد بروخر ناظريه جانبا بسرعة. ولاحظ غافريلا ذلك. سأل بحدة وبصورة مباشرة:

– تحدث... اين بترو؟

– أولم تسمعوا؟

قال غافريلا باقتضاب:

– سمعنا شتى الروايات.

صار بروخر يبرم في اصابعه سجف غطاء المائدة الوسخة، ولم يتحدث فورا:

– في كانون الثاني، كما اعتقد... نعم في كانون الثاني، كانت وحدتنا ترابط عند مدينة نوفوروسيسك... انها مدينة تقع على البحر... كنا نرابط بصورة اعتيادية...

انحنى غافريلا وسأل هامسا بصوت خفيض:

– هل قتل؟

التزم بروخر الصمت، دون ان يرفع بصره. كما لو لم يسمع السؤال.

– كنا نرابط هناك... اما الحمر فكانوا يشقون طريقهم نحو الجبال، نحو وحدات الخضر. وتم تعيين، اينكم بيوتر، قائدا للمجموعة التي ارسلت للاستطلاع والحراسة... وكان قائدنا نائب الكابتن سينين... آنذاك وقعت الواقعة... المسالة ان...

ارتطم بالارض عند الوجاق القدر الحديدي برنين.

ومشت العجوز نحو السرير مرفوعة اليدين... وصارت تصرخ حتى كادت حنجرتها تتمزق.

صرخ غافريلا مهددا:

– لا تزعقي!!

ثم اتكأ على المائدة، وحدق في بروخر وجها لوجه، وبدأ الحديث ببطء وكلال:

– هيا... اختتم...

قال بروخر وقد أصابه الشحوب ونهض:

– صرعوه!.. – وصار يتلمس قبعته على المصطبة – صرعوا بيوتر! قتلوه... كانوا قد توقفوا بالقرب من الغابة، واعطوا الجياد فترة راحة. اما هو فارخى حزام السرج، وعندئذ خرج الحمر من الغابة... – كان بروخر يلوك الكلمات ويدعس القبعة في يديه. – امسك بترو بالقربوس فاذا بالسرج يتدلى اسفل الحصان... والحصان شموس، فانطلق، ولم يفلح بترو بايقافه... هكذا بقي وحيدا... هذه القصة كلها!..

وقال غافريلا بصوت متقطع:

– ماذا... لو لم اصدقك؟..

توجه بروخر نحو الباب بخطوات سريعة.

– كما تريد، غافريلا فاسيليتش... لكنني قلت الحقيقة... انني اقول الصدق. الصدق الحق. وما رأيته بأم عيني...

قال غافريلا بصوت مبحوح وقد اصطبغ وجهه بالحمرة:

– ماذا... لو انني لا اريد تصديق ذلك؟! – علا عيناه الاحمرار واغرورقت بالدموع. مزق ياقة قميصه ودنا بصدره العاري المشعر نحو بروخر. أطلق الانين رافعا راسه الذي يتصبب عرقا:

– ابني الوحيد... قتيل؟! معيلي!! ابني بيتكا؟! انت تكذب يا ابن الكلبة! هل تسمع؟! انت تكذب... انا لا اصدق!..

في الليل وضع معطف الفرو على كتفيه وخرج الى

الفناء. توجه نحو الجرن مولدا صريرا بجزمتيه اللباد فوق الثلج، وتوقف عند كدس التبن.

هبت الرياح من السهب، وانهالت الثلوج. خيم الظلام الدامس الشديد فوق اشجار الكرز العارية.

وصاح غافريلا بصوت خافت مناديا:

– ولدي...

انتظر هنيهة، ودون ان يتحرك، او يحرك رأسه:

– بترو!.. وليدي!..

ثم رقد فوق بطنه على الثلج المداس قرب كدس التبن، واغلق عينيه بتثاقل.

* * *

ترددت في الدسكرة الاحاديث عن جباية حصص الحبوب، وعن العصابات التي تجوب مناطق اسفل الدون. ورويت الانباء همسا في اجتماعات الدسكرة في مقر اللجنة التنفيذية. غير ان قدمي الشيخ غافريلا لم تطئا مرة واحدة عتبة مدخل المقر المتداعي. لم تكن حاجة لذلك، لهذا لم يسمع ولم يعرف امورا كثيرة. وبدا له امرا غريبا حينما جاء الرئيس لزيارته بعد الغداء، ومعه ثلاثة يرتدون معاطف فرو قصيرة صفراء ويحملون البنادق.

تصافح الرئيس مع غافريلا، ثم انقض عليه بالسؤال:

– قل يا شيخ... هل لديك حبوب؟

– وماذا تتصور... نحن نأكل الروح القدس؟

– لا حاجة للسخرية... بل قل بجد: اين الحبوب؟

– في مخزن الحبوب طبعا.

– قدنا الى هناك.

– اسمحوا لي بالقول، ما علاقتكم بحبوبي؟

قال رجل طويل القامة اشقر الشعر يبدو انه كبيرهم وهو يدق الارض بكعبي جزمتيه:

– نحن نصادر الفائض عن الحاجة لمصلحة الدولة... جباية الحبوب. الم تسمع بهذا يا شيخ؟

قال غافريلا بصوت متحشرج وقد تملكه الحنق:

– وان رفضت اعطاء ها؟

– ان لم تعطها... فسنأخذها نحن انفسنا!

تبادلوا الهمس مع الرئيس، وصاروا يتفحصون اماكن حفظ الحبوب، ونثروا الثلج من جزمهم فوق الحنطة السمراء الذهبية. وقال الاشقر الشعر وهو يدخن:

– يترك قسم من الحبوب كبذور وللاكل... اما الباقي فيصادر...

القى نظرة عارفة حدد فيها كمية الحبوب الموجودة، ثم التفت الى غافريلا:

– كم هي المساحة التي ستبذرها؟

– لن ابذر حبة ملعونة واحدة! – قال ذلك غافريلا بصوت مبحوح وصار يسعل والتوت سحنته بتشنج. – خذوا... اللعنة عليكم!.. انهبوني!.. كل شيء لكم!..

فقال الرئيس ملوحا بقفازه باتجاه غافريلا:

– ماذا، هل اصابك الجنون، عد الى رشدك، توقف، عم غافريلا!..

– لتغصوا بطعام الغير!.. التهموا حتى تفطسوا!..

انتزع الاشقر الشعر دلاة جليدية ذائبة من احد طرفي شاربيه وخزر غافريلا بنظرة ذكية وهازئة، وقال بابتسامة هادئة:

– انت يا شيخ... كفى ضجيجا... فالضجيج لا ينفع، ما هذا الزعيق، هل داس احدهم على ذيلك؟ – ثم قطب حاجبيه وغير لهجته بصورة حادة قائلا: – كفى ثرثرة... ان كان لسانك طويلا، فابقه وراء أسنانك!.. ومقابل التحريض...

ودون ان يكمل قوله صفق بيده على قراب مسدسه الذي يتدلى من حزامه المائل، واضاف بلهجة رقيقة:

– يجب اليوم نقل الحبوب الى مركز التجميع!

لم يعتمل الشيخ الخوف، الا انه تراخى امام اللهجة

الحازمة والواثقة. وادرك بان الصراخ – فعلا، لاينفع هنا. لوح بيده واتجه نحو شرفة البيت. وقبل ان يبلغ منتصف الفناء – ارتجف لسماع صراخ شديد وبصوت مبحوح:

– اين رجال جباية الحبوب؟

التفت غافريلا، كان ثمة فارس يتراقص جواده منتصبا على قائمتيه الخلفيتين. وتسربت رجفة الى ركبتيه، وانتابه احساس بحدوث شيء غير اعتيادي. ولم يكد يفتح فمه حتى انزل الفارس حصانه بقوة عندما رأى الواقفين بالقرب من مخزن الحبوب. وسحب من كتفه البندقية بحركة سريعة من يده.

دوى صوت عيار ناري حاد، وتردد صوت ترباس البندقية مرتين في الفناء الذي لفه السكون في اللحظة القصيرة التي اعقبت اطلاق النار وقفزت الخرطوشة بازيز خاطف.

مرت فترة المباغتة وجاهد الاشقر الشعر في التخفي وراء عوارض باب المخزن، ومد يده المرتجفة لانتزاع مسدسه من قرابه ببطء مزعج. اما الرئيس فاندفع قافزا في الفناء كالارنب نحو الجرن. جلس احد رجال جباية الحبوب على ركبته الواحدة وافرغ مشط رصاص قربينته نحو قبعة الفرو البارزة من وراء السياج المضفور. سادت الفناء طرقات اطلاق الرصاص. انتزع غافريلا من الثلج ساقيه اللتين كانتا كما لو التصقتا به وزحف بتثاقل نحو الشرفة. حينما التفت رأى الرجال الثلاثة ذوي معاطف الفرو يركضون نحو الجرن متفرقين متعثرين بالكثبان الثلجية. واندفع الفرسان عبر البوابة المفتوحة على مصراعيها.

كان اولهم يضع قبعة كوبانية ويمتطي حصانا أحمر، وانطلق محدودب الظهر فوق قربوس السرج وهو يلوح بسيفه فوق رأسه. تراءت امام غافريلا اطراف عباءته البرنص البيضاء مثل جناحي طائر التم. وغمر وجهه الثلج المتناثر من تحت سنابك الجياد.

حينما التصق غافريلا الخائر القوى بالشرفة المزخرفة رأى كيف قفز الحصان الاحمر، بعد التأهب، عبر السياج المضفور، وصار يدور فوق قائمتيه الخلفيتين حول كدس تبن الشعير. اما صاحب القبعة الكوبانية فكان ينحني ضاربا بسيفه بحركات متصالبة رجل جباية الحبوب الزاحف بصورة متشنجة...

اما في الجرن فكان يتردد صوت ضجيج غير واضح وحركة وصرخة مديدة من احدهم. بعد لحظة هدرت طلقة منفردة شديدة الصدى. اما طيور الحمام، التي افزعها اطلاق النار وحطت ثانية فوق سقف المخزن، فقد انطلقت الى السماء مثل كرات الخردق البنفسجية اللون. ثم ترجل الفرسان من جيادهم عند الجرن.

غمر الدسكرة رنين جميع الاجراس المنبعث من الكنيسة. فقد صعد باشا الفتى الابله المعروف في الدسكرة، الى برج الاجراس، وصار يدق كافة الاجراس بما املاه عليه ضعف عقله. وبدلا من دق جرس الانذار الكبير اخذ يدق الاجراس كلها كما في عيد الفصح.

دنا من غافريلا القوزاقي الكوباني الذي تتدلى من كتفيه اطراف عباءة البرنص البيضاء. ارتجفت عضلات وجهه الحار والمتصبب عرقا. وتدلت اطراف شفتيه واللعاب يسيل منهما.

– هل يوجد لديك شوفان؟

ابتعد غافريلا عن الشرفة بصعوبة، ولم يستطع التحكم بلسانه الذي غدا ثقيل الحركة بعد ان اصابه الانقباض من كل ما رآه.

– اأصابك الصمم، يا للشيطان؟ هل يوجد شوفان، انا اسأل؟ اجلب كيسا منه!

وما كادوا يجلبون الى الجياد مذود العلف، حتى دلف الى الفناء فارس آخر.

– الى الجياد!.. ثمة مشاة قادمون من الرابية...

لجم القوزاقي الكوباني حصانه الذي يتصاعد العرق

المتبخر منه، وهو يصب اللعنات، ومسح طويلا طرف كمه الايمن الملطخ بشيء ما احمر قان بصورة كثيفة.

غادر الفرسان الخمسة الفناء. ورأى غافريلا في الحقيبة المتدلية من سرج حصان الاخير اطراف معطف الرجل الاشقر بارزة منها.

* * *

تواصل اطلاق النار وراء الرابية حتى المساء، في الوهدة التي تنمو فيها احراش البرقوق الشائك. وساد الدسكرة صمت يشبه صمت كلب لقي الضرب والاهانة. ولاحت تباشير المساء الزرقاء، وحينئذ اقدم غافريلا على الذهاب الى الجرن. دلف عبر البوابة المفتوحة على مصراعيها فرأى كيف تعلق بالسياج الواطيء في الجرن رئيس السوفيت الذي اصابته طلقة، وكانت يداه متدليتان وكأنهما تريدان بلوغ قبعته الملقية على الجانب الآخر للسياج.

بالقرب من كدس التبن تناثرت فوق الثلج كتل التبن وتمدد في صف واحد رجال جباية الحبوب الثلاثة بملابسهم الداخلية فقط. حينما نظر غافريلا اليهم لم يعد يتحسس في قلبه المنفعل هولا ذلك الحقد الكامن فيه صباحا. بدا له مثل الكابوس الرهيب ان تمددت جثث رجال مذبوحين في الجرن الذي تعيث فيه فسادا دوما عنزات الجيران وتسرق التبن من الاكداس. وتفوح رائحة الموت منهم ومن برك الدم المغطى بالفقاعات والمتجمد...

كان ذو الشعر الاشقر راقدا وقد ادار رأسه بصورة غير طبيعية، ولولا رأسه الملتصق بشدة بالثلج، لاعتقد الناظر اليه بانه ينال قسطا من الراحة – اذ كانت ساقاه تمتدان الواحدة فوق الاخرى بارتخاء.

اما الثاني الذي فقد احد اسنانه الامامية وذو الشاربين الاسودين فقد تكوم مخفيا رأسه بين كتفيه وكشر بغيظ. واندس رأس الثالث في التبن ورقد عائما بلا حركة في الثلج وما اكثر ما بدا من الجهد والتوتر في حركة يديه الميتتين.

انحنى غافريلا فوق الرجل ذي الشعر الاشقر متفحصا وجهه الذي اصابه الاسوداد وارتجف تأثرا: اذ كان يرقد امامه فتى في نحو التاسعة عشرة من العمر، وليس قوميسار جباية الحبوب الغاضب ذا النظرات الثاقبة. وتحت زغب الشاربين الاصفر عند الشفتين تجمد الصقيع وبانت خطوط تجعدات حزينة، وشاهد عبر الجبين فقط تقطيبة عميقة وصارمة.

مس الصدر العاري بيده بلا هدف، وذهل من المفاجأة: فقد تحسست راحة يده دفئا خابيا عبر البرد المتجلد...

تأوهت العجوز وتراجعت نحو الوجاق وهي ترسم علامة الصليب على صدرها، حينما حمل غافريلا على ظهره الجثة المتخشبة المسودة بالدم، وهو يتأوه ويئن.

ارقده على المصطبة وغسله بالماء البارد ومسح القدمين واليدين والصدر، حتى اصابه الكلل وساح منه العرق، بواسطة جورب صوفي شائك الملمس. وضع اذنه على الصدر البارد بصورة منفرة، وسمع بجهد بالغ دقات القلب الخافتة وفي فترات متباعدة.

* * *

رقد اربعة أيام بلياليها في الغرفة الكبرى شاحب الوجه كالميت. وبدا أثر جرح على جبينه وخده يمتد بلون أحمر من الدم المتخثر. وكان صدره الملفوف بضمادة بشدة يحرك الغطاء حينما يستنشق الهواء بحشرجة وقرقرة.

في كل يوم كان غافريلا يدس في فمه اصبعه المتشقق الخشن ويبعد بطرف السكين حذرا اسنانه المصطكة. اما العجوز فكانت تسكب بواسطة القصبة الحليب الساخن وحساء العظام المغلية في فمه.

في صباح اليوم الرابع غمرت وجنتي الرجل الاشقر صبغة وردية، وبحلول منتصف النهار صار وجهه أحمر مثل غصن الزعرور البري بعد اشتداد الزمهرير، وصار جسده كله يرتجف، وتصبب تحت قميصه عرق بارد ولزج.

منذ تلك اللحظة اخذ يهذي بصورة غير مترابطة وبهدوء. وسعى الى الوثوب من الفراش. ولازمه ليلا ونهارا غافريلا والعجوز بالتناوب.

في ليالي الشتاء الطويلة، حينما تهب الريح الشرقية من جهة الدون معكرة السماء المشوبة بالاسوداد وناشرة السحب الباردة على ارتفاع منخفض فوق الدسكرة، كان غافريلا يجلس الى جانب الرجل الجريح، واضعا رأسه بين يديه، ومصغيا الى هذيان ذاك الذي يتحدث عن امر ما بصورة متقطعة وبلهجة يغلب عليها حرف «الواو» ولم يسمعها من قبل. كان يحدق طويلا في المثلث الاسمر الذي ولده لفح اشعة الشمس على صدره، وفي الجفنين الزرقاوين للعينين المغلقتين، المحاطتين بهالتين رماديتين غامقتين. وعندما سالت من الشفتين الشاحبتين الانات والتأوهات المديدة والاوامر الصادرة بصوت مبحوح والشتائم القبيحة وارتسمت على الوجه امارات الالم والغضب — كانت الدموع تترقرق على صدر غافريلا. وفي تلك اللحظات اصابته الشفقة دون استدعاء.

ورأى غافريلا كيف كانت العجوز تشحب وتهزل عند السرير يوما بعد يوم. ولاحظ الدموع فوق خديها المغضنين بالتجاعيد. وادرك، او بالاحرى، احس بقلبه، ان حبها لابنها الفقيد بترو الذي لم تبكه حتى النهاية قد تحول الى مشاعر ساخنة نحو ابن الغريب هذا الذي يراوده الموت...

عرج مرة عليهم قائد فوج بالدسكرة. ترك حصانه عند المدخل مع مرافقه، وهرع نفسه الى شرفة مدخل البيت، مقعقعا بسيفه ومهمازيه. نزع قبعته في غرفة الجلوس ووقف فترة طويلة صامتا عند السرير. كانت تحوم فوق وجه الجريح ظلال شاحبة، والدم ينزف من الشفتين الساخنتين بسبب ارتفاع درجة حرارته. هز القائد رأسه الذي وخطه الشيب قبل الاوان. بان عليه الاسى وتطلع الى مكان ما بعيدا عن عيني غافريلا:

— اعتن بالرفيق، ياشيخ.

فاجاب غافريلا بحزم:
– سنعتني به!
مضت الايام والاسابيع، وجاء عيد الميلاد ومضى. وفي اليوم السادس عشر فتح ذو الشعر الاشقر عينيه لاول مرة. وسمع غافريلا صوتا ضعيفا واهنا مثل نسيج العنكبوت:
– اهذا انت يا شيخ؟
– نعم.
– هل انهم بطشوا بي كثيرا جدا؟
– لا سامح الله!
بدا لغافريلا في النظرة الشفافة المقتضبة شيئا من السخرية البسيطة الخالية من الخبث.
– وماذا جرى للشباب؟
– انهم... لقد دفناهم في الساحة.
حرك الغطاء باصابعه صامتا وحول نظراته الى لوحات السقف غير المطلية.
سأل غافريلا:
– ما هو اسمك؟
خفض الجفنين الزرقاوين بوهن.
– نيكولاي.
فقال غافريلا شارحا:
– حسنا... اما نحن فسندعوك بترو... كان لدينا ابن اسمه بترو...
وفكر هنيهة واراد السؤال عن شيء ما آخر، لكنه سمع الانفاس المنتظمة من أنفه، وتوازن بحركة من يديه وابتعد ماشيا على رؤوس اصابعه عن السرير.

* * *

عادت الحياة اليه ببطء كما لو كان على كره منها. في الشهر التالي رفع رأسه من الوسادة بمشقة. وبانت على ظهره قرح الفراش.

وفي كل يوم كان غافريلا يحس بفزع من كونه يتعلق بمودة اكثر فاكثر ببترو الجديد. بينما بدأت صورة ابنهما الاول تخبو وتضعف في الذاكرة مثل ومضات الشمس الغاربة على بلق نوافذ بيتهم. وسعى الى استعادة ذكرى الكآبة والامل كحاله سابقا. بيد أن الماضي كان يبتعد شيئا فشيئا، واحس غافريلا بالخجل والارتباك لهذا السبب... صار يذهب الى حظيرة الماشية ويعمل هناك الساعات الطوال، الا انه عندما كان يتذكر بانه تجلس العجوز عند فراش بترو دون الابتعاد عنه خطوة بدأ يشعر بشيء من الغيرة. فيدلف الى البيت ويطبطب بقدميه صامتا عند موضع الرأس من الفراش، ويعدل غطاء الوسادة باصابعه المتصلبة، وحينما يلتقط نظرات العجوز الغاضبة يجلس بوداعة على المصطبة ساكنا بلا حركة.
كانت العجوز تطعم بترو بشحم حيوان المرموط ونقيع الحشائش الطبية التي حصدت في الربيع عندما تزهر أبان شهر أيار. لربما كان هذا السبب او لان الشباب تغلب على المرض، الا ان الجروح اندملت واصطبغت الوجنتان النضرتان بالحمرة، سوى ان الذراع اليمنى لم تلتئم جيدا، والتي كانت قد كسر عظمها عند اسفل الكتف، ويبدو انها لن تسترجع عافيتها.
مع ذلك جلس بترو في الفراش بنفسه لاول مرة وبدون مساعدة احد في الاسبوع الثاني للصوم الكبير، وابتسم طويلا وبريبة لدهشته من قوته الذاتية.
في الليل همس غافريلا في المطبخ وهو يسعل:
– هل تنامين، يا عجوز؟
– مالك؟
– فتانا ينهض على قدميه... استخرجي غدا سراويل بيوتر من الصندوق... جهزي كافة الملابس له... فليس لديه ما يلبسه.
– انا نفسي اعرف هذا! وقد جهزتها منذ ايام.
– يا لك من حثيثة!.. هل جهزت معطف الفرو؟

– نعم، هل سيمشي الفتى عاريا؟

تقلب غافريلا فوق الوجاق، وكاد يغفو، لكنه تذكر ورفع رأسه بسرور:

– والقبعة؟.. لابد وانك، ايتها الاوزة العجوز، نسيت تهيئة القبعة!

– اتركني وشاني! مررت بها اربعين مرة دون ان تراها، انها معلقة هنا بالمسمار امامك!..

سعل غافريلا بأسى وصمت.

اخذ الربيع الحثيث يبعث الحياة والنشاط في الدون. واصاب الجليد الاسوداد كما لو نخره الدود، وغدا هشا غير أملس. تعرت الرابية، وانحسرت الثلوج من السهب فيما عدا الوهاد والمنخفضات. والضفة البعيدة انداحت بوداعة تحت اشعة الشمس الغزيرة. وحملت الرياح من السهوب بسخاء العبير المشوب بالمرارة لنبات الافسنتين. حلت نهاية آذار.

* * *

– اليوم سأنهض يا أبي!

بالرغم من انه كان يدعوه «بالاب» جميع رجال الجيش الاحمر الذين عبروا عتبة بيت غافريلا، حينما ينظرون الى شعر رأسه الذي اشتعل شيبا، ولكن في هذه المرة احس غافريلا برقة في لهجة الصوت. وهل بدا له الامر كذلك ام ان بترو فعلا ضمن هذه الكلمة رقة الابناء، الا ان وجه غافريلا قد اصطبغ بحمرة شديدة واخذ يسعل، وتمتم مخفيا فرحته المقترنة بالارتباك:

– لازمت الفراش ثلاثة شهور... وحان الوقت للنهوض، يا بيتيا!

خرج بترو الى الشرفة بحركات عرجاء وكاد يختنق من غزارة الهواء الذي حملته الريح الى رئتيه، وسانده غافريلا من الخلف بينما انشغلت العجوز في الشرفة ماسحة دموعها المالوفة بالمريلة.

حينما مضى بترو، ابنهما بالتبني، وهو يعرج بمحاذاة سقف العنبر المتداعي سأل:

– هل نقلت الحبوب آنذاك؟

تمتم غافريلا على مضض:

– نقلته!

– حسنا فعلت، يا أبي!

مرة اخرى احس غافريلا بالدفء في صدره لدى سماع كلمة «ابي». كان بترو يزحف يوما في ارجاء الفناء في مشية خرقاء مستندا على العكازات. وفي كل مكان – من الجرن ومن سقيفة العنبر، واينما كان غافريلا، كان يودع الابن الجديد بنظرات قلقة وباحثة. وكله خشية الا يعثر ويسقط!

كانت الاحاديث التي يتبادلانها قليلة. بيد ان العلاقات الناشئة بينهما بسيطة وعامرة بالمحبة.

حدث مرة بعد يومين من خروج بترو الى الفناء لاول مرة، ان سأل غافريلا قبيل النوم وهو يضطجع بصورة مريحة فوق الوجاق:

– من أين انت، يا بني؟

– من الاورال.

– هل انت من الفلاحين؟

– كلا... من العمال.

– ما معنى هذا؟ هل كانت لك صنعة ما... مثل اسكافي؟ صانع براميل؟

– كلا، يا ابي، كنت اعمل في مصنع. في مصنع الحديد الزهر والسباكة. وعملت هناك منذ صغري.

– وكيف التحقت بفصيلة جباية الحبوب؟

– ارسلوني من الجيش.

– ومن كنت عندهم آنذاك؟ قائدا؟

– نعم، يا ابي.

كان السؤال التالي عسيرا، لكنه بالذات ما كان يسعى اليه.

– اذن، انت حزبي؟
اجاب بترو مبتسما ابتسامة مشرقة:
– شيوعي.
وبدا لغافريلا من هذه الابتسامة ان الكلمة الغريبة ليست باعثة على الخوف.
انتهزت العجوز الفرصة وسألت باهتمام:
– وهل لديك اسرة يا بيتيا؟
– لا أحد! انا وحيد كالهلال في السماء!
– هل توفي والداك؟
– منذ صغري... حينما كنت في السابعة من العمر. قتل ابي في شجار حينما كان سكران. اما امي فقد رحلت مع عشيق لها الى مكان ما.
– يا لها من كلبة! اذ تركتك، انت المسكين، للاقدار؟
– رحلت مع احد المقاولين، اما انا فشببت في المصنع.
انزل غافريلا ساقيه من الوجاق وصمت طويلا، ثم تحدث بصورة متقطعة وببطء:
– مادمت، يا بني بلا أهل، فابق معنا... كان لدينا ابن... ولهذا ندعوك باسمه – بترو... عاش ثم رحل وقتل، اما الآن فنعيش، انا والعجوز، ما بقي من ايامنا معا... وخلال هذه الفترة ما اكثر ما عانينا من آلام معك. لابد وان هذا ما جعلنا نحبك. بالرغم من ان دمك غريب عنا، فاننا نشعر بالم في قلبنا من اجلك كما لو كنت ابننا من لحمنا ودمنا... ابق! وسنعيش معك بفلاحة الارض. وارضنا في الدون خصبة وسخية. سنؤمن لك الطعام والكساء ونزوجك... ان حياتي على وشك الاختتام، فتول ادارة شئون المزرعة. والمهم بالنسبة لي ان تحترم شيخوختنا وان تطعمنا حتى الممات... لاتتركنا، نحن العجوزين، يا بترو...
أز صرصور وراء الوجاق ازيزا حادا ورتيبا.
وصدر عن مصاريع النوافذ عويل كئيب.

– اننا مع العجوز بدأنا في البحث عن خطيبة لك! – اصطنع غافريلا المرح وغمز، لكن ارتسمت على شفتيه المرتجفتين ابتسامة بائسة.
كان بترو يحدق في الارضية المتشققة تحت قدميه، ويدق بيده اليسرى على المصطبة دقات قصيرة خافتة. وبدا الصوت قلقا ومقتضبا: تك – تيك – تاك!.. تك – تيك – تاك!.. تك – تيك – تاك!..
من الجلي انه كان يمعن الفكر في الجواب. وبعد ان اتخذ قراره أوقف الدق وهز رأسه:
– انني، يا ابي، سيسرني البقاء معكم. لكن كما ترى فانني لا انفع كثيرا في العمل... ويدي، المعيلة، لن تتعدل... عليها اللعنة! لكنني سأعمل بقدر ما استطيع... سأعيش فترة الصيف، وبعدها سنرى.
انهى غافريلا الحديث:
– عند ذاك لربما ستبقى الى الابد!
طنطنت عجلة الغزل تحت قدم العجوز بجذل، واطلقت مواءا وهي تلف الصوف الناعم حول المغزل.
هل كانت تهدهد او تعد بالحياة الرغيدة بطنطنتها الرتيبة الباعثة على السبات – من يدري؟

* * *

في اعقاب الربيع جاءت الايام التي تلفحها الشمس، وكانت متجعدة ورمادية بفعل غبار السهب الغزير. وبقي الطقس لطيفا رائقا خلال فترة طويلة. والدون الثائر كحاله دوما، تصاعدت فيه الامواج الناتئة. وسقيت مياه الفيضان البيوت الواقعة في اطراف الدسكرة. اما ضفة النهر البعيدة الخضراء المائلة الى البياض فقد اشبعت الريح بالعبير العسلي لاشجار الحور المزهرة. وفي المراعي كانت ثمة بركة تغطيها وريقات ازهار التفاح البري فصارت بلون الورد. وفي الليالي كانت تومض انوار البرق البعيدة بغنج،

كما كانت الليالي قصيرة مثل وميض هذه الانوار. ولم تكن الثيران تأخذ قسطها من الراحة بعد نهار العمل الطويل. وسيقت الى المراعي الماشية الكالحة اللون التي اصابها الهزال.

عاش غافريلا وبترو في السهب فترة اسبوع كامل. كانا يحرثان الارض ويسويانها ويبذران البذور ويبيتان تحت العربة متلفعين بمعطف فرو واحد. بيد ان غافريلا لم يتحدث أبدا عن الرابطة المتينة التي توثقت مع ابنه الجديد. انه اشقر الشعر ومرح ومحب للعمل اعاد ذكرى بترو الفقيد، الذي صار غافريلا يستعيد ذكراه في اوقات متباعدة اكثر فاكثر. ولم يعد له وقت للذكريات ابان الانهماك في العمل.

انصرمت الايام بسرعة ودون ان تلحظ. اقترب موسم الحصاد.

في صباح احد الايام انشغل بترو في تهيئة الحاصدة. وقد دهش غافريلا حينما رأى انه اصلح في ورشة الحدادة السكاكين وصنع اجنحة جديدة بدل القديمة في الآلة. وانهمك في العمل مع الحاصدة منذ الصباح، وحينما ادلهم الظلام توجه الى مقر اللجنة التنفيذية حيث استدعوه الى اجتماع ما. في هذا الوقت عادت العجوز، التي توجهت في طلب الماء، برسالة من دائرة البريد. كان المظروف وسخا وقديما. ويحمل عنوان غافريلا مع الرجاء لتسليمها الى الرفيق نيكولاي كوسيخ.

اصاب غافريلا قلق مبهم، فصار يقلب بيديه طويلا المظروف ذي الحروف غير الواضحة المكتوبة بقلم بصمة. رفعه وتطلع اليه في النور المقابل، لكن المظروف كان يحتفظ باسراره في حرز حريز، واحس غافريلا بلا ارادته بغضب متزايد على هذه الرسالة التي عكرت هدوءه المعتاد.

جالت في خاطره للحظة فكرة ان يمزقها، ولكن بعد ان فكر قليلا، قرر تسليمها. استقبل بيوتر من الباب بالنبأ:

— وردت لك، يا بني، رسالة من مكان ما.

فعجب هذا وقال:

— لي؟

— لك. تعال واقرأ!

اشعل غافريلا النور في البيت وتابع بنظرات ثاقبة تسبر الاغوار وجه بيوتر المبتهج الذي يطالع الرسالة. ولم يطق صبرا فسأله:

— من اين الرسالة؟

— من الاورال.

وسألت العجوز بفضول:

— من ارسلها؟

— الرفاق في المصنع.

تيقظ غافريلا على الفور:

— عن اي شيء يكتبون؟

خمد الوميض في عيني بيوتر وقال على مضض:

— انهم يدعونني الى المصنع... انهم يعتزمون تشغيله. اذ توقف عن العمل منذ عام ١٩١٧.

سأل غافريلا بصوت ضعيف:

— لكن... هل ستسافر اليهم؟

— لا اعرف...

* * *

احدودب ظهر بترو وشحب وجهه. وفي الليالي كان غافريلا يسمعه يتنهد ويتقلب في الفراش. وبعد تأمل طويل ادرك بأن بترو لا يستطيع العيش في الدسكرة، ولن يحفر بالمحراث الارض البكر الخصبة، فالمصنع الذي اطعم بترو سينتزعه منهم عاجلا او آجلا. وستحل مجددا سلسلة الايام الموحشة الخالية من البهجة. وتمنى غافريلا لو يدمر المصنع المقيت عن بكرة ابيه. ولو يسويه مع الارض لكي ينمو هناك نبات القراص والحشائش البرية.

في اليوم الثالث، تحدث بترو ابان الحصاد، حينما جلسا عند العربة لشرب الماء والراحة:

– لا استطيع، ابتاه، البقاء! ساسافر الى المصنع، انه يدعوني، ويعكر الطمأنينة في روحي...

– هل ان العيش هنا لا يرضيك؟..

– ليس الامر كذلك... لقد دافعنا عن مصنعنا اسبوعا ونصف حينما زحف جيش كولتشاك. وشنق رجال كولتشاك تسعة منا حالما استولوا على البلدة. اما الآن فان العمال العائدين من الجيش يبنون المصنع لتشغيله مجددا... انهم يتضورون وعوائلهم جوعا، ومع هذا يعملون. فكيف استطيع العيش هنا؟ وتأنيب الضمير؟..

– بم ستنفعهم؟ فذراعك عاطلة!

– حديثك غريب، يا ابي! ان كل يد عزيزة هناك.

اجاب غافريلا محاولا اخفاء المه:

– لن ابقيك، لتسافر! لاتقل الحقيقة للعجوز، قل لها انك ستعود... وانك ستمضي فترة هناك وتعود... والا فستموت حزنا، فانت وحيدنا...

تشبث بالأمل الاخير، وقال بهمس وبصوت متقطع ومتحشرج:

– لربما ستعود فعلا؟ ها؟ ألا تشفق على شيخوختنا، ها؟

* * *

صرت العربة وخطت الثيران خطوات متعثرة وتناثر الطباشير الرخو من تحت العجلات بخشخشة. انعطف الطريق الى اليسار بالقرب من الكنيسة الصغيرة، من مساره بمحاذاة الدون. بدت من المنعطف كنائس دسكرة مركز المنطقة والبساتين المنداحة في زخرفة انيقة.

تحدث غافريلا طوال الطريق بلا انقطاع. حاول ان يبتسم.

– في هذا المكان غرقت فتيات في الدون قبل ثلاثة أعوام. ولهذا شيدت هذه الكنيسة الصغيرة. – واشار بعصا سوطه الى قبة الكنيسة المتداعية. – هنا سنفترق. بعد

هذا لا يوجد طريق، فقد حدث انهيال من التل. والدسكرة تبعد عن هنا مسافة فرسخ واحد. وستصلها مشيا على مهلك.

عدل بترو حقيبة الطعام المعلقة بحزام وترجل من العربة. وجاهد غافريلا ليمنع نفسه من البكاء ورمى السوط على الارض ومد يديه المرتعشتين:

– وداعا، حبيبي!.. الشمس الساطعة ستغيب عندنا بدونك! – التوت ألما سحنة وجهه المبلل بالدموع وصاح بصوت عال: – هل نسيت القطائر يا بني؟.. العجوز صنعتها من اجلك. هل نسيتها؟.. حسنا، وداعا!.. وداعا، يا بني!

مشى بترو مشية عرجاء، وكاد يهرول، حتى الدرب الضيق. وصاح غافريلا متشبثا بالعربة:

– عد الينا...

وصاح صوت ما في قلبه يقول: «انه لن يعود!»

تراءى لآخر مرة وراء المنعطف الرأس الاشقر الشعر الحبيب، ولوح بترو بقبعته لآخر مرة. وفي المكان الذي كانت تطأه قدماه أخذت الريح تهب بسخف وتثير الغبار الضبابي الابيض.

١٩٢٦

الخاتمة

نستهل بمجموعة الاقاصيص هذه المجلدات الاربعة من المؤلفات المختارة لميخائيل شولوخوف، احد اعلام الادب السوفيتي، بطل العمل الاشتراكي مرتين، الحائز على جائزة لينين لروايته «أرضنا البكر» والحائز على جائزة الدولة في الاتحاد السوفيتي لروايته «الدون الهادىء»، والحائز على جائزة نوبل، وحامل لقب الدكتوراه الفخرية لاقدم جامعات اوربا.

ونحن اذ نعاصر الشهرة العالمية الراهنة للكاتب، نسترجع في الذاكرة احداث تأريخ الادب السوفيتي والتي جرت منذ ما يربو على نصف قرن من الزمان.

نشرت اول مجموعة قصصية لميخائيل شولوخوف في عام ١٩٢٦. وبارك الكاتب الشاب في طريق الابداع الشاق «عرابه» في الادب الناثر السوفيتي المعروف الكسندر سيرافيموفيتش صاحب رواية «السيل الحديدي». فقد كتب مقدمة تحدث فيها بنظر ثاقب ودقة عجيبتين عن اهم خصائص موهبة الكاتب الفتي مؤلف «قصص الدون» (كان ميخائيل شولوخوف قد بلغ في عام ١٩٢٦ الحادية والعشرين من العمر فحسب). كانت المقدمة مقتضبة مما يعطينا الفرصة لايرادها هنا كاملة:

«تبدو اقاصيص الرفيق شولوخوف مثل الزهرة البرية،

والسفعة الحية. وتروى ببساطة ووضوح فتحس بالصورة ماثلة امام ناظريك. ولغتها مجازية، تلك اللغة الكثيرة التلاوين التي يتحدث بها القوزاق. كما انها مقتضبة، وهذا الاقتضاب مترع بالتوتر والصدق.

لديه احساس بالوقوف عند حده في اللحظات المؤثرة، ولهذا فانها تنفذ الى الاعماق. لاحظة مرهفة وراصدة. ومقدرة على انتقاء السمة الاكثر تميزا من بين أخريات كثيرة.

وتشير الدلائل كافة الى ان الرفيق شولوخوف سينمو الى كاتب بليغ، – وما عليه سوى التعلم، وسوى العمل لدى ابداع كل شيء، وعدم العجلة».

كان الكسندر سيرافيموفيتش، الذي ثمن ليف تولستوي قصصه كل التثمين، احدى الحلقات الرابطة الحية في ذلك الزمان بين الادب الكلاسيكي الروسي والادب السوفيتي الذي بدأ يشب لتوه. وكانت كلمة الاستحسان التي وجهها الى الاديب الشاب علامة ذات دلالة خطيرة.

في تلك الاعوام صار يبرز في الادب السوفيتي الاسم الجديد تلو الآخر، وتولد الاعمال التي تعكس الواقع الجديد. وطرح بكل عنفوانه الموضوع الملحمي، الجديد مبدئيا: الشعب والثورة. ومهدت الاعمال المكرسة لهذا الموضوع الدرب الرئيسي لتطور الادب السوفيتي الفتي. ورواده من الادباء هم مكسيم غوركي في النثر، وفلاديمير مياكوفسكي في الشعر. ومن الاعمال التي ظهرت في تلك الفترة: «تشابايف» لديمتري فورمانوف و «السيل الحديدي» لالكسندر سيرافيموفيتش و «الهزيمة» لالكسندر فادييف وروايات الكسي تولستوي ونيكولاي اوستروفسكي وقسطنطين فيدين وغيرهم من اساتذة القلم.

جاء شولوخوف الشاب الى الادب، كاترابه الاقدمين، ليس من هدوء المكاتب، بل شارك بنفسه في تغيير الحياة، وكان في خضم الاحداث التي قلبت مسيرة التأريخ بعنف.

ولد كاتب المستقبل في ٢٤ ايار (مايو) عام ١٩٠٥ في عزبة واقعة على نهر الدون اسمها كروجيلين، بالقرب من الدسكرة القوزاقية فيشينسكايا التي استقر فيها نهائيا فيما بعد.

لايزال قائما حتى الآن ذلك البيت الريفي الصغير في كروجيلين. وسيريك اياه اهاليها بمودة وحنان. تطل على العالم من واجهة البيت المطلية بالكلس الابيض ثلاث نوافذ فحسب، وتغطي سقفه التشاكان – وهي اعواد القصب الجافة المرتبة بعناية، والمقصوصة الاطراف بالتساوي. في ذلك الحين كانت العزبة كلها تتالف من مثل هذه الابنية باستثناء البيوت التي يقطنها القوزاق الاغنياء.

كان ابوه، حسب تقسيم الفئات آنذاك، من صغار الموظفين، وينحدر اصله من محافظة ريازان، بينما تربطه اواصر القربى عن طريق امه بالفلاحين الاوكرانيين.

ثمة قصة مؤثرة انطبعت في ذاكرة الكاتب. اذ كانت امه فلاحة بسيطة جدا وامية، وعندما اخذ الاب ابنه الى المدرسة الثانوية، وجدت في نفسها القوة لكي تتعلم القراءة والكتابة من اجل ان تكتب الرسائل الى ابنها بنفسها، دون معونة أحد.

وقد استشهدت اناستاسيا دانيلوفنا، ام شولوخوف، في عام ١٩٤٢ حينما قصفت الطائرات الفاشية دسكرة فيشينسكايا. اما ابوه، الكسندر ميخايلوفيتش، فقد توفي في عام ١٩٢٦.

...انصرمت اعوام الدراسة في المدرسة الثانوية، والاعوام التي ألقت بالفتى اليافع في دوامة الاحداث العاصفة للتاريخ. وادركت الحرب الاهلية فتانا عندما كان على نهر الدون.

فيما بعد عمل شولوخوف معلما، ولدى مشاركته في مكافحة الامية بين السكان البالغين بمنطقة نهر الدون عمل ملاحظا (موظفا صغيرا) في دسكرة كارغينسكايا، ثم شغل

في فترة ١٩٢١ – ١٩٢٣ وظيفة مفتش للاغذية. وعاش ردحا من الزمن بموسكو.

بدأ الكتابة منذ عام ١٩٢٣. وصارت «قصص الدون» تنشر الواحدة تلو الاخرى في صحف الشباب المركزية. وبحلول عام ١٩٢٦ شرع الكاتب في تاليف رواية «الدون الهادئ».

من الطبيعي ان تتناول ريشة الكاتب التجربة الضخمة، التي عاشها لتوه هو نفسه وشعبه.

...لقد اجتاحت الحرب الاهلية البلاد كلها. كما كانت ترغو وتزبد على ضفاف نهر الدون، حيث مسقط رأس شولوخوف، وفي قرى القوزاق من دساكر وعزب.

كان ذلك زمن النهوض الروحي العظيم للشعب، والحماس الشامل، والاندفاع الثوري نحو المستقبل. بيد انه لم تكن قد هزمت بعد قوى الرجعية. وكانت تعمل كل شيء من اجل اعادة الماضي، واغراق الثورة بالدم. وتواصل الصراع دون ان تخف حدته...

قد يبدو غريبا بالنسبة الى قارىء هذا الكتاب انه حتى الابطال الصغار «قصص الدون»، واحيانا الاطفال، يتحملون كل عبء الثقل الذي لا تقدر على حمله سوى الكواهل الشديدة، ويشاركون في القتال بقدر يوشك ان يكون على قدم المساواة مع الكبار.

الا انه في تلك الاعوام لم يكن يتوفر في روسيا الوقت لتطور شيمة المرء وشخصيته. وكان الصبيان الذين لم يبلغوا بعد احيانا سن الفتوة يضطرون الى معالجة احدى المشاكل، دون انتظار السير اللاحق للاحداث، والى تحديد مكانتهم في الحياة.

لو تطلعنا واياكم الى سيرة الحياة الذاتية المقتضبة التي كتبها ميخائيل شولوخوف ونشرت في احدى الطبعات الاولى لـ«قصص الدون»، لطالعنا فيها مايلي:

«بدأت منذ عام ١٩٢٠ بالخدمة وطفت في ارجاء ارض الدون. وعملت فترة طويلة مع رجال جباية المواد الغذائية.

وطاردت العصابات التي سادت في الدون حتى عام ١٩٢٢، كما وطاردتنا العصابات. وجرى كل شيء كما هو مقرر. وحدث ان شهدت مختلف الحالات الحرجة...».

انكم تعرفون من قراءة قصة «دم غريب»، مثلا، ما كان يمارسه رجال جباية المواد الغذائية في القرى الروسية وقتذاك، ومدى ما كانت تكتنف عملهم من مشاق ومخاطر. وبقي ان نذكر بان ميخائيل شولوخوف كان في الخامسة عشرة من عمره في عام ١٩٢٠.

مع ذلك لنضف عدة كلمات الى ما طالعتموه في القصص. عدة كلمات اردت بها تيسير فهم توتر الوضع الذي جرت فيه احداث هذه القصص.

كانت البلاد بعد الحرب العالمية الاولى، وفي اعوام الحرب الاهلية تعاني من الخراب الاقتصادي الشديد. وتحسس النقص الحاد والفاجع في الخبز العمال في المدن ورجال الجيش الاحمر، الذين كانوا يصدون هجمات جيوش البيض وقوات المتدخلين، في الجنوب والشمال والغرب والشرق.

وحتى بعد انتهاء الحرب الاهلية استمرت لفترة طويلة محاربة قطاع الطرق.

كما انهالت على البلاد الكارثة الطبيعية ممثلة بالجفاف المهلك في الاراضي الغنية عادة بالغلة والتي تمتد على طول نهر الفولغا. وكان الجوع يحصد الارواح في قرى ونجوع باكملها..

كانت البلاد بأمس الحاجة الى الخبز. ووجب اتخاذ تدابير مؤقتة وطارئة توفر الفرصة للبقاء والصمود وحماية الحرية المكتسبة، وحق اناس العمل في بناء حياتهم كما يريدون، وعلى اساس المساواة والعدالة.

عندئذ برزت الى الوجود «جباية الغذاء» وفصائل ومفتشيات جمع المواد الغذائية. وتقرر انه يتعين على الفلاحين ان يحتفظوا من محصول ذلك العام كمية من الحبوب تكفي لبذار العام القادم ولاطعام انفسهم وعوائلهم، اما الباقي

فيسلم الى الدولة من اجل اغاثة شعبهم في عام محنته، وفي سبيل صيانة حياة الملايين من ابناء جلدتهم. وكانت الكمية المتبقية، ان وجدت لدى الفلاح، تعتبر «فائضة عن الحاجة»، وتجبى باسعار محدودة.

اثارت مثل هذه الاجراءات مقاومة ضارية من قبل الفلاحين الاغنياء. وبينما كان الجيش يعاني من الجوع، ولم يعد بوسع المصانع مواصلة العمل لانه كان يقف عند الماكينات اناس جياع، والفلاحون في مناطق روسيا الاخرى يتضورون جوعا – كان الاغنياء في مثل هذا الوقت يخبئون الحبوب، ويخفونها عن اعين الغير بكل السبل. كما وابدوا، مثلما عرفتم من مطالعة القصص، مقاومة مسلحة الى الفصائل والمفتشين الذين كانوا يأتون اليهم للتأكد من كمية الحبوب الموجودة لديهم، ومن احتمال اخفاء ما ينبغي تسليمه الى الدولة.

ازداد عدد العصابات التي كانت تسفك دماء اولئك الذين يقاتلون من اجل السلطة السوفيتية ويذودون عن وجودها، والنشطاء الريفيين.

ان النماذج الاصلية لابطال «قصص الدون»، والاشخاص الذين استوحى منهم الكاتب الشخوص الروائية، كانت تحيط به في حياته اليومية. وكان يستنشق معهم الهواء ذاته بكل معنى الكلمة.

واغلب الظن تعزى الى ذلك بقدر كبير هذه الاصالة في التلاوين، وهذه الدقة في اللمسات، وهذا الصدق في التصوير.

ثمة فكرة مبدئية اخرى. يفترض الادراك العميق لـ «قصص الدون» ان القارىء يعرف القوزاق بصفتهم فريقا متميزا من الفلاحين الروس، واهمية قوزاق الدون في التاريخ الروسي، وما صاروا عليه في اعوام الثورة.

في الماضي البعيد كان «القوزاق الاحرار» الذين استقر بهم المقام في السهوب على ضفاف الانهار بجنوب روسيا يتألفون من الفلاحين الهاربين من سلطة القيصر والمالكين

العقاريين، التي سامتهم صنوف الاضطهاد. وانجب قوزاق الدون زعماء انتفاضات فلاحية قوية ضد القياصرة مثل ستيبان رازين ويميليان بوغاتشيوف وكوندراتي بولافين المعروفين جيدا في تاريخ روسيا وجاء ذكرهم في الاغاني الشعبية.

لقد استطاعت السلطة القيصرية اخماد هذه الانتفاضات ونكلت بزعمائها. وسعت على امتداد القرون الى استغلال مستوطنات القوزاق والقوة المسلحة للقوزاق في اطراف جنوب البلاد بمثابة حاجز طبيعي، ان جاز القول، ضد غزوات الاجانب، وكذلك للاستيلاء على اراض جديدة. وحاولت القيصرية تدريجيا تحويل القوزاق، اولئك الفلاحين – المقاتلين المسلحين، الى ركيزة مضمونة وثابتة لها.

وزج بالقوزاق في نهاية القرن التاسع عشر والاعوام التالية لقمع الحركة الثورية للعمال والفلاحين الروس، والنضال الوطني التحرري لمختلف شعوب الامبراطورية الروسية.

اتبعت السلطة الاستبدادية الروسية حيال القوزاق سياسة تتصف بالدهاء والحذق. وبذل كل شيء من اجل الايماء الى القوزاق بتصور مفاده انهم يمثلون طائفة ما، عليا، قياسا الى بقية الفلاحين في روسيا، وانهم حتى «قوم» ما خاص، منفصل عن كافة سكان البلاد. وجرى ذلك في سبيل ان يكون من الايسر تاليب القوزاق على الفلاحين في الاقاليم والمقاطعات الاخرى، وعلى الشعوب «الصغيرة» حينما تجد السلطة القيصرية حاجة لذلك.

بينما لم يكن القوزاق بكل خصوصية تاريخهم، ووضعهم في المجتمع آنذاك، يمثلون البتة جمهرة متجانسة من الناس لا من حيث الملكية ولا من حيث الوضع القانوني. فالصراع الطبقي، وتصادم مصالح المالكين والمعدمين، والسادة وفقراء الفلاحين، كانا يقسمان القوزاق، مثل كافة الفلاحين، الى معسكرين متخاصمين.

الا ان هذه العمليات جميعا جرت على الدون بصورة

اكثر تعقيدا مما في الاراضي الروسية الأخرى. ان فكرة «الاستقلالية» التي غرسها ايديولوجيو الثورة المضادة في اوساط جماهير القوزاق، وشعورهم بانهم طائفة مختارة ما، والاباطيل الفئوية قد جعلت من العسير على القوزاق اختيار الطريق التاريخية الصائبة.

كان يجري على الدون في اعوام الحرب الاهلية حل مشكلة معقدة جدا هي: هل ستؤيد شريحة اجتماعية متميزة كالقوزاق السلطة السوفيتية في نهاية المطاف ام ستقف ضدها.

لقد كشف شولوخوف منذ خطواته الاولى في الادب السعي الى طرح موضوعات اجتماعية عميقة. ونشر القصص التي عرت الصدامات الطبقية الحادة. ويظهر في «قصص الدون» اعوام الحرب الاهلية وكذلك النضال من اجل القرية الجديدة، وتحطم نمط حياة القوزاق القديم.

عندما يطلع القارىء على هذه القصص يرى مشاهد قاسية من الصراع من اجل الحياة الجديدة، ويرى كيف تناضل طبقة ضد طبقة اخرى. لكنه يرى ايضا بانه كان يغدو في معسكرين مختلفين اناس تربطهم اواصر قربى متينة: كالاب والابن، والاشقاء. ويكفي ان نسترجع في اذهاننا موضوعي «حارس مزرعة البطيخ» او اول قصة لشولوخوف «الشامة» وبها بدأ. ويتكشف فيهما انه كان أيسر بالنسبة الى شباب القوزاق الانسلاخ عن اباطيل القوزاق الشيوخ الفئوية، ولهذا السبب كان افراد الاسرة الواحدة يقفون في بعض الاحيان على جانبين متباينين من المتاريس.

لا يجوز اغفال مدى حماس الكاتب في رسم شخوص شباب العزب والدساكر، الذي مضى وراء من اقام الانظمة السوفيتية الجديدة على ضفاف الدون. انهم دونياتكا وشقيقها جريجوري في قصة «الراعي»، والشقيقان ميتيا وفيديا في قصة «حارس مزرعة البطيخ» وفيودور الفلاح الأجير البالغ السادسة عشرة من العمر... واغلبيتهم من اقرانه، وعلى اية حال – من ابناء جيل واحد.

قال شولوخوف في وقت متأخر:

«ليس بوسع الفنان ان يكون باردا حينما يبدع! ولن تكتب عملا حقيقيا ولن تجد ابدا السبيل الى قلب القارىء بدم سمكة وبقلب خامد ترهلا.

انني الى جانب ان يغلي الدم الساخن لدى الكاتب عندما يكتب. وانا الى جانب ان يشحب وجهه بالحقد الدفين على العدو حينما يكتب عنه، وان يضحك الكاتب ويبكي سوية مع البطل الذي يحبه والعزيز الى نفسه».

لقد احتلت «قصص الدون» منذ أمد بعيد مكانة فخرية على رفوف الكتب الى جانب الكتب الرئيسية للمؤلف. وترجمت الى كثير من لغات شعوب وقوميات البلاد السوفيتية. كما ويعرفونها في البلدان الاخرى.

وتم اخراج عدد من القصص على الشاشة، وتجسد فيها ابطال قصص مثل «الراعي» و «الشامة» و «ابن حرام» و «عدو لدود» و «المهر» و «دم غريب»...

...كنت حاضرا في بلدية ستوكهلم حينما القى هذا الكاتب الانساني كلمة اورد فيها مبادئه الابداعية. فقال ان البشرية غير مقسمة الى مئات الافراد، المنعزلين، السابحين كما لو كانوا في حالة انعدام الوزن، مثل رواد الفضاء الذين انطلقوا خارج حدود الجاذبية الارضية. نحن نعيش على الارض ونخضع لقوانين الارض، وتحرك الفئات الهائلة من سكان الارض طموحات واحدة، وتعيشون باهتمامات مشتركة، توحدهم بقدر اكبر كثيرا مما تفرقهم.

واعاد الكاتب الى الاذهان ان البشرية الآن تمر باعوام غير هادئة وقال: لا يوجد على الارض من شعب يود الحرب. وهل من الممكن ألا تقرع في قلب الكاتب ذكريات رماد الحرائق الفسيحة للحرب العالمية الثانية؟ وهل بوسع الكاتب الشريف ألا يقف ضد اولئك الذين يريدون الحكم على البشرية بالفناء الذاتي؟

ووجه الكاتب الى المستمعين السؤال التالي: فبم تكمن الرسالة، وما هي مهام الكاتب الذي لا يعزل نفسه

وتبدو متألقة شخوص المناضلين من اجل الحياة الجديدة، الذين وهبوا انفسهم بتفان لخدمة الثورة. ان قارئي قصص شولوخوف قد راوا منذ تلك الاعوام وصدقوا بان مستقبل بلادهم بايدي هؤلاء الاشخاص بالذات. وبالرغم من انه اظهرت اكثر من مرة حوادث قيام الاستغلاليين – الكولاك بالتنكيل بالناس الطليعيين في عزب ودساكر الدون ابان ذلك الوقت، فان القراء يدركون ايمان المؤلف بانتصار قضيتهم العادلة. وكان يهب وراءهم ويدخل المعركة العشرات والمئات والآلاف من بناة الحياة الجديدة.

في قصص شولوخوف المبكرة لا يبدو كل شيء مماثلا وعلى قدم المساواة. فثمة شيء في خصوصيات اسلوب القصص قد املته «الموضة» الادبية الشائعة في الادب الروسي في بداية اعوام العشرينيات، وكانت تعزي احيانا الى الخبرة القليلة نسبيا لرجل القلم الذي بدأ طريقه. ويجذب النظر في بعض الاحيان النزعة الطبيعية لدى وصف الظواهر العصيبة، واحيانا القاسية والفظيعة. وتكون اللغة احيانا مترعة بالالفاظ والتراكيب الكلامية المحلية. لكن هذا ليس الشيء الاساسي. وتتجلى في القصص بوضوح مهارة كاتب الروايات الشهيرة في العالم مستقبلا.

حينما ستطالعون المجلدات التالية من المؤلفات المختارة فلربما ستحضركم بعض موضوعات وشخوص قصصه الاولى التي تم تطويرها في المؤلفات المتأخرة للكاتب بشكل جديد وجبار ورائع.

أشار الكاتب نفسه الى ان من الممكن اعتبار «قصص الدون» بقدر معين «كتمهيد» لروايته «أرضنا البكر» التي ستطالعونها في المجلدات التالية «للمؤلفات». كما تتجلى الصلات الفكرية – الابداعية التي تربط هذه القصص برواية «الدون الهادىء».

لقد طالعتم قصصا مفعمة بحب كبير. وطالعتم قصصا تلسع بحقدها العنيف. ويظهر فيها باية ضراوة حاول العالم القديم خنق بادرة الحياة الجديدة والدوس عليها.

عن مصائر شعبه؟ ثم اجاب عن هذا السؤال بقوله: بالتحدث الى القارىء بنزاهة، وبقول الحقيقة الى الناس – وهي قاسية احيانا، لكنها جريئة دائما. وان يعزز في قلوب البشر الايمان بالمستقبل وان يكون مناضلا من اجل السلم في العالم اجمع وان يربي بكلمته مثل هؤلاء المناضلين في كل مكان تصل اليه هذه الكلمة! وان يوحد الناس في سعيهم الطبيعي والنبيل الى التقدم.

اختتم الكاتب كلمته بقوله:

«بودي ان تساعد كتبي الناس على ان يصبحوا افضل، وان يكونوا انقى روحا، وان تدفع الى حب الانسان، والى السعي للنضال بنشاط من اجل مثل الانسانية وتقدم البشرية. وان تسنى لي القيام بهذا بقدر ما، فانا سعيد».

آمل ان توافق انت ايضا، ايها القارىء، الذي يعيش بعيدا عن الارض التي ولد ومات وحارب ومني بالهزائم وفاز بالنصر وابتهج وتالم فيها ابطال قصص وروايات شولوخوف، آمل ان توافق على ان: الكاتب استحق تلك السعادة التي تحدث عنها.

يوري لوكين

المحتويات

كلمة عن شولوخوف ٣
الشامة ٦
الراعي ٢٠
حارس مزرعة البطيخ ٣٦
طريق الحياة . . ٥٣
ابن حرام . . . ١١٠
درب أعوج . . . ١٤٦
اساءة ١٦١
عدو لدود . . . ١٨٠
المهر ٢٠٢
السهب اللازوردي . ٢١٣
عمال زراعيون . . ٢٢٥
دم غريب . . . ٢٨٠
الخاتمة ٣٠٦